obeikandl.com

ما لم تقله النساء

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

obeikandl.com

محمد القصبي

ما لم تقله النساء

رواية

obeikandl.com

الكتـــاب: ما لم تقله النساء
رواية

المؤلف: محمد القصبي

النـــاشر: مركـــز الحضـارة العربيـــة

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الغلاف إهداء من الفنان الكبير أحمد عبد النعيم

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز

تصميم وجرافيك: محمد النوبي
011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢١٩٣٤/ ٢٠١٢

الترقيم الدولي: 9-106-694-779-879

القصبي، محمد.
مـا لـم تقلـه النسـاء: روايـة/ محمـد القصبي. ط١.
– الجيـزة: مركـز الحضـارة العربيـة للإعلام والنشـر والدراسات، ٢٠١٢.
١٧٦ص؛ ٢١ سم.
تدمك: ٩ – ١٠٦ – ٤٩٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١ _ القصص العربية.
أ_ العنوان
٨١٣

obeikandl.com

إهداء

إلى أشقائي..

ماهر

عبد العاطي

هاني

ميمي

إلي شقيقتي..

عفاف وسعاد

عالمي المفعم بالحب ..

بالخير .. بالسلام ..

obeikandl.com

obeikandl.com

أستاذي د/ سامي الجبالي

مع آخر كلمة سطرتها في رسالتي هذه.. أراني مدفوعة للعودة إلى البدء لأدمي ورقتها الأولى بنزف انشطاري بين رغبتين حادتين ..

أن أمزق أوراقي تلك وتظل صرختي حبيسة مخدعي ..

أو..

أن أرسلها لك وحدك لتمزقها بعد قراءتك لها ..

لكن رغبة ثالثة تراودني.. أن تطير أوراقي عبر كل الأسيجة لتمطر الرجال بحقيقتي.. لكنها رغبة ما زالت في بدء تكورها برحم أحلامي .. وأمامها أجيال وأجيال حتى تتحول إلى كائن مكتمل جدير بالانبثاق .. فلا الفلاحون في قريتي بوسط الدلتا ولا ركاب المترو في عاصمة بلادي .. ولا حتى مثقفو الأتيليه وقهوة ريش في القاهرة.. لا أحد مهيأ بعد للإنصات إلى صراخي ..

أرجوك .. مزق أوراقي تلك .. بعد أن تفرغ من قراءتك لها.. إن غلبتني الرغبة الثانية وأرسلتها لك ..

د. زينب الحناوي

obeikandl.com

obeikandl.com

من أين أبدأ ..؟

ومـا أكثـر البدايات التي تتقافـز داخلي .. تتصـارع .. كل ترغب في أن تكون السـطور التي اسـتهل بها اعترافاتي تلـك .. وأراني أكثر تعاطفا مع تلك الليلة التي تنسحق فيها تقاسيم وجه أبي ما بين الخوف والرجاء .. لم أره .. لكنه هكذا كان .. كما حكوا لي ..

ليلة ممطرة .. جدران الغرفة الطينية تصمد بأعجوبة أمام شلالات المطر المنهمر منذ يومين فلم تهو فوق رأس أمي التي فاجأها وجع الطلق .. وكلما نقلوا السـرير النحاسي إلى ركن لاتصل إليه سراسيب المياه التي تنزل من شقوق السقف الخشبي رغم أكوام القش والحطب التي ترتفع فوقه لأكثر من مترين .. سرعان ما ينبثق السقف عن سرسوب جديد..

وكثيرًا ما يحكي عدلي مازحًا:

ـ كانـت ليلة سـودة .. لاعارفين نتلم على شـوية حطب ناشـفين نولعهم عشـان أمـك المسـكينة تدفـى .. ولا كان فـي الدار قلويحـة واحدة .. والسـما المخرومـة مـش راضية تبطل نـز.. ومع كـده أبويا رضوان راسـه وألف سـيف إني أروح عزبة البيضة .. قلنا له أم حسـن كويسـة .. يزعق:

ـ أم حسن لأ .. كفاية مصايبها التلاتة ..!

ومصائبهـا الثلاث خديجة وأم كلثوم وفاطمة.. شـقيقاتي اللائي قدر لي في اللوح المحفوظ أن ألحق بهن في تلك الليلة العاصفة التي لم تفلح رعودها في صعق حلم أبي..

ـ محفوظة بنت أبو جحش .. بيقوللوا كل خلفتها ذكور ..!

ـ .. طب نجيبها إزاي دلوقتي يابا رضوان؟

ـ ياعدلـي بطـل مناحيـة فيه وخد وابـور الحرت بتاعكـم .. وروح هات

الولية .. ..

بـدأ حديث أبي كأنه أمر لايخلو من التوسـل، انصـاع له عدلي.. لكنه ألقى آخر ما بداخله من سلاح قد يدفع أبي إلى التراجع ..

ـ وهي ممكن توافق أن تيجي في ليلة زي دي ..!

ـ هتيجي إن شـاء الله .. وقل لها حلاوتك كبيرة قوي من الشـيخ رضوان الحناوي .. لو حصل المراد ..

متململـًا اعتلـى عدلي وابور الحـرت .. وبدأ ينزلق على المشـاية الموحلة والتـي بـدت كصراط رفيع مُد فوق ترعة تتعرج يمينًا ويسـارًا وأمام حجبته الأمطار .. يحبو الوابور فوق المشاية بحذر كطفل في خطوه الأولى .. لكن الحذر لم يحل دون أن تنزلق عجلاته من حافة المشاية إلى الترعة .

ويصـر دومًـا على أن يحكي ذات القصة كلما التففنا حول راكية النار فـي غرفة نوم أبي وأمي في ليالي الشـتاء البعيـدة أو فوق أكوام القش على سطح منزلنا في عصاري الصيف ..

ـ وابور الحرت لما حدف ناحية الترعة.. نزلت وفكرت أرجع تاني .. بس أنا خفت من عمي رضوان .. كان هيسود عيشتي لو رجعت له من غير محفوظة الداية .. سـحبت العباية السـودة فوق رأسـي ووشي وماعدش باين من جسمي غير العينين إللي بيعافروا علشان يلاقوا سكة لرجلي وسـط متر الوحل إللي مغطي المشاية .. .. محفوظة استغلت الظروف.. قالتلي على طول: آخد خمسة جنيه!

ـ يا نهار اسود يا خالة محفوظة .. خمسة جنيه بحالهم .. ليه إنت هتنزلي عبود باشا من بطن عمتي ..؟!

ـ وتشوف لي ركوبة .. ولا عاوزني آخدها مشي ..؟

ـ طـب أجيبلك ركوبة منيـن دلوقتي! دا الوابور سـايبه مايل على جانبه والعجلـة القدمانيـة حدفـت على الترعة عند شـجر أبو بـلال.. وعاوز

وابور معافي يشده ..

ـ هجيبلك الوابور المعافي بس هاخد خمسة جنيه ..

ـ دا أجعص جعيص في المعصرة اتسحب من بطن أمه بعشرين بيضة .. وبكتيره جنيه..!

ولما لاقتها مصرة على كلامها قلتلها:

ـ ماشي .. بس هتجيبي الوابور منين ..؟ ماردتش علي ونادت على ابنها .. وطلبت منه يروح يخبط على سعد النجولي ويجيب الوابور بتاعه ..

ـ سعد النجولي هيفتح لحد في الليلة السودة دي..!

برضه ماردتش علي .. دخلت توضب نفسها وبعد شوية سمعت صوت الوابور .. معقولة ..! طلعت أشوف إذا كان هو الوابور أو وابور حد تاني .. ما هو مش معقول سعد النجولي كبير أعيان العزبة يستجيب لمحفوظة الداية كده بسهولة .. ابنها الظاهر لاقاني مستغرب فشرح لي الحكاية: سعد النجولي قعد متجوز ١٨ سنة وما فيش خلفة .. وبعدين ربنا كرمه ومراته حبلت .. الراجل كان هيموت من الفرح.. بس كان قلقان .. نفسه في دكر .. وخايف إن تيجي بنت .. عنده ٤٨ فدان ومراته عندها ٤٥ .. الدكاترة قالوله إن حبل مراته صعب .. وممكن ما تحبلش بعد كده .. طيب .. إذا كانت هتحبل مرة واحدة يبقى في ولد يورث الطين دا كله لوحده .. وما حدش يشاركه فيه من اعمامه وأولاد أعمامه.. أصله كمان ما يقدرش يتجوز واحدة تانية.. مراته كانت شديدة عليه .. قالوله الدكر مش هييجي على أيدين الحكما .. إنما على أيدين محفوظة .. وفعلاً الدكر جه .. الراجل ما كانش طايق الفرحة.. قال لها: يا محفوظة والله لو ينفع أسمي الولد على اسمك لأسميته ..! بس آنا هفضل طول عمري مديون لك بالجميل ده وبيتي مفتوح لك ولأولادك طول العمر ..

لكن محفوظة التي لم تخيب رجاء سعد النجولي في الذكر خيبت رجاء أبي وألقت في وجهه بالمصيبة الرابعة ..! آنا ..!

هـل كنـت أسـعى وأنا أنبثق من بيـن فخذي أمي ومـا أكملت بداخلها شـهري السـابع نحو عالـم أكثر اتسـاعًا وحرية من زنزانـة رحمها ..؟ لكن اسـتقبال أبـي ماكان ينـم على أنني سـأكون بالعضو المرغـوب فيه داخل أسرته ..! انفلت من رحم أمي الضيق إلى عالم أبي الأكثر ضيقًا .. ولم تنفرج أساريره ارتياحًا حين نعتني الداية مواسية وأنا بين يديها قطعة لحم هامدة.. مقطوعة النفس .. منقوصة الوزن..:

ـ الحمد لله أنها بنت!!

لكن الشيخ عبادة صلاح خطيب مسجد المعصراوي وضمير أبي الديني نهره في حدة:

ـ إياك أن تتمنى لها الموت يا رضوان يا حناوي .. مجرد الأمنية تصبح من أهل النار .. مع إللي كانوا بيئدوا بناتهم في الجاهلية خشية املاق..!

نفى أبي عنه التهمة بشدة قائلاً:

ـ أعوذ بالله ياشيخ عبادة إن فكرت بالطريقة دي .. لكن..

ـ نفسـك فـي الذكر ..! عارف .. وعارف كمـان يعني إيه تكون خلفة الواحد منا بنات .. مش ده حالي برضه ..؟ وزي ما إنت شايف. اتجوزت بتانيـة وتالتـة .. تلاتـة جابوللـي تمـن بنـات .. وكتير مـا فكرت في الرابعة .. لكن إعالة ١٢ بطن مش في اسـتطاعتي .. ماقدرتش أجرب حظي مع الرابعة .. وما أخبيش عليك .. قلبي بيتقطع لما بشوف الشيخ عبد الرافع مأذون البلد سـاحب ابنه معاه في كل فرح .. عاوز يشـربه المهنة .. عشان ما حدش غريب ياخدها.. وأنت شايف الأولاد الأزهرية بيحرجموا على الجامع .. نفسـهم أموت علشـان ينطوا على المنبر إللي بنيتـه طوبـة طوبة .. ومع ذلك إوعى تفهـم إن أنا بكره بناتي .. دا أنا ما بعرفش أنام إلا لما أشـوفهم وأطمن عليهم .. وبعدين .. بإيدنا إيه نعمله ..! مـا دامت دي إرادة الله إللي نفذت حتى على أشـرف الخلق .. محمد بن عبد الله ..

لكنني كما ترى أستاذي لم أمت .. الداية نصحت أبي بأن أوضع في قفة صغيرة .. وأوزن مقابل قفة أخرى مليئة بروث البهائم الجافة .. فنجوت..!

"هل تبدو فاء العطف هنا في موقعها الصحيح من الجملة..؟" أهل القرية في ذلك الزمن قالوا : نعم .. إلا الشيخ عبادة صلاح قال: لا.. هذه خزعبلات .. وما نجت زينب بنت رضوان الحناوي إلا ؛ لأن تلك مشيئة الله .. أن تكون موجودة ..!

فهل أنا بالفعل موجودة؟ رغم تراث أبي والشيخ عبادة صلاح الذي يرسخ في قراري العميق؛ إلا أنني في أحيان كثيرة تؤرقني فكرة أنني.. أننا جميعًا لا وجود حقيقيًا لنا .. ربما بكتيريا فضلات كائنات أخرى عملاقة في أكوان أو أبعاد لاعلم لنا بها .. إلا أنني سريعًا ما أتخلص من هذه الفكرة .. مؤكدة أنني بالفعل موجودة .. حضورًا إنسانيًا نافذًا.. طالما أنا مؤرقة بهاجس آخر .. لا أدري إن كان انبثاقًا نورانيًا لرأس تفكر أم زفير شيطان يسكنني .. فلا أراني سوى مجرد تضفيرة حبل مشدود من القلق بين .. ربما .. عدمين .. وسريعًا أيضًا أهز رأسي بعنف .. بلوم ربما .. وأطل على دواخلي المكتظة بالميراث الذي خلفه لي أبي فأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وأهرع إلى الحمام لأتوضأ وأصلي وأستغيث بالعلي القدير أن ينقذني من وساوسي ..

ومنذ عدة شهور اشتعلت الرأس بوساوسها .. ليلة أمضيتها أعد بحثًا عن الروائيين الجدد في إسرائيل .. " أمير غوتفروند" صاحب رواية "العالم في وقت متأخر قليلاً " والتي كانت أكثر الروايات مبيعًا خلال السنوات الأخيرة و" يوخل براندس " و" نوا زيت " و"هدارة لزار " والشاعرة والروائية "غابريلا أفيفور ـ روتم" والروائي والمسرحي"آلون حيلو"والتي حازت روايته "موت راهب "على عدة جوائز وترجمت إلى أكثر من لغة..

..وأظن أن تلك كانت نصيحتك لي منذ فترة أن ألتفت إلى ما يكتبه هؤلاء .. قلت لي إن كتاباتهم توابع خطيرة لزلزال المؤرخين الجدد في إسرائيل

.. وكان من الطبيعي أن أعود للزلزال الأم .. حفريات وأبحاث وكتابات المؤرخين الجدد .. تلك التي يستمد منها الروائيون الجدد في إسرائيل المواد الخام لسردهم الروائي .. وهالني ما انتهوا إليه .. وهالني أكثر احتفاء كتابنا و صحفيينا بنتائج أبحاثهم .. لأنهم رأوا فيها تقويضًا للدعاوى التاريخية التي اتكأ عليها آباء الصهيونية الأوائل في تأسيس الدولة إليهودية .. ولم ينتبهوا أنها تقوض أيضًا .. إسلامنا ..! ماذا نفهم من قصة الملك سليمان التي وردت في القرآن الكريم ..؟ إنه ملك عظيم .. ذو ملك عظيم ..؟! هذا ما رسخ في قرارنا منذ أربعة عشر قرنًا .. لكن المؤرخين الجدد .. ينتهون إلى نسف .. ليس فقط تاريخ إسرائيل القديمة .. بل أخشى الحقائق الأهم في دواخلنا .. ولا أظن أنه يغيب عن مثقف موسوعي مثلك ما انتهى إليه مثلاً البروفسور الإسرائيلي (زئيف هرتزوغ) الذي قال نصًا:

" إن التنقيبات الأثرية المكثفة في أرض إسرائيل خلال القرن الماضي – العشرين – قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة.. فكل شيء مختلق .. لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية.. إن قصص الآباء – إبراهيم - يعقوب - إسحق – في سفر التكوين هي مجرد أساطير.. نحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج بالتالي منها.. لم نته في صحراء سيناء.. لم ندخل فلسطين بحملة عسكرية واجتياح .. إن مملكة داود وسليمان التي توصف في التوراة بأنها دولة عظمى كانت في أفضل أحوالها مملكة قبلية صغيرة.

ويزيد هرتزوج :

" إنني أدرك باعتباري واحدًا من أبناء الشعب إليهودي وتلميذًا للمدرسة التوراتية مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة، وبين الحقائق الأثرية التي تتكشف على أرض الواقع".

ولاينآى زميله الباحث الإسرائيلي (مازار) حين يقول:

" ليس ثمة بنى معمارية وعمرانية ضخمة أو منشآت مهمة يمكن أن نصفها بكل ثقة بالداوودية.. إن البقايا المادية في أرض إسرائيل فقيرة

ومتواضعة إلى حد كبير.. خصوصًا إذا ما جرى مقارنتها بما أنتجته الحضارات الكنعانية والبابلية والآرامية والمصرية ".

وها هوالباحث الإسرائيلي (آوسيشكن) يذرف دموع الألم بعد أن داهمته الحقائق الموجعة: " إنه ليصعب على روحي الرومانسية أن تقبل بهذه الوقائع .. الوقائع التوراتية لرؤية مملكة داود وسليمان .. أرجو من الملك سليمان أن يسامحني!!.

إنها ذات النتائج التي تنتهي إليها حفريات زميليه (آمنون بن تور) و(نادف) اللذين قالا: إن مملكة سليمان ليست أكثر من مشيخة صغيرة ".

أظنها كانت الليلة الأشد شراسة في حياتي .. حيث تقافزت في دواخلي وساوس قديمة ..سبق وأن طرحتها عليك هامسة: إذا كان أجدادنا الفراعنة لم يتركوا صغيرة أو كبيرة من تاريخهم إلا ووثقوها على جدران المعابد .. فكيف بحدث هائل مثل هروب اليهود من مصر ومطاردة فرعون لهم لينشق البحر فينجون ويغرق هو وقومه.. كيف لحدث مثل هذا أن يسقط من ذاكرة أجدادنا ..؟ يومها لم تجب، واكتفيت بالتطلع إليَّ في صمت فسرته بأنك تشاركني حيرتي .. أو بمعنى أدق وساوسي التي فررت منها سريعًا وأنا أصيح في وجهك .. بل في وجه وساوسي: طالما أنها وردت في القرآن الكريم فعلينا أن نؤمن بها يقينا لايهتز ..! هل كان صراخي..؟ أم صراخ الشيخ رضوان الحناوي .. أبي الذي لم يمت أبدًا بداخلي ..؟!

ليلتها كابدت لأنجو من المؤرخين الجدد ووساوسي القديمة .. ألقيت بكتبي وكتاباتي في الأدراج .. وتوضأت لأصلي .. وما وجدت في نفسي القدرة على أن أدعو بالتوبة .. لأن بداخلي خشية .. ربما يقينا .. أن شكوكي لن تبرحني أبدًا .. بل أنني استمتع أحيانًا بعربدتها .. لم أجرؤ على أن أهتف: اللهم تب علي من وساوسي ..! واكتفيت بدعاء رأيته ملائمًا لحالتي: اللهم عمر قلبي بنور الإيمان!

وعقب الصلاة توجهت إلى فراشي .. انسلخت عن الدكتورة زينب رضوان

وهتفت فيها مو بخة : ما هو مش ممكن خلق الكون ده كله صدفة .. لازم يكون وراه حد .. وطالما فيه حد .. لازم يبلغنا بوجوده .. ويقول هو عاوز آيه منا ..! لم يكن صياحًا .. بل صراخًا موجعًا .. وأحمد الله أن " هشام " خرج ليؤدي صلاة الفجر كعادته في مسجد السنيين .. ولو كان موجودًا وسمع أنين أوجاعي وحتى مكابدتي لأسحق وساوسي فلن يتراجع عن الصراخ في وجهي: كافرة .. زنديقة .. أنت طالق .. بالتلاتة ..! فهل استجاب ربي لدعائي بأن يعمر قلبي بنور الإيمان ..! ربما ما زالت عالقة بذاكرتك تلك الظهيرة التي شهدت فيها الكلية جدلاً مثيرًا خلال ندوة " العولمة والأديان " .. وذلك النقاش الذي تفجر على مائدة الغداء .. حين انتقد الدكتور (يوسف الزاهي) أستاذ الفلسفة اليونانية عنوان الندوة قائلاً : كيف نتحدث عن شيء لاوجود له؟ لم يكن يقصد العولمة .. بل الأديان التي وصفها بالوهم الأعظم الذي اخترعته السلطة ليعينها على البقاء .. ما لم يتمكن من الجهر به على منصة الندوة خوفًا من طلاب الجماعات الإسلامية باح لنا به على مائدة الطعام .. وردد ما يردده الملاحدة منذ مئتي عام: لا إله ولا رسالات ولا أنبياء .. وما جئنا إلا نتيجة صدفة..! لحظتها قلت: إذن علينا أن نسجد شاكرين خاشعين .. للصدفة!.. كونها مسئولة عن هذا الوجود الهائل .. فهي جديرة بأن تكون إلهًا..! كان منبع كلماتي السخرية مما يقول الزاهي .. لكن هل كلماتي لحظتها دليل على أن الله عمر قلبي بنور الايمان ..! أم أن ما قلته يومها ومناقشاتي مع الطلاب وهشام وصلاتي وصومي وزكاتي ليس سوى تزلف لمن حولي أو خشية منهم .. في الوقت الذي تعربد الحيرة والشكوك تحت الجلد ..!

أستاذي .. القلم يرتجف بين أناملي .. وأخشى أن تنفد طاقتي من شجاعة المواجهة قبل أن أنهي رسالتي؟

مثلك قريب مني يقينا سيفاجئك كلامي هذا والذي ينسف خرائط الدكتورة زينب الحناوي السابقة بداخلك .. وربما تتساءل: فلماذا أنت الذي

اختصك بهّذا..؟ لا أعني هذا الذي سطرته أعلاه عن شكوكي .. فما قلت سابقًا ليس سوى مجرد نزعي لقفازات يدي .. هواجس تجاه الخالق والمخلوق ..! نعم.. أمر يُصيب القبيلة بشيء من الاستهجان .. بيننا امرأة تفكر وتتمادى في تفكيرها إلى حد اقصاء الله عن الوجود! لكن هذا يبدو هينًا أمام الآتي .. حين ترى عبر سطوري التالية جسد الدكتورة زينب الحناوي .. أستاذة النقد الأدبي بجامعة المنصورة وزوجة الشيخ السني هشام الغزولي رئيس جماعة أحباء الرسول السلفية .. يتعرى أمامك تمامًا.. حتى من ورقة التوت ..؟

***

obeikandl.com

هل تتذكر .. في مقالتك التي كتبتها عن كتابي النقدي " الرواية النسوية عبر نصف قرن " قلت هذا : إن كتابات الدكتورة زينب الحناوي النقدية هي في الحقيقة إبداع مواز للعمل الإبداعي الذي تضعه تحت مجهرها النقدي .. .. بل يتملكني إحساس بأنها حين تخوض في تفاصيل حرب الإذلال التي يمارسها الذكر ضد المرأة إنما تكتب حالتها الخاصة جدًا .. وليس عن بطلات الروايات النسوية السبع التي تناولتها في كتابها الأخير .. ولا أفرط في المبالغة إن قلت أن لغتها العذبة .. المعذبة .. تطيق كل ما بداخلها من أسرار الأنثى عبر آلاف السنين .. لكنها تضن عليها إلا بالقشورمن هذه الأسرار المخبوءة في أدراجها السرية للغاية .. وأتساءل مع كل سطر أقرأه: تلك اللغة المخملية لماذا لاتفيض بها الدكتورة زينب على قرائها شعرًا أو قصًا ..؟

أخذت بنصيحتك .. وكتبت منذ عامين ست قصص قصيرة .. وربما قد تتساءل الآن لماذا لم أدفع بها إلى أي من صحفنا أو دورياتنا الأدبية لنشرها ..؟ لقد شعرت حين أعدت قراءتها بأنني أقول ما يناقض المخبوء تحت الضلوع في صندوقي الخاص جدًا ..! وكثيرًا ما تساءلت: أهو الجبن ..؟ وأجيبك الآن: ربما .. ويقينا غباء زوجي هشام ..!!.. وقد يكون الأمر غير هذا وذاك .. إنه عالمي الذي يستعصي على أي بصيرة .. على أي إدراك .. حتى إدراكي أنا .. وأظن أن عبارته بدت منقوصة .. (ألبرت أينشتين) أعني .. حين قال: شيئان لا نهاية لهما .. الكون والغباء ..! ليته كان حيًا لأستأذنه في إضافة.. وأنا ..!.. بذلك تكتمل العبارة .. وأظنه كان عالمًا ناجحًا لأنه أدرك أن الكون لا نهائي .. وكان إنسانًا ذكيًا لأنه أدرك أن الغباء لا نهائي.. لكنه كان زوجًا فاشلاً؛ لأنه لم يدرك أن " ميلغا ماريك " التي جاورته على مقاعد الدراسة في المعهد الاتحادي السويسري للثقافة وأحبها لأكثر من خمس سنوات قبل أن يتزوجها كانت مثل الكون والغباء

لا نهائية .. لذا طلقها ..! في واحدة من قصصي القصيرة الست .. عنوانها " رجل ما " .. وردت تلك العبارة على لسان البطلة : في ليلة الدخلة رسمت لوجهه ملامح أخرى أمضيت عمري أتوق إليها غير ملامحه .. " .. ماذا لو قرأ هشام تلك العبارة ..؟ ستسوقه وساوسه إلى ليلة دخلتنا ليغزل من تفاصيلها صحيفة اتهام لي بأن ما كتبت في تلك القصة إلا عن نفسي .. مدعمًا اتهامه بالحاحي المستمر عبر سنوات زواجنا بأن يزيل لحيته التي تخصم من جماله الرجولي ولاتضيف إليه كما يظن ..! لا أدري كلما لفحتني عبارة أينشتين أشعر بأن ما يعنيه بالكون اللانهائي أنا .. والغباء اللانهائي هشام .. وربما مثل هشام لو رددت العبارة على مسامعه لقدم تفسيرًا معكوسًا ..!!

والآن .. وأنا في مخبأي السري .. بإحدى عمارات المنصورة القديمة أشعر أن شقتي الصغيرة تلك المختبأة في الطابق الرابع بالوجهة الخلفية للعمارة وتختلس النظر بقلق .. على العالم الخارجي عبر أربع نوافذ صغيرة .. اثنتين على المنور الصغير والأخريين على ممر جانبي ضيق .. شقتي الصغيرة المخنوقة تلك أشعر أنها أكثر اتساعًا من منزل هشام الرحب .. وربما هي باتساع الكون بفضل نسائم الحرية التي تهب علي من نوافذها الصغيرة .. ومن نسائم الحرية أعبيء قلمي بأسرار طفولتي .. أنوثتي .. أحلامي الملائكية بدءًا التي اصطدمت بواقع آدميتي لتنهار .. أسراري تلك أفضي بها إليك وحدك .. وما أتيحت من قبل وعبر آلاف السنين لرجل سواك ..

ولماذا أنت..؟ لا أظن أن السبب يرجع إلى أن المعيد الوسيم سامي الجبالي كان يحيط الطالبة زينب الحناوي بقدر من الخصوصية في التعامل، لم تنعم به غيرها .. ولا لأنه ساعدها في رسالتي الماجستير والدكتوراه وفتح أمامها صفحات المجلات والجرائد لتكتب .. بل ثمة سبب آخر أكثر أهمية .. أن عمرًا آخر خفيًا عن أعين الناس .. بل حتى عن عينيك أنت .. احتشد بآلاف الليالي الأرقة التي وحدتنا .. لهذا أستاذي أخصك بأوراقي تلك .. لكن رجائي .. ألاتضع سطوري تحت أي مجهر نقدي .. أو تبندها

تحت أي من أجناسنا الأدبية .. فإن بدت في بعض السطور سلسة .. قابلة للتبنيد .. ففي سطور تالية ستواجه بحالة من التمرد .. من العصيان.. على كل ما هو مألوف لك من أجناس ومدارس .. ربما لأن هذا ما كان مقصدي .. أن أكتب شيئًا تخضعه لموازينك النقدية كما كان الحال في الماضي لتنتهي بتقريظ ما كتبت عبر مقالة تنشرها هنا أو هناك .. أوراقي تلك ليست كتابة.. وربما ليست كهذا الذي انتهى إليه (رولان بارت) بعد أن أمضى وقتًا طويلاً تنهشه الحيرة إزاء كتابات (جورج باتاي): هل يبند ما يكتب في جنس السرد القصصي .. أم الشعر أم أنه كاتب مقالة؟ هل هو رجل اقتصاد أم فيلسوف أم متصوف؟ .. وأخيرًا استقر بارت على أن باتاي يكتب نصًا ..!

ولا أريدك أن تنتهي إلى ما انتهى إليه بارت .. قضيتي ليست تصنيفًا أدبيًا .. بل .. بل .. أعذرني إن قلت هذا .. أول أمس شعرت بحالة غثيان حادة .. تقيأت .. شعرت بعدها بالارتياح .. وعذرًا أيضًا أن تبعثر تركيزك في متاهات أفكاري .. لكنني أعدك بأنني سأحاول من جانبي ألا أشرد كثيرًا .. وإن كان الأمر يبدو عصيًا في حالتي تلك ..

و .. دعني أعود ثانية إلى البدايات .. هل قلت إن أبي أتى بمحفوظة الداية في تلك الليلة المستعصية على أي نشاط إنساني لجذبي من بين فخذي أمي ذكرًا .. حلمه منذ أن تزوج بأمي ..! فإذا بها تلقي في وجهه بالمصيبة الرابعة .. ليزداد اكتئابًا؟؟ لكنه كان أكثر تحضرًا من جدي .. صحيح أن تحضره هذا لم يتدفق في رأسي شقيقتي الكبيرتين خديجة وأم كلثوم تعليمًا ووظيفة.. إلا أنه ما أن أنشأت الحكومة الوحدة المجمعة في قريتي المعصرة ـ دقهلية ـ حتى ألحق فاطمة، ثم أنا بعد ذلك بمدرستها .. وبفضل نصيحة الشيخ عبادة صلاح ما كان ضيق الأفق إلى الحد الذي يدفعه إلى سحبي من فصول الدراسة حين عدت إلى البيت يومًا منزوعة الحجاب كما أمرتني أبله سعاد.. بل توجه إلى المدرسة ووجه إنذارًا إلى الناظرة:

ـ لو فرضتوا على البنت إنها تيجي من غير حجاب يبقى مش هتيجي ..

كم تلميذة في صفوف المدرسة تئن رؤوسهن الصغيرة مثلي تحت هذا الغطاء الصوفي المحكم ..! ثلاث .. وكنت الرابعة .. وما كان الشيخ رضوان الحناوي يهدف من وراء ذلك أن يسجل التاريخ اسمه كباعث للحجاب .. انما هو قلق " أبو البنات " الذي يفتش في الدين عما يمكن أن يعصم بناته من السقوط ..!

لكن أبي كان لديه قدر من التحضر تجسد في إنصاته إلى الناظرة والمعلمات وتوسلهن ومحاورتهن:

ـ دي لسه طفلة ..! ازاي تعمل فيها كده يا حاج..!

إلا أن تحضره لم يحل دون أن يصيح بغضب:

ـ أنا بربيها زي ما الدين بيقول ..

لم يتراجعن:

ـ ياحاج .. الدين في الأخلاق والسلوك .. وزينب ما شاء الله مؤدبة وشاطرة .. وبعدين ما إنت شايفنا أهه من غير حجاب وكل بنات المدرسة وحتى القرية .. اشمعنى زينب يعني ..!

ـ القرآن بيقول يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن .. صدق الله العظيم .. الله سبحانه وتعالى بيقول نساء المؤمنين .. مش طفلة عمرها سبع سنين!

ـ ولو سنة واحدة ..

وفاضت عيناي بالتوسل إلى الناظرة والمعلمات ألا يلححن في هذا الأمر .. وأتذكر أنني أخذت بنصيحة أبي حين عدت ذاك اليوم وبعد أن صليت الظهر وسنته .. صليت أيضًا ركعتي شكر لله لأن تلك المشكلة انتهت بعدم انتزاعي من المدرسة .. وكان أبي يقول لنا دائمًا : حين يهبنا الله إحدى نعمه .. فعلينا أن نصلي له ركعتي شكر!

وما كان يقوله أبي هو نقل أمين لنصائح الشيخ عبادة صلاح واعظ جامع المعصراوي .. فأسماؤنا كانت فيض نصائحه .. وأحمد الله أنه كان على قدر من الاستنارة على غير عادة أقرانه من المشايخ.. فلقد أدخل ثلاثة من بناته مدرسة الوحدة المجمعة .. ليحذو أبي حذوه .. فإن كان حث أبي على ألا يرضخ لرغبة ناظرة المدرسة بنزع حجابي .. إلا أنه حثه أيضًا على أن أستمر في الدراسة .. وسمعته حين جاء ليمضي بعض الوقت مع أبي بعد صلاة العصر يقول:

ـ من يدري يا رضوان ..! مش جايز ربنا سبحانه وتعالي يطرح في البنات دول البركة ويحققوا إللي مايحققوش الذكور!

وكأنه يستشف المستقبل .. فإحدى بناته كانت أول من يلتحق بكلية الطب من القرية .. وابنة له مدرسة وأخرى محاسبة في بنك التسليف الزراعي..

وحين التقيت بابنته الدكتورة عفاف في حفل زفاف .. وقلت لها بامتنان أنه لولا والدها الشيخ عبادة صلاح لما تعلمت أنا وأختي فاطمة.. فقالت إنه تأثر كثيرًا بمؤلفات الشيخ محمد عبده ..!! كان على ما يبدو يبحث عمن يهزه بعنف صائحًا في وجهه أنه لافرق أن يكون لديه ثماني بنات أو ذكور.. المهم كيف تكون التربية .. ووجد ضالته في الشيخ محمد عبده .. كان الشيخ عبادة طفرة في التطور الحضاري بالقرية كلها .. وفاض ببعض مما لديه على أبي .. إلا أن الدكتورة عفاف أخبرتني بما روعني:

ـ عارفة حكاية البنت سندس .. سندس البيلي؟

ـ إللي قتلها أهلها من عشر سنين!!

ـ تالت يوم جوازها .. عريسها رجعها لأهلها .. لأنه اكتشف أنها مش بكر .. أخوها الكبير قتلها .. دكتور زميلنا يعرف الدكتور إللي فحص الجثة .. عارفة قإللي أيه ..! البنت كانت عذراء .. بس غشاءها مطاطي .. الكلام ده ما قالوش للنيابة بالاتفاق مع أهلها .. ما حدش

عارف آيه إللي كان بيربطوا بهم.. وطبعًا كان الهدف من عدم اظهار الحقيقة آن ابنهم ياخد حكم مخفف!

ـ مش آخوها الجدع الصايع إللي اسمه خليل البيلي ..!

ـ طلع من السجن بعد خمس سنين .. وأكيد فضايحه مع البنات الغلابة إللي بيشتغلو في غيطهم وصلتك..

ـ آيوه .. سمعت آن واحدة حملت منه وطفشت من البلد ..

ـ وهو كل ليلة قاعد يحشش على القهاوي .. وبارم شنباته فخور برجولته..!

ـ طبعًا .. مش قتل آخته لمجرد الشبهة ..!

وهل تلاشى هذا الفكر البالي .. آن العار فرج امرآة!!

الإجابة لا مهينة .. تخرج لسانها لكل دعاة الاستتارة في الوطن الكبير .. وآنا عائدة من الجامعة انتبهت إلى آن فكرة تآنيث العار واختزاله في فرج امرآة ما زالت تعشش في عقلنا الجمعي على حد تعبيرعالم النفس الشهير (يونج) .. والفضل في هذا يعزى للأسطى محمد سكلانة الميكانيكي حين عرجت عليه لتغيير طلمبة المياه بسيارتي .. طلب من صبيه آن يآتي له بمفتاح ١٢ آو ١١.. لا آتذكر .. آتى الصبي النحيل بالمفتاح الخطآ .. فإذا به يزعق فيه بما زلزلني:

ـ مش ده يا ابن المرة المتن ..! "آعذرني .. لا آستطيع آن آكمل الكلمة حتى ولو كنت قد آخذت عهدًا على نفسي بآن آكون صريحة واضحة .. لا لبس آو التواء في آوراقي تلك .. وآن آ كون وللمرة الأولى آنا زينب رضوان الحناوي بغير زيادة آو نقصان .. آمام آخر .. لكن قلم الأنثى لا يقوى على خط حروف كلمة مثل تلك .. "

حين لفظها محمد سكلانة كابدت ليحتفظ وجهي بجمود تعبيراته .. وكآنني لم آسمع شيئًا .. " "لمن لا يعلم من الرجال تتفق المرآة نصف طاقتها

اليوميـة مكابدة في الاحتفاظ بجمود تعبيراتهـا والرجال يمطرون بعضهم بعضًا بألفاظ شبيهة جهرًا في الشارع وحتى أماكن العمل .. لذا لزم التنويه " .. أقلب اللفظ في رأسي .. .. لماذا لا يسب الصبي بأن يصيح فيه يا ابن الراجل"النيي .. "مثلاً ..؟ لأننا ما زلنا نفكر بعقلية جدي .. العار كل العار في المفعول به .. وربما المجد للفاعل ..

لكن الميكانيكي كان مهذبًا .. يعرف كيف يتعامل مع النساء بكياسة! .. حين انتبه إلى وجودي قال معتذرًا :

ـ ولا مؤاخذة يا هانم .. العيل من دول عشان يبقى أسطى بحق وحقيق لازم نذل أنفاسه ..!

وانتابتني رغبة قوية في أن أنهره صارخة :

وإذلال أنفاسه لا يكون إلا بتذكيره بعار أمه!.. ثم هل لأنها مفعول بها تصبح عارًا..!! إذن يا أسطى سكلانة لأنني ووالدتك أيضًا مثل أم هذا الطفل .. مفعول بنا .. فنحن أيضًا عار ..!!

لكنني بدلاً من أصرخ موبخة إياه أفاجأ بابتسامة ترف على شفتي.. ذلك أنني تذكرت هذا الفيلم الأجنبي الذي شاهدته ليلة الأمس .. حين صفعتني بطلة الفيلم الممثلة (باريس هيلتون) بذات الكلمة وهي توجهها لإمرأة أخرى!! الفيلم أمريكي .. في العقل الجمعي هناك أيضًا مازال العار للمفعول به ..! ولقد أخبرني أحد المعتقلين والذي أمضى ١٥ عامًا في سجن الواحات أن تلك كانت إحدى وسائل التعذيب المحببة المتبعة معهم ..

.. السجان يعذب ضحيته .. لايكف عن تعذيبه حتى يقولها : أنا مرة ..!! يتأتيء بها في مذلة .. فيهديه السجان اسمًا .. وصمة عار :

ـ من دلوقتي أنت سميرة .. اسمك أيه؟

ـ اسمي سميرة ..!

إلا أن معتقلاً شيوعيًا لم يرضخ أبدًا.. وكلما ضربوه ليلفظها : أنا مرة

..!! كان يصيح: مش عار إني أكون ست .. بس مش ها ناولكم إللي في نفسكم ..!! آظن آن إسمه كان .. عذرًا اسمه لايحضرني الآن .. لكن إن سألت عنه أحد أصدقائك من الشيوعيين القدامي قد يجيبك ..

مات أبي ..!! هل أفرح ..؟ أبواب الحرية التي أوصدها عقب انبثاقي من بين فخذي أمي ستنفتح لي بعد موته .. أمي الطيبة لن تحول دون أن أرتدي ما أشاء من ملابس وأن أبحث عن وظيفة .. وأحب وأتزوج بمن أحب ..! لكن عارًا أن أفرح في موت أبي .. حتى لو كان موته يفتح لي أبواب الجنة .. لن أنسى ما قاله يومًا لشريكه في تجارة الحبوب حين عرض عليه أن يتزوج .. كان لديه عروس تمت بصلة قرابة إلى زوجته .. أرملة .. لو فعلها أبي ما انتقده أحد .. كان هذا كما يقولون "سلو بلادنا" .. الذي يتمسك به بشراسة ذكور عائلة أبي .. مثنى وثلاث وربما رباع .. .. قال شريكه محاولاً إغواءه:

ـ دي إنشاء الله إللي هتجيبلك الولد إللي نفسنا فيه يا شيخ رضوان!

و سمعت أبي يومها يقول للرجل في المندرة الكبيرة ..

ـ يا مصطفى .. إللي بيحب ولاده ما يتجوزش على مراته..!

ياه يا أبي .. .. صحيح أنك لا ترفض الزواج ثانية.. ليس إكرامًا لأمي .. بل خوفًا علينا .. أكل هذا الحب تكنه لنا ..؟ فلماذا تقاوم حتى لا يطل على أي منا من دواخلك شعاع حب ولو في خفوت ..؟ ثلاثة أرباع حديثك في الدنيا كان توبيخًا وزعيقًا فينا وآمنا ..!

وما أن انصرف الرجل من المندرة حتى اندفعت من باب الحوش مرتمية في أحضانه .. دفنت وجهي في صدره .. آخوفًا من أن يضبط دمعة في عيني ..؟ لم تكن دمعة .. بل نهرًا من الدموع .. لم يعِ ما بداخلي .. سألني بدهشة..

ـ فيه أيه يا زينب ..!

وحين رفع وجهي الغارق في دموعي .. صاح في غضب:

ـ فيه أيه يا بت ..؟ حد زعلك في المدرسة ..؟

قلت وأنا أجفف دموعي بأنامل خجلي ..

ـ مافيش حاجة يابا .. بس كان نفسي أقولك ..

تحجرت الكلمات في جوفي ..

يستحثني بشيء من القلق ..

ـ إنطقي يابت فيه آيه ..! حد عمل فيك حاجة وحشة ..؟؟

أهـذا مـا كان يقلقك يا أبي .. أن نتعرض إلى ما يهين عرضك وشـرفك.. فزع "أبوالبنات" الذي يلازمك دائماً؟! اطمئن.. ما تعرينا إلا في غرف أزواجنا الذيـن انتقيتهـم أنت وأمي .. خديجـة وأم كلثوم بقرتان ولـودان حلوبان في بيـت زوجيهما الثريين .. فاطمة عاشـقة لفحولة زوجها الـذي لم يبخل عليها بثقافته الجنسـية الواسـعة فتعيد تصديرها إليه عبر حقول سريرها فاكهة أنوثة طرح آول ..!!

.. لفظت سريعًا وفي ارتباك ما بداخلي ..

ـ يا با أنا.. أنا بحبك .. بحبك قوي ..

قلتها ورأسي مطأطأة في حجره .. وكأن كارثة أن أبوح بمشاعري حتى لأبي ..

رفـع وجهـي بكفه ونفذ إلى عيني بنظرة متسـائلة .. لكن أظنها كانت مشبوبة بقدر من الحنان .. ثم ربت على ظهري وقال ..

ـ طيب يا زينب .. قوللي لأمك توضب العشا .. عشان ناكل كلنا سوا ..

وليلة أمس .. وبعد خمسـة وثلاثين عامًا شعرت بحاجتي الملحة إلى حجر أبي لأدفن فيه رأسي وأقول له: كم أنت عظيم يا أبي .. كم أحبك ..! ولماذا ليلة الأمس ..؟ نزلة برد حادة فاجأتني بعد منتصف الليل .. بدأ هشـام قلقًا .. أرضـى قلقـه أنوثتي فودعته بنظرة حانية وهو يركض خارج المنزل لشـراء دواء لي .. لكنه غاب .. انتابتني الوساوس.. القرية غارقة في الظلام الدامس مـع انقطاع التيـار الكهربائي منذ يومين والطرق موحلـة بعد ليلة ونهار من

العواصف والأمطار الغزيرة .. أحاول إغماض عيني على صوت رخات المطر الرتيبة .. لكن آذني المصوبتين في توتر نحو السكة الزراعية لالتقاط صوت موتور سيارة هشام ونوبات الكحة المتلاحقة يحولان بيني والنعاس .. .أشعر بحاجتي الماسة لكوب نعناع ساخن أو كمون.. نهضت .. ربما أيضًا للإنفلات من بين براثن القلق .. توجهت إلى المطبخ .. لأعد لي كوب نعناع .. لم أجد في المطبخ نعناعًا أو كمونًا .. لم أشأ إزعاج زهرة زوجة عدلي.. عدت إلى فراشي لأعاود تصويب آذني نحو السكة الزراعية .. لتلتقط أخيرًا صوت سيارتنا ..

ـ ليه التأخير دا كله يا هشام؟

ـ أعمل أيه ..! ما فيش ولا أجزاخانة في البلد فاتحة فرحت بلقاس..

ـ إزاي بقي وأجزاخانة الدكتور صمويل على بعد خطوتين وفاتحة ليل ونهار..!

ـ عاوزاني يا دكتورة زينب أجيب دوا من نصراني!

صفعتني عبارته .. ينطق بسخرية اسمي .. .. كيف لزوجة رئيس جمعية أحباء الرسول والتي تحمل اسم ابنة نبي الإسلام وتشهد في صلواتها الخمس وتوابعها من النوافل كل يوم أن لاإله إلاالله وأن محمدًا رسول الله أن تتعاطى دواء من مسيحي ..؟! ألف رحمة ونورعليك يا أبي.. كان يتواد مع عائلة صمويل .. ويمضي بعض أمسياته في محلاتهم يثرثرون في أمور الدنيا بمودة .. يزورهم في أعيادهم ويزداد التحامًا بهم في أفراحهم وأتراحهم .. ويستقبلهم بحفاوة حين يطرقون أبوابنا .. حين استغاث به رفائيل والد صمويل في النزاع على قطعة أرض بينه وبين جارنا وصديق أبي علي أبو حامد .. شهد أبي شهادة حق .. أحقية رفائيل في الأرض .. تعلم فك الخط وحفظ بعضًا من القرآن والأحاديث النبوية الشريفة في كتاب الشيخ قدري..! وكانت كافية ليعرف أن أجنحة عدالة الإسلام يستظل بها الجميع .. ولو زاد وتعلم المزيد من الدين الصحيح لما شهد شهادة أخرى غير شهادته..! وما أصابت

الدهشة أهالي المعصرة حين حكم أبي للنصراني .. كانوا مثله .. تحتشد الدواخل بتراث تراكم أب عن جد .. أن الرسول حين أوصى على سابع جار لم يذيل وصيته بشرط أن يكون إسم الجار محمدًا أو عليًا وليس جرجس أو عيزرا؟.. وما عرفوا أن النبي الكريم قال ضيقوا عليهم في الطرقات إلا من أحاديث الشيخ هشام وجماعته المشكوك فيها في مسجد السنيين..!

آه يا أبي.. كم أتوق اليك ..!

قلت له في عتاب:

ـ يا سيدي مش الضرورة بتبيح المحظورات .. في ليلة زي دي ما فيهاش حاجة لو اشتريت الدوا من صمويل ..

ـ يا دكتورة النبي عليه الصلاة والسلام بيقول في حديثه الشريف: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .. فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم .. يبقى إزاي أنفع واحد نصراني في الوقت إللي المفروض فيه إني أحاربه إلى أن يشهد الشهادتين .. الناس دي ما لهمش عندنا غير حاجة من إتنين إما يدفعوا الجزية أو يتخلوا عن حياتهم!

ولم أشأ أن أفجر قضية العلاقة بين الأديان وحقوق المواطنة .. بينما الساعة تقترب من الرابعة فجرًا ..!

كان لدى جدي شيخ البلد خمسة وثلاثين فدانًا.. أنفقها على زيجاته السبع .. لا يجيد أعمامي شيئًا سوى العمل في الأرض .. لكن الأرض بددها جدي الحناوي بين أفخاذ النساء .. كما كان أبي يردد بمرارة.. فاضطروا إلى استئجار أراضي آخرين وزراعتها .. إلا أبي .. حتى حين عرض عليه أخوالي أن يعمل معهم بنظام المشاركة في أرضهم رفض .. ونزل إلى سوق البلدة .. يشتري أرزًا وقمحًا وأذرة بكميات قليلة ويبيع .. أرباحه قليلة .. وكانت تكفي بالكاد لسد رمق أفراد عائلته الصغيرة .. هو وأمي وخديجة وأم كلثوم .. لكن البيت الطيني الكبير يضيق بسكانه

.. ثمانيـة أعمام كل منهم حشـر هو وزوجته وأولاده فـي غرفة أو غرفتين .. وقبل الفجر تتسابق النسوة على "الكرسي" في آخر الدوار لقضاء حاجتهن .. قبل أن يسـتيقظ الرجال .. " ولا أدري لماذا كانوا يسـمونه بالكرسـي، وهو ليس بكرسـي .. بل حفرة بعمق متر أو أكثر تتسـع لبرميل توضع على حافته خشـبتين .. وينزحه "زعبله" كل أسـبوع ..!! لا عهد لي به .. لكن هذا ماحكته لي عمتي .. " أما الصغار .. فكانت الأمهات تكرشـهم إلى خارج البيـت.. ليقضـوا حاجتهم في الشـارع .. ومـا بخل جدي ببعـض جيناته على أبنائه .. تزوج بعضهم على زوجته .. وأحدهم تزوج أربعًا .. ولأن البيت لايطيق فكانوا يسـتأجرون بيوتًا طينية متهالكة لزوجاتهم الجديدات .. وما كان البيـت الكبيـر مأوى للسـكن فقط .. بل ميدان حـرب .. فالأعمام الثمانية ينتمون إلى أربع أمهات .. وأبي ينتمي إلى أم خامسة .. ورغم طيبة أمي إلا أنها لم تنعم بيوم دون مشـاجرة مع إحدى "سلايفها" .. ورغم صرامة أبي ولا أقول شـدته مع أمي إلا أنه كثيرًا ما يتشـاجر مع إخوته إنتصارًا لها .. لا أتذكر شـيئًا عـن الحياة في البيت الكبيـر .. لأن أبي حين طرد ما كنت قد ولدت بعـد .. حكـت أمي سـبب الطرد بأسـى .. حكت كل هـذا التاريخ القديم الذي تشكلت في أتونه وهي على فراش مرضها ..

_ كنت حبلى في فاطمة .. في الشـهر التامن .. سـلايفي كانوا عاوزيني أنضـف الزريبـة .. إزاي والحمل هددني .. وكمان احنـا مالنا والزريبة ..! أبوك مشـى في سكة التجارة وساب الغيط والبهايم .. فوقية مرات عمك عبد السـميع الله يرحمها شـدتني من فـوق الكنبة فوقعت على الأرض .. لكن الله ستر .. واتبلوا علي إنني إللي ابتديت بشتيمة فوقية وعمـك .. وطلبـوا مـن أبوك إنه يسـيب البيت .. فسـاب البيت في نفس الليلـة .. خالك متولي الله يسـتره دنيا وآخـره فض لنا أوضة قعدنا فيها كـم شـهر لغاية ما نقلنا علـى بيت بالإيجار.. وبعدين ربنا وسـعها على أبـوك فـي تجارتـه وبنى لنـا بيت كبيـر.. واشـترى طاحونـة وكتبها باسـمي بيع وشـرا عشـان اخواته ما يطمعوش فيكوا بعد موته .. ومن

ريـع الطاحونة علمتكم إنت وأختك فاطمة بعد وفاة أبوكم.. خالكم متولي ماسبنيش .. كان في مقام أبوكم .. ما هو الخال برضه والد..

ـ عشان كده جوزتيني ابنه هشام!

ـ وماله هشام يادكتورة ..! ماهو مهندس في الزراعة قد الدنيا.. كان نفسي خديجـة وأم كلثـوم يتعلموا هما كمان .. لكـن في زمنهم ماكانش فيه مـدارس فـي البلد .. ومش ممكن أبوكـي كان هيوافق إن بناته يروحوا المدرسة إللي في بندر بلقاس.. أبوكي كان بيخاف عليكوا قوي .. آمال .. البنات برضه ولايا ..!

وعرض وشرف وعار .. هذا ما لم تقله أمي ..

لكـن هل الجدران الشـاهقة التي شـيدها أبـي حول بناته حمت شـرفه وعرضه؟

كثيـرًا مـا كان يتأخر أبي في ماكينـة الطحين .. ربما إلى السـاعات الأولـى مـن الفجـر .. ولديه بالطبع إعتقاد راسـخ أن بيته في أمـان .. فخالي متولي وأولاده عدلي وهشـام و نور الهدى وزهيرة لايكفون عن التردد علينا .. بل أتذكر أن حاجاتي المدرسـية كان يلبيها عدلي الذي ترك المدرسـة مـن الصـف الأول الإعـدادي وتفـرغ للحقل أوهشـام الذي واصل دراسـته .. ذات أصيـل طلبـت أمي مـن عدلي أن يصعد إلى السـطح لتجهيـز عدة ربط مـن القـش للخبيـز .. صعد وفي أثـره أختـي أم كلثوم لمسـاعدته .. كنت مسـتغرقة في حفظ آية قرآنية هددتنا أبلة سـعاد بأن من لا يحفظها سيحرم من الخروج لمدة أربعة أيام في الفسحة الكبيرة .. وحين انتهيت من حفظها .. هرعت إلى السطوح ومعي كتابي ليسمعها لي عدلي .. لتداهمني توسلات خافتة يتردد في ثناياها اسـمه .. وهالني ما رأيت .. أم كلثوم أسـفله تصارع ساقاها العاريتان ساقيه أيضًا العاريتين .. ووجهه يطارد وجهها للحظات قبل أن تسـتكين شفتاها بين شفتيه ..! اسـتدير في هدوء نحو السلم الخشبي.. عائدة بشـرخ إزداد مع السـنين اتسـاعًا إلى مدني الداخلية الصاخبة دون أن

يتجاوز صخبها حلقي .. حتى حين تقدم تاجر موبيليا من بلدة أخرى .. طالبًا يد أم كلثوم .. صرخ داخلي: ولماذا لايتزوج عدلي من أم كلثوم.. ..؟ بدا زواج التاجر بأم كلثوم ينال رضا الجميع.. ينتمي إلى عائلة كبيرة وثرية .. احتفت به أمي .. درع أمان آخر لأسرتنا التي حرمت من الشقيق الذكر الذي يحمي.. وزادت قشرتها الخارجية ضعفًا بوفاة الأب .. حتى أم كلثوم بدت سعيدة بعريسها .. ولا أظنها تكن أية مشاعر نحو عدلي .. وربما كان مشهد السطوح طفح غريزة شاب مراهق لا فيض قلب رجل محب .. وما أكثر طفح الغرائز وبراميل المني التي تسفح في عتمة بيوت الريف الكبيرة بين أبناء وبنات العمومة والخؤولة..! ولا أظن أن تلك الحقيقة تغيب عن قروي مثلك .

أما أنا.. فأظن أن أمي كانت تخطط لي بشكل آخر .. هشام لي وأنا له .. ولماذا أنا وليست فاطمة؟ لأن فاطمة كانت تكبره بعام .. في حين كنت أنا أصغره بأربعة أعوام .. ويبدو أن الأمر كان معدًا له مسبقًا في السراديب السرية للعائلة .. حين أحصل على الثانوية العامة تعلن خطوبتنا .. .! لهذا عندما وثب هشام إلى منزلنا ووجهه يطفح بالفرح ذات صباح صيفي قائظ .. وقبل أن ينطق .. صاحت أمي:

ـ بشر عروستك بالنجاح ياهشام .

ليصيح بدوره:

ـ وبتفوق كمان ياعمتي .. ٧٦٪

وما تخيلته أبدًا رجلي .. شريك مخدعي الأثيري فوق السحاب .. أحببته ابن خالي .. بل أخي .. رجل العائلة القوي .. لكن ليس .. ليس رجل غرفة نومي .. وما كنت أرى غرفة النوم سوى علياء تتماس فيها أرواح المحبين ولاشيء عن الجسد أبدًا .. "

وكانت أبله هدى معلمة اللغة العربية في الصف الثالث الإعدادي أول من أرشدتني إلى الطريق الذي يتواءم مع مخدع روحي في العلياء.. وما كان يعنيها حشر المنهج حرفًا حرفًا في رؤوسنا .. كانت تعلم أن القصائد التي

ندرسها _ بعضها من الشعر الجاهلي _ ثقيلة على الاستيعاب .. كان ما يعنيها آلا نحفظ أو حتى نفهم فقط .. بل أن نحب هذا الشعر الذي ندرسه .. أظنها أمضت حصة تشرح لنا جماليات بيت امريء القيس.

مكر مفر مقبل مدبر معًا .. كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكنا نتابعها كرهًا دون أن نتمكن من أن نقمع الرغبة في التثاؤب .. ولم نفهم أبدًا .. ولأنها طيبة لم تحمل عصا في هذا الزمن الذي كان فيه التعليم بالفلقة .. فلم يقاوم بعضنا الرغبة في النوم .. لاحظت ذلك .. فإذا بها تلجأ إلى ما ظنناه تغييرًا في الحصة:

_ مين فيكم صوتها حلو يابنات .. تقدر تغني؟

انتفض الفصل بالصخب المرح فجأة وانتهى الصخب بوقوف طالبة لتغني..

_ هيه.. هتغني أيه ياصفاء؟

في ارتباك ..

_ مش عارفة يا أبله .. ممكن أغنية فايزة أحمد يامه القمر على الباب

_ أغنية جميلة .. طب اتفضلي

بدأ صوت صفاء في البداية مخنوقًا لكنها سرعان ما تماسكت وانطلقت في انفعال:

_ يامه القمر على الباب نور قناديله .. يا أمه أرد الباب واللا أناديله..

تسألنا أبله هدى:

_ إيه رأيكم؟

في نفس واحد:

_ صوتها جميل يا أبله

_ والأغنية ..؟

ـ جميلة

ـ آيه إللي جميل فيها .. الكلمات واللا الموسيقى..؟

ـ الاتنين يا آبله

ـ يعني الصوت جميل .. والموسيقى جميلة .. والكلمات جميلة .. مش ده هو إللي عاوزين تقولوه!

ـ آيوه

ـ عارفين ليه هي آغنية جميلة ..؟ علشان المؤلف كتب الأغنية باحساس صادق .. والملحن حس بالكلمات كأنها بتعبر عن حاجة جواه هو مش حد تاني فانفعل بيها وعمل اللحن الجميل ده.. والمطربة حست بنفس المشاعر إللي ورا الكلمات والموسيقى وعاشت فيها بكل جوارحها فكان أداؤها صادق ومؤثر .. كأن التلاتة عايشين نفس التجربة .. الحبيب إللي من جماله زي القمر واقف على الباب .. ولما تكون المسألة كده .. المتلقي إللي هو هنا المستمع هو كمان هيتوحد مع نفس المشاعر .. صح؟!

ـ صح يا آبله ..

ـ طيب احنا بنقول الكلمات جميلة .. وبنقول إنها جميلة علشان بتعبر عن مشاعر صادقة .. إزاي ..؟ المشاعر بتبان في تركيب الكلمات والتشبيهات .. طبعًا دي كلمات شاعر موهوب .. لكن الموهبة وحدها مش كفاية علشان تعمل آغنية جميلة.. صدق المشاعر.. شوفوا فايزة بتقول آيه: يا آمه القمر على الباب.. طيب حد يقدر يقوللي مين القمر ده ..؟ تقصد القمر إللي في السما؟!

ـ لأ يا يا آبله .. بتقصد حبيبها .. بس من جماله وضي وشه زي ما قلتي بتشبهه بالقمر ..

ـ علشان هي بتحبه بصدق فبتشوفه جميل في بهاء وشاعرية القمر..

ولأن الحبيب فرحان بحبيبته منور قناديله .. شوف احنا آما نكون في مناسبة جميلة .. عيد واللا فرح واللا مولد نبوي .. بنعمل إيه؟.. بنئيد الأنوار .. طيب وبعد كده .. بتسآل أمها : يا آمه آرد الباب واللا آناديله ..! شوفوا الكلام قد إيه حلو ومؤثر.. كلمة آناديله اتكررت مرتين .. بس فرق كبير بين المعنى في كل مرة .. الأولى تقصد فايزة القناديل المضيئة " نور آناديله " وفي المرة التانية .. تقصد النداء .. تنادي عليه .. تدعوه للدخول مرحبة به كعريس .. كشريك عمر .. دا بنسميه في البلاغة إيه..؟

ـ الجناس يا آبله

ـ والجناس والتشبيهات والتقديم والتآخير والتورية .. الحاجات إللي بندرسها وشايفين آن دمها تقيل .. هي دي الجماليات .. وآنا نفسي تسمعوا الأغاني وتتآملوا في كلماتها هتحبوا البلاغة واللغة العربية.

ـ بس دي يا آبله آغاني بلغتنا إللي بنحبها .. إنما فين الجمال إللي في مكر مفر دي ..؟

ـ أولاً لازم تعرفوا آن العامية مش لغة .. دي لهجة جاية برضه من الفصحى وتعالوا نشوف يا آمه القمر عل الباب نور آناديله .. كلها فصحى .. آمه .. من الأم .. .. آناديله الأولى زي ما قلت لكم .. القناديل .. التانية من النداء .. وزي ما في العامية جمال فيه في الفصحى جمال وده إللي هنعرفه الحصة الجاية لما نرجع لقصيدة امريء القيس .. هتعرفوا قد إيه صورها جميلة .. بس دلوقتي عاوزه آسآل: حد منكم سمع آغنية الأطلال..؟

ـ آيوه سمعناها

ـ مين حفظاها ..؟

ـ مش كلها.. .. ..

ـ طيب شوفوا آم كلثوم بتقول إيه:

أيها الساهر تغفو .. تذكر العهد وتمحو

فإذا ما التام جرح .. جد بالتذكار جرح

فتعلم كيف تنسى .. وتعلم كيف تمحو

وفيه بيت جميل في نهاية المقطع ما غنتوش الست مش عارفة ليه رغم جماله.. البيت ده بيقول:

أو كل الحب في رأيك غفران وصفح؟!

فهمتوا حاجة؟ قوللي يازينب .. فهمت إيه من الأبيات دي ..؟

ألجمتني المفاجأة .. ولماذا أنا؟ لو كان سؤالاً في المنهج .. لأجبت.. لكنه سؤال في .. الحب .. ولدي ما أقوله .. الحصة كلها تروقني .. ليت التعليم كله هكذا ..! في ارتباك:

ـ الشاعر بيستنكر على نفسه إنه يقعد طول الليل سهران موجوع بذكريات حبيب خانه أو هجره ..

أكابد في سحب أنفاسي .. لكن ما قلته يروقها .. فتستحثني مشجعة:

برافو يا زينب .. هه كملي

وفي النهاية بيزجر نفسه أو بيسخر منها لما بيقول البيت إللي حضرتك قلتيه وآم كلثوم ماغنتهوش ـ أو كل الحب في رأيك غفران وصفح؟

ـ ممتاز.. شكلك بتسمعي أغاني كتير يا زينب..

ومنحني تقريظها الجرأة إلى أن أطرح السؤال الذي يؤرقني ..

ـ بس يا أبله .. فيه ناس بتقول أن الأغاني حرام ..

في استنكار:

ـ حرام ..! مين بيقول كده ..؟

ـ واحد شيخ كان بيزور خالي و كان الراديو شغال على أغنية فقال

اقفلوا الراديو .. لأن الأغاني حرام وبتحرض على الفسق .. والبيت إللي بيشغل أغاني .. مسكون بالشياطين..

ـ كانت أغنية إيه إللي بيذيعها الراديو؟

ـ مسافر .. لشادية

وكأنها تغادر المكان على سحابة شجن ..

ـ خايفة تلاقي وردة تحلو في عينيك .. تتساني وتميل تقطفها بأيديك ..

وفوجئت بنفسي أكمل بصوت متهدج:

ـ أقطفها بأيدي .. وماتجرحش أيديك

لتكمل أبله هدى بصوت حزين..

ـ سيب الجرح لي وخللي الفرح ليك

صمت جليل خيم على الفصل .. اندهاشنا ربما لدمعة لم تسل من عينيها لكننا شممنا رائحتها في ارتعاشة الصوت .. كنا نعرف من أي قرار تفجرت الدمعة التي تحجرت قبل أن تسيل .. خطيبها الذي سافر إعارة إلى الكويت .. وتجاوزت عنفوان اللحظة سريعًا لتبتسم وهي تقول ..

ـ إزاي نقول على كلمات جميلة زي دي بتجسد مشاعر راقية جوانا إنها حرام ..؟ طيب أنا هسألكم .. لما أنتم بتسمعوا أغنية لشادية أو عبد الحليم أو ثومة .. حد منكم لا قدر الله ممكن يفكر بشكل غلط..؟

ـ لأ

ـ الأغاني دي بتهذب مشاعرنا وبترقى بيها .. وبنبص للحبيب بنظرة روحية سامية .. يبقى إزاي تبقى حرام ..!

وكأنها تضعني تحت مجهرها لتشرحني وتستتبت أراءها لتشرحها للطالبات .. ومبكرًا.. قبل ذلك بسنتين أو ثلاث كنت أهرع إلى السطح في عصاري العطلة الصيفية .. أرتوي من قصة ماجدولين لتزدهر حقول

obeikandl.com

القلب بمشاعر فياضة بحزن جميل ينهمر دمعًا غزيرًا يبلل أكوام القش فلا تستطيع أمي استخدامه كوقود للخبيز في الصباحات الباكرة .. لتشكو:

ـ القش مندي ..!

ولا أود أن أقول بدمع أحزاني يا أمي على مآساة جيمس وماجدولين.. وبعد ذلك بمآساتي أنا ..

وأمي هي التي نبهتني إلى ما أصبحت عليه .. حين رأتني أقف في الشارع مع سعاد جارتي وزميلتي في الفصل.. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء ويبدو أن هذا أفزعها .. نهرتني وطلبت أن أدخل المنزل وهي تقول:

ـ إنت مش حاسة بنفسك يا بت..؟ الشبان رايحين جايين في الشارع وإنت واقفة تتميصي زي الغوازي!

رددت في شيء من الانفعال:

ـ غوازي وشبان أيه يا أمه؟!.. أنا بتكلم مع سعاد عن حصص بكرة ..

فأخبرتني بما غاب عني:

ـ عارفة إنت عندك كم سنة دلوقتي ..! ١٣ سنة .. يعني فيه بنات زيك بيتجوزوا ..!!

كنت أشعر بدبيب شيء ما يدغدغ في غموض دواخلي .. يلفحني بمتعة خاصة وأنا أسبح مع صوت العندليب الأسمر الذي أترقب أغانيه عبر المذياع الخشبي الكبير الذي يتصدر حوش البيت .. نعم نعم.. أنا بين شفايفك نغم .. هكذا نكون تحت سقف الزوجية حبيبين لغتهما نغم .. وما زواجهما إلا بأمر الحب .. وقبل ذلك حين واجهت تلك المعضلة التي فجرها بداخلي العندليب .. فوق الشوك مشاني زماني قإللي تع إلى نروح للحب .. بعد سنين قإللي أرجع تاني هتعيش فيه مجروح القلب .. تساءلت في حيرة: أهذا هو الحب .. شوك وجراح .. فلماذا نحب إذن ..؟! لكنني عرفت بعد ذلك لماذا

نحب .. ليس قرارًا .. لا أحد يتخذ قراره بأن يحب أو ينهي حبه .. فما اتخذ جيمس قراره بأن يقع في عشق ماجدولين ..

وأنا أيضًا .. .! هل أحببت هذا الشاب ..؟ في الصف الثالث الثانوي.. من مهجري السويس .. جاءوا إلى بلدنا عقب النكسة! وما كانت أسرته من بين من جاءوا .. فلم أره إلا بعد أن غادر المهجرون عائدين إلى بيوتهم في القناة عقب حرب أكتوبر .. أسرته جاءت بعد ذلك .. والده كان تاجر أدوات منزلية .. استأجر دكانًا صغيرًا في مدينة بلقاس ليمارس تجارته .. ربما أيضًا كانوا يقيمون في المدينة أو قرية أخرى مجاورة إلا أنه بعد حرب أكتوبر.. استأجر بيتًا في المعصرة ربما لتدني ايجارات المنازل بها .. خاصة بعد أن غادرها المهجرون واحتفظ بدكانه في بلقاس التي لاتبعد سوى أربعة كيلو مترات.. بيتهم لايبعد كثيرًا عن بيتنا .. ومثل الكثيرين من تلاميذ القرية .. السطوح مكانه المفضل للمذاكرة .. مثلي أيضًا يستذكر بصوت عال .. صوته ذو البحة الخفيفة .. يصلني .. يتلامس مع شيء ما داخلي.. فوجئت بنفسي معه في سباق .. من يصعد إلى السطح أولاً .. أستيقظ مع آذان الفجر .. أصلي .. أتوق إلى بشائر الصباح .. لأركض فوق درجات السلم الخشبي إلى السطح .. وأول فعل لي التطلع إلى المنزل الرابع على يمين منزلنا .. لأجد شبحه يتربع على أعلى ربوة قش .. كأن ضحكة تطل علي باستهزاء من بين ثنايا حروفه .. إذن ليكن موعدنا آخر النهار .. لن أغادر السطح قبل أن يغادر هو .. لكن أمي تخذلني .. نداءاتها تلاحقني:

ـ إنزلي يابت عشان توضبي العشا مع أختك ..!

.. وكأنه ضبط تقويمه مع تقويمي .. حين أسلك السكك الضيقة المتعرجة داخل القرية في طريقي إلى المدرسة الإعدادية أشعر بأنفاسه تلهب روحي.. .. لكنه في ذلك الصباح .. بارح مكانه خلفي.. ليجاورني .. ليدس في يدي ورقة .. يا لجرأته وفجري .. كيف أسمح لنفسي باستقبالها ..؟.. المفاجأة جردتني من كل الخيارات .. حتى خيار أن آخذ الورقة لم

يكـن خيارًا .. بل حالة مـن اللاإرادية .. .. لكنني الآن أظنها الخيار الجيني الوحيـد والمعد سـلفًا في تشـكيلي الأزلـي .. ألا أغلق أبوابـي في وجه أول نـداء مـن رجل .. ربما أترك البـاب مواربًا .. لكن ألا أوصده ..!" هذا اتهامك لـي .. أننـي أتبع معك سياسـة الباب المـوارب .. يبدو أن هـذا قدري ألا أفتح البـاب أبـدًا لكل عاشـق يكابدلاقتحام مخدعـي جبنا .. ولا أغلقه شـوقًا "!هـل تصـدق.. في إحدى عباراته يقول: إما أسـتيقظ فجرًا أو أظل سـاهرًا حتـى الفجـر .. ليس فقط لأهرع إلى السـطوح قبلك محـرزًا انتصارًا جديدًا في سـباق المذاكرة .. ربما يكون هذا السـبب موجودًا وثمة سبب ثان مهم بالطبع .. كي أراك ولو من على بعد أربعة سطوح .. الأكثر امتدادًا واتساعًا من جغرافية العالم التي ندرسها .. لكن لدي سببًا ثالثًا أكثر أهمية .. كي أتأمل نجمتين متجاورتين في الأفق الشرقي من السماء.. تتألقان خلف غلالة رقيقة من عتمة الغسـق .. ترتعشـان في جاذبية شـفاه طفلة في التاسعة طلب منهـا أن تلقـي لأول مـرة كلمـة في طابور المدرسـة .. ما أكثر الشـبه بين هاتين النجمتين وعينيك ..!!..

ياه .. هل رأيت روعة الصورة ..!..

وليلتها وأنا أهيء نفسي للنوم .. بعث لي حليم برسالة تأييد ومباركة من راديو المقهى غيرالبعيد عن بيتنا

ـ بأمر الحب.. افتح للهوى وسلم .. بأمر الحب افتح قلبك اتكلم .. بلاش نهرب .. بلاش نتعب .. تع إلى نحب ونسلم.. بأمر الحب ..

نعم يا حليم هفتح قلبي .. بس أعذرني .. مش هتكلم ..

إسمه اسماعيل زهران .. ربما أصبح أديبًا .. هل سمعت به..؟!

سـافر وأسـرته ليقضوا العطلة الصيفية في السويس .. لكنهم لم يعودوا .. وكلما توجهت إلى بلقاس أعرج على دكانهم .. فأجده مغلقًا..! أعود إلى رسـالته التي ما زلت أحتفظ بها في أدراجي السـرية.. أكان سحر كلماتها نبـع موهبة فذة لشـاب في البلاغة وليس بركان عشـق يمـور تحت جوانحه

كما ظننت..! أكان أيضًا مثلك ومثل هشام مجرد قناص ..!

سـألت عنه كل كتاب منطقة القناة .. بحثت عن اسـمه في قوائم إتحاد الكتـاب .. نوادي الأدب في السـويس.. .. ولاشـيء ..! كان ينبغي أن يصبح أديبًا كبيرًا .. فهل أجهضت موهبته مثل أجنة مشاريع عظيمة في بلادنا..!

***

obeikandl.com

كل البنات في قريتي .. كل قرى مصر لو فتشت في صناديق أحلامهن ستجد دائمًا حلمًا واحدًا .. بيت العدل .. أحيانًا ليس مهمًا من يكون شريكهن في بيت العدل .. المهم أن يكون جدع ابن حلال.. طيب يعني ما يضربش مراته ..!! هل تتذكر هذا النقاش الذي دار بيننا خلال الندوة التي نظمتها جمعية نهضة المرأة .. كانت بعنوان "**ثقافة المرأة المصرية**" .. قلت أنت بسخرية إن البنت في مجتمعنا تتزوج لتكون أما .. لاشيء يعنيها في مشروع الزواج سوى أن تنجب.. وبعد الانجاب ربما يتبدل دور الرجل من الذكر الذي يلقح إلى الجيب الذي ينفق .. قلت أيضًا إن افتقاد المرأة للأمان المادي وراء تشبثها بتلك الشراكة ولو كان لها دخل يكفيها وأولادها لربما اتخذت قرارها بالاستغناء عن الرجل .. ولو كانت محكومة بواعز ديني لأشبعت احتياجاتها الجسدية عبر زواج عرفي أو مسيار دون وجود رجل " لازقة " في البيت .. أظن أن ما قلته صحيحًا إلى حد كبير .. أختي أم كلثوم حين سألتها مرة هل هي سعيدة في حياتها الزوجية؟ قالت في رضا :

ـ الحمد لله .. كان نفسي في العيال وربنا إداني بدل العيل أربعة..!

لكن لماذا اختزلت المرأة دور الرجل في تخصيبها لتنجب .. ثم الانفاق ..؟ لأنها تحت سقف الزوجية لا تجد بداخله الفارس الحلم .. المحب العاشق .. إن أحب فبسمو وإن غضب ففي نبل ..

هل تعرف ..؟ يخيل لي أحيانا أننا نحن النساء تحولنا إلى صندوق قمامة تقذفون فيه بكل عقدكم التي تتراكم في لا وعيكم .. في الشارع والعمل ومع النظام .. ولأنكم تفشلون في رد الصاع صاعين لهؤلاء لاتجدون أمامكم سوانا .. حلم المرأة في الرجل يتعرض لامتحان عسير في كل بيت ينتهي عادة بالفشل المريع .. وليس الفشل مظهره الوحيد الطلاق عبر دفاتر المأذون .. فإذا كان الطلاق يعني الانشطار .. فما أكثر البيوت التي

تصدعت .. انشطرت دون أن يأتوا بالمآذون ليطلق .. أيكون هذا مصيري إن تزوجت بهشام ..؟ يا أمي .. ياخالي .. حلمي رجل محب غزلته من أغاني حليم وثومة .. من قصيدة الأطلال التي حفظت أبياتها المئة والثلاثين في عصاري العطلة الصيفية بمخبئي بين أكوام القش .. بعد أن نبهتني أبله هدى إلى مكنوزها من المشاعر" ويبدو أن المديرية العامة للتربية والتعليم بمحافظة الدقهلية رأت أن مافعلته أبله هدى يستحق العقاب .. خاصة بعد أن تقدم بعض أولياء الأمور بشكاو تتهمها بتعليمنا الفسوق فنقلتها من سلك التدريس إلى وظيفة إدارية .. إن لم تخني الذاكرة أمينة مخازن .. فاستقالت ولحقت بزوجها في الكويت!!

***

obeikandl.com

ومـا راودتنـي أبدًا خيالات للعلاقة الزوجية مسـرحها فراش ولمبة حمراء وجسـدان مشـتبكان .. فرجلـي الذي أحلم بـه إلف أثيـري .. وإن كان ثمة كائن جسـدي فهزيـل بتعبيرات وجه حليم الطاغية .. وسـمرة هذا الشـاب السويسي ..

.. لذا بدا هذا المشهد الذي روعني في العجمي بالأسكندرية.. لغزا إزاء الصورة التي تشكلت بداخلي لغرفة النوم ..

حين حصلت على تقدير جيد جدًا في السنة الثانية بكلية الأداب قسم اللغة الإنجليزية كافأتني فاطمة وزوجها بصحبتهما إلى الشـاليه الذي يملكانه فـي العجمـي .. ويبدو أن القدر كان يخبئ لي مكافأة أخرى .. صدمة رغم أنني تجاوزت ما سـببته لي من ذهول إلا أنني في خلوتي اسـتدعيها متأملة .. في الخامسـة صباحًا خرجت كعادتي إلى الشـاطئ أستمد من زفير البحر أكسـجينًا يطهـر خلايا روحي من الأكسـدة .. لكنني شـعرت برغبة في دخول الحمام فعدت سـريعًا.. دسسـت المفتاح في ثقب الباب بهدوء حتى لا أزعج أختي وزوجها اللذين لا يتوجهان إلى فراشـهما إلا في الثالثة أو الرابعة فجرًا

.. فوجئت بابن أختى هاني يبكي في صمت .. ضممته إلى صدري وسألته في فزع: مالك ياحبيبي .. بتعيط ليه؟

أشار إلى غرفة والديه مكابدًا في أن يلملم الحروف على شفتيه:

ـ بابا بيضرب ماما

ـ بتقول إيه؟

ـ كنت رايح الحمام سمعتها وهي بتعيط وتصرخ ..

دون أن أدري .. وثبـت نحـو الغرفـة .. دفعـت الباب بقوة ليداهمني مشـهد لاينتمـي لتقويمـي الإنسـاني .. فاطمة مبعثـرة تحت جسـده ووجهها خارطة

لألـوان وبحيـرات وآخاديد لاعهد لـي بها .. قفز من فوقها فـي فزع ليروعني مـا لـم يـراود خيالي أبدًا عنه .. عـن كل الرجال الذين أعرفهم .. أسـاتذتي فـي كليـة الآداب الذين أحبهم .. أبي .. أعمامي.. أخوالي.. أشـقائي .. عمود ضخم ينتصب بين فخذيه .. والمسكينة تشلها المفاجأة فلا تقوى على ستر جسدها العاري أو حتى ضم ساقيها لتواري هذا الثقب الذي تجاهلت وجوده سنين مراهقتي .. رغم الحاح معلمة الأحياء في المرحلة الثانوية على تأكيد أهميته في استمرار وجود السلالة البشرية .

تذكـرت في ذلك اليوم ما ردده مرة أسـتاذ فـي الكلية تقول عنه البنات أن وجهـه مكشـوف حين كان يعلق علـى رواية الليدي تشـارتلي للكاتب الإنجليزي د. ه لورانس .. قال في صوت عميق وكأنه يبوح بسر الحياة:

It,s pole and hole ..

وحيـن سـألت زميلة لي ماذا يعني؟ قالـت: دا مثل انجليزي يعني أن الحياة فـي النهايـة عمود وثقب ..! تطلعت إليها لعلها تزيد فرمقتني في دهشـة .. ثم تسـاءلت: مش عارفة يعني أيه يا زينب عمود وثقب ..؟! وتوجسـت أن العبارة ربمـا لها دلالتها الجنسـية المبتذلة فلم أرد إلا أنني كنت في شـوق لأعرف وسـريعًا ما أنقذتني زميلتي من حرج تطلعي إليها وقالت: يعني قضيب وفرج يا زينب .. عارفة دول واللا أشرحهم همه كمان!!

.. أهـذا إذا الـذي رأيته في غرفة نوم أختي هو عضو الرجل ..؟! بل شـيئًا.. شـيئًا يشبه شمروخ هشام ذا الرأس الضخمة أو يشبه مايك الميكروفونات القديمـة .. كيف تطيقـه فاطمة؟ ألهذا كانت تصـرخ..؟ وما الذي يجبرها علـى الحيـاة مـع هذا الحيـوان ..؟ هـل أكرهـه؟؟ كيف يكـون هكذا.. بوجهيـن؟ يبـدو لنا دمـث الأخـلاق حنونًا .. وهـو يخفي تحت ملابسـه ذلك الوتـد ليغرسـه بغير رحمة في أختي .. أهذا هو الـزواج .. ؟ يا إلهي .. أما من وسـيلة أخرى لننجب .. لتعمير الأرض .. غير وتد مدحت ..؟! أفر من المشهد الرهيب إلى الحمام .. لا لقضاء حاجتي .. بل لأتقيأ ما رأيت وكأن جوفي هو

ذاكرتي التي ينبغي أن أطهرها من هذا المشهد اللا إنساني .. ثم انسللت مرة أخرى إلى البحر .. ويقلقني سؤال مفزع: كيف ستكون المواجهة ..؟ ولأنني عجزت عن الإجابة عجزت أيضًا عن العودة إلى الشاليه .. هل أتسلل إلى غرفتي وألملم أغراضي لانسحب عائدة إلى المعصرة دون أن يشعروا؟ .. ليكن .. هذا هو القرار الصواب .. وأنا أهم بالنهوض فوجئت بأنامل تربت على كتفي .. فاطمة؟ ماهذا ..؟! وجهها مبتسم .. لكن الابتسامة لا تنجح في حجب مسحة الخجل ..

ـ إيه ما زهقتيش من قعدة البحر؟؟

هل أفر ..؟ لا .. لابد من المواجهة .. لن تستقيم حياتنا بعد ذلك إلا بالمواجهة:

ـ أنا آسفة يا فاطمة!

تتغابى .. لكنه ليس بالتغابي المطلوب في لحظة مثل تلك .. لماذا لاتعينني على مهمتي؟!

ـ إنتي عارفة أنا باعتذر عن إيه؟

تطلق ضحكة تنز شيئًا من الخجل:

ـ على إللي حصل النهاردة ..!

ـ أصل أنا رجعت من البحر علشان أدخل الحمام لاقيت هاني بيعيط وبيقول إن بابا بيضرب ماما وعمالة تصرخ .. فما حسيتش بنفسي ولاقيتني بفتح الباب عليكم ..

يشتعل وجهها بضحكة يهتز لها كل جسدها ..

ماذا أرى؟ إنها سعيدة .. امرأة تسعد بهذا الذي يحدث لها من رجل مثل مدحت لابد وأن تكون مختلة .. ماسوشية.. كما يقول علماء النفس ..

أزعق:

ـ إنت .. إنت ليه مش بتطلبي الطلاق ..؟! إزاي تعاشري راجل بيعمل فيك

كده ..؟!

تتطلع لي في ذهول ثم تعاود الضحك مجددًا .. لتنهض وهي تجذبني من يدي قائلة:

ـ طيب ياللا ياهبلة .. الضهر هيدن واحنا لسه ما فطرناش ..!

هبلة ..؟ نعم .. هذا ما أدركته بعد ذلك .. أن ذلك المشهد الذي لا يبارح ذهني يجسد حقيقة كل النساء .. ابن أختي بكى لأن أمه تصرخ .. وهو محق .. فالصراخ طفح آلامنا .. لكنه على الأسرة فيوضات نشوتنا.. وكم هو تعبير عن ماسوشيتي .. إحساسي بالألم ولو بصورة رمزية .. إحساسي بالإهانة وأنا أسفل .. وإهانة مضاعفة وأنا ساجدة.. أجتهد ليكون جسدي مطويًا نصفه الأعلى على نصفه الأسفل لتشكل المؤخرة رأس زاوية حادة ترتفع في فراغ الغرفة في زهو أنوثي يكتمل باقتحاماتك .. لأعض على وسادتي ألمًا ونشوة .." في ليلة وددت هذا .. تملكتني رغبة قوية في أن أهاتفك لأسر لك برغبتي .. اتصلت .. خرس لساني .. فلم أقل وقلت أنت لأنهرك في النهاية: ماعندكش حاجة تتكلم فيها غير الكلام الفارغ "!

.. فعلاً.. صدقت أختي حين وصفتني بالهبلة .. بل أراه .. أجمل ما في الرجل .. ألم تسألني أنت مرة: ماذا يعجبك في الرجل ..؟ أتتذكر اجابتي ..؟ قلت: عينان ضيقتان تتدفقان بشعاع نافذ ينبثق من عوالم ثرية بالغموض ..

ولم أكذب .. بل قلت نصف الحقيقة .. أما النصف الثاني .. هذا الذي يمكن أن يتوارى تحت سروال رجل أحبه!! .. وإياك أن تكون مثل حشرات مجتمعنا الكهفي وتتهمني بأنني امرأة ساقطة .. فأنتم تتحدثون بفخر عما يعجبكم في النساء .. من العينين إلى النهدين إلى الأرداف .. وكل يتفاخر وهو ينظر مؤكدًا سلامة ذائقته الجمالية..

لقد أدركت أن شعوري الهائل بكراهية مدحت في ذاك الصباح الصيفي الباكر كان بسبب إيغالي المفرط في عشق رومانسية ضي القمر دون أن أنتبه أن شاعرية القمر لاتحقق للأنثى الامتلاء إن لم يتعرض جسدها للسعة

الشمس .. "هذه الصورة أظن أنني أقتبسها من إحدى رسائلك لي" وربما أيضًا حيلة نفسية حتى لا أسقط في عين أبي .. هل قلت لك من قبل أن أبي اختفى يوم زواج أختي خديجة..؟.. لا أتذكر إن كنت قد قلت هذا أم لا .. لكن على أية حال هذا ما حدث .. اختفاؤه لم يثر اهتمام أحد من كبار القرية .. وعرفت بعد ذلك من أختي لماذا اختفى؟ هروبًا من مواجهة الحقيقة!.. زفاف ابنته إلى بيت رجل غريب .. إلى غرفة نومه .. سريره .. لينزع ملابسها.. ليطرحها عارية تمامًا كما ولدتها أمها .. لـ "يركبها" .. أليست هذه هي الكلمة التي تفضلونها للتعبيرعن فحولتكم..! يركبها وكأنها دابة .. وفي قريتي لدى الذكور عبارة أخرى غير تلك ".. "ينط" عليها.. وليس الفلاحون وحدهم الذين يتداولون هذه الكلمة البشعة .. بل حتى جارنا المتعلم موسى خريج كلية التجارة والمحاسب في شركة بيع المصنوعات .. شقيقه إبراهيم مدرس الإعدادي أحب نسمة زميلته المطلقة .. لكن أشقاءه وأمه عازمون على أن يتزوج قدرية .. ابنة عمته.. تشاجروا معه .. أصوات الشجار اخترقت نوافذ بيتنا .. سمعت أخاه الأكبر موسى يصيح فيه ساخرًا : بقى يا تيس.. تسيب البكر وتتجوز واحدة نط عليها راجل تاني ..؟!

ياه؟! أنحن بهذا القدر من الدونية في قواميسكم ..! إذا طالما الأمر هكذا فأبي كان محقًا .. كيف يتواجد ويشارك في صنع هذا المشهد المروع لابنته ..!! ينبغي أن يختفي .. ورغم تأثير الشيخ عبادة علي أبي في أمور كثيرة .. لكن يبدو أنه لم يتمكن في ذلك اليوم من اقناعه بأن يبقى ليشارك ابنته وعريسها فرحتهما .. ربما يرجع ذلك إلى حداثة علاقتهما؟. كان أبي يرى أنها فرحة العريس الذكر وحده لأنه الفاعل المقتحم .. والعار لإبنته المفعول بها. فلماذا لا يفر..؟! والد العريس يختفي فقط لو ابنه ما طولش رأسه وماعرفش..! لكنني ومع تراكم المعرفة والحاجز الزمني الذي يتمدد كل يوم لينأى بي عن مشهد العجمي .. شعرت أن نفوري القديم للرجل جسدًا بدا وكأنه أوامر من أبي .. كراهية الذكورة جدار شيده أبو البنات في دواخل فلذات كبده الولايا لحمايتهن من كل قناص

أثيم .. لكنني في الحقيقة لا أكرهه .. بل كثيرًا ما أستحضره .. وأقول الآن ما لاتقوى امرأة على قوله خوفًا .. هل عبرت في سطوري السابقة عن استهجاني لقواميسكم الجنسية الفجة..؟ لكن دعني أصارحك بهذا المخبوء في داخلي .. أن صياح جارنا موسى في شقيقه إبراهيم.. تحديدًا عبارته " نط عليها راجل تاني " اخترقت أيضًا جسدي .. اعصارًا من الإثارة!

أتراني امرأة ملتبسة ..؟ لا أتذكر إن كنت قد اعتذرت في أوراقي السابقة عن أية تناقضات أو التباسات قد ترد في هذا السطر أو ذاك.. على أية حال إن وجدت شيئًا من هذا القبيل ويقينا ستجد .. فهذا دليل على أنني امرأة طبيعية .. إن أية كلمة ترد في أوراقي تلك هي أنا .. فإن دفعتك شهوة الفضول لأن تبحث عن أي خلل سيكولوجي وراء ما تراه التباساتي .. فلن تجد .. إنما هو ما غاب عن حديث أينشتين.. حين قال: ثمة شيئان لانهائيان .. الكون والغباء ..! وإني مازلت أصر على إضافة: والمرأة أيضًا ..!! فإن رأيتني هكذا لانهائية .. فلا التباس ولا تناقض .. فكل ما يبدو في ملتبسًا أو متناقضًا إنما يعزى إلى قصور في معرفتك بي .. وليس لخلل في ..!

وعودة إلى سؤالك لي ذات مرة .. ماذا يعجبني في الرجل .. كنت تقصد جسد الرجل .. وإني الآن أقول ما لم أقله لك أبدًا ..

أعلم أن كثيرًا من النساء يولعن بالصدر الرجولي المعشب .. والليدي كونستانس تشارترلي أبدت اعجابها بجذع حارس الصيد باركين .. لكن حين انصهر جسده في جسدها وصفت ماحدث بأن أفضل جزء منه في أفضل شكل كان منطوقًا بداخلها! واعتبر الكثير من النقاد حتى في الغرب أن كلمات مثل تلك وغيرها طفحت بها رواية " عشيق الليدي تشارتلي " تجاوزًا ..بل عهرًا .. لكنني الآن وبعد أن تحررت من خداع أبي دون أن أتحرر بالطبع من تأثير أبله هدى الرومانسي .. الآن لدي الشجاعة لأن أقول حتى هذا الذي لم تقوى الليدي تشاترلي على قوله: إن ذكر رجل محب ربما كان رمزًا لكل احتياجات إمرأته .. هل يستهويها في إلفها نعومته .. جبروته .. طغيانه..

حنانـه .. روحـه الغازية .. أليـس هذا ما تريد كل امرأة مـن رجلها..؟ وأليس ذكره تجسـيدًا لتلك التركيبة المتناقضة ..؟ والدم الذي يتدفق في عروقه لينتفـض أليـس وارد القلـب .. نبع المشـاعر الجميلة؟! وهذا مـا أدركه في لياليي السـاخنة على أسرة أحلام يقظتي .. أنه رسالة حب .. أغيب عن وعيي بملمسـه الناعم .. أحترق بلظى مخبوئه من الشـوق إلى أعماقي .. أتطهر من نجاسـة الحرمان برحيق شـهده .. جبروته يجعل من رضوخي .. هواني .. نعمة تدفعنـي بعـد كل غزوة .. أن أنهض .. لأتوضأ .. لأصلي ركعتي شـكر لله أنه جعل مني أنثى مكتملة ..!! دعني أستعين بما جاء في الموسوعة النفسية للدكتـور عبـد المنعم حفني حول هـذا الأمر.. يقول: " .. ولـو تأملنا قضيب الرجـل في ذاته سـنجده قبيحًا وكذلك فرج المـرأة .. ولكنهما لما هيئا له من أجمل ما يكون .. كفرشـاة الرسـام .. شـكلها وهي ملقاة شكل غبي ولكنهـا وهي ترسـم وتلون عظيمة بكل المقاييس .. " وما لم يقله د.حفني أنـه بالفعل قد لا تكون ثمة قيمة للفرشـاة إن لم تكن بين أنامل محشـودة بعبقرية الإبداع ..

يـا إلهي .. ما أفظعني .. أتلك كلمـات زينب بنت رضوان الحناوي .. الذي لم يكن شيخًا من شيوخ الدين لكن أهل القرية منحوه بعفوية اللقب لورعه ..! فمـاذا لو وقعـت أوراقي تلك في أيدي آخرين غيـرك..؟ وهل أتيت بجديد لايشـغل النسـاء ..؟ منذ عدة سنوات .. فوجئت بزهرة تنزع سروال ابنها طارق وكان في الخامسة من عمره .. وتتمتم في سخرية حزينة:

ـ الواد باين عليه هيبقى زي أبوه .. حمامته صغيرة ..!

وحتـى لـو قلـت إن هذا حـال الكثيـر مـن الأمهـات .. تأمل هـذا القابع تحـت سـراويل أطفالهم ليطمئنوا على مسـتقبلهم .. أهذا يشـفع لي لدى أي قـاريء يمكـن أن تقع أوراقي تلك بين يديه ..؟! ماذا سـيظن بي..؟ فاجرة ..! وأصارحـك القـول .. كلماتي عن عضو الرجل ليسـت نبتة أوراقي تلك .. بل ليلة بعيدة اشتعل فيها جسدي ووجداني بسطور تلك القصة المذهلة .. قصة

"سانتياجو" لا أدري إن كانت لكاتبنا الرائع جابرييل جارسيا ماركيز أم لغيره أم إحدى أساطير أمريكا اللاتينية.. وخجلت أن أحكي لك عنها .. قصة تدور حول رجل غريب هبط على قرية .. لتنتشر سريعًا الحكايات عن قضيبه الضخم .. وعشق نساء القرية له .. مما أوغل صدور الرجال .. وعثر عليه ذات يوم مقتولاً ..! فأقامت له النساء مراسم دفن تليق بمكانته في قلوبهن.. وأطلق اسمه على القرية لتكبر وتكبر وتصبح مدينة سانتياجو عاصمة تشيلي ..! ليلتها شعرت وكأنني واحدة من نسوة "سانتياجو".. أحببته وأدماني الحزن على موته .. وكتبت عدة عبارات مبعثرة حول ما يعنيه عضو الرجل للمرأة عاطفة وجسدًا .. وحين هممت بكتابة رسالتي هذه .. وأخذت على نفسي عهدًا ألا أخفي عنك شيئًا تذكرت عباراتي المبعثرة وبحثت عنها لأضمها إلى أوراقي تلك .. في الوقت الذي لم أتمكن من كتابة سطر واحد بعد قراءتي لقصة " الشيخ شيخة " ليوسف أدريس عن الأبله أو هكذا ظنه الناس فلم يجد الرجال حرجًا في أن يدخل بيوتهم .. رغم أن ملابسه عادة لا تغطي نصفه الأسفل ليتدلى قضيبه الضخم .. فعشقته النساء .. إلا أنه كشف أسرار البيوت .. ليقتل .. ولم أتعاطف مع الشيخ شيخة مثلما تعاطفت مع سانتياجو ..؟ لا أدري .. ربما لاحساسي أن سانتياجو كان رجلاً .. على النقيض من شيخ شيخة " يوسف أدريس " .. الذي لم أشعر به سوى مجرد ذكر ..!

واعذرني إن أعدت التأكيد أن تلك الأنثى التي أحدثك عنها مكتملة فقط في أسرة الأحلام .. لكنها على أسرة الواقع مجهضة.. فرجلي ابن خالي .. أخي الذي تربى معي عجزت عن أن أحبه .. وعجز هو أن يتيح لي الفرصة كي أحبه .. وحتى لو كان يملك ذكر ثور.. لاقيمة له إن لم تكن الدماء التي تندفع فيه تتدفق من قلب محب.. ليتندى في داخلي بشهد حب أعظم ..!

.. نعم .. هذا هو التطور الذي حدث في تشكيلي الأنثوي .. شاعرية

ضي القمر وحدها اكتشفت أنها لا تكفي.. قد تنجح في تشكيل مخدع مخملي .. لكن مخمليته قد تصبح في ملمس الكفن إن لم يحترق بلسعة الشمس .. وكأن ثمة اتفاقية صلح بين الجسد والروح دثرتني ببنودها لأشعر بما شعر به جبران يومًا حين قال:

ـ كان لي مولد ثاني حين انعقد الحب بين روحي وجسدي فتزاوجا.

ألهذا حين غمرتني غزلياتك التي كانت تعزف على وتر تشكيلي المعدل .. استجبت لشراك غوايتك .. فقط .. في فراش أحلامي ..!

ـ لكنني لم أكف عن مقاومتك .. وأحيانا تنتابني الرغبة في تحطيمك .. كان ذلك في إحدى الندوات .. حين بحت برأي ينبثق من رؤيتي القديمة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة .. روحان يتوحدان على فراش من أثير في مخدع فوق السحاب ..! فوجئت بك تسفه ما أرى وتقول إن قيسًا أصر على أن تكون مشاعره تجاه ليلى أفلاطونية لأنه ربما كان يعاني من مشكلة جنسية .. وربما هذا حال دعاة الحب الأفلاطوني ..؟ هل تعرف .. فكرت لحظتها أن أنهض وأزلزل كرسيك الذي تتربع عليه فوق المنصة .. فقط بتصحيح معلومة لا أدري كيف لم تنتبه إليها وأنت المثقف الموسوعي .. هذا الحب الروحي الذي يتكئ على المشاعر فقط من الجهل أن نسميه أفلاطونيًا .. فما كان مقصد صاحب الجمهورية سوى حب الفتيان..! ولا أدري أي شيطان قام بتحوير مفهوم المصطلح مئة وثمانين درجة ليعني الحب العذري..! لم أفعل .. ليس فقط حفاظًا على مكانتك في القاعة خاصة وأنه كان يوجد العديد من مندوبي الصحف.. بل لأنني امرأة .. إن خاضت بتنظيراتها في كيمياء النصف الأسفل تشبث ذكور القاعة وخارج القاعة بتلك التنظيرات وصنعوا منها سلمًا يصعدون به إلى نافذة مخدعها ليتلصصوا على عالمها السري ..!! وأظنك مثلهم تتوق إلى معرفة ماذا يدور في مخدعي .. وربما بعد أن

تعرف .. بعد أن أتعرى أمامك .. سوف تولينى ظهرك وتفر .. لا أتذكر .. هل فرويد هو الذي قال هذه العبارة: الحب رغبة جنسية مؤجلة ..!! إن كان .. فما يعنيه بعبارته جلي .. بمجرد أن تشبع رغباتنا الجنسية ينتهي الحب .. فإن صدق .. وأظنه غير صادق .. لو رآك أو أي رجل شرقي لأدخل تعديلاً على عبارته لتصبح: الحب رغبة في نزع سروال امرأة .. إن تحققت إنتهى .. فالروح التي تحكمك روح قناص لايعنيه سوى أن ينزع سروال فريسته .. فإن نجح ليس من المهم أن يكمل .. كان هشام ونحن صغار يفعلها .. حين كنا نتوجه إلى المصرف المجاور لحقلهم لنصطاد .. إن علقت سمكة في صنارته يمضي لحظات يتأملها وهي "تتلعبط" في السنارة .. أظن أن نفس النظرة التي كانت تطل من عينيه وهو يعتلي جسر المصرف ذاتها نظرة الظفر التي قفزت في عينيه وهو يعتليني في الليلة السابعة من زواجنا .. وما عدت أراها الآن ..! وبعد ذلك يحرر السمكة من السنارة ليلقي بها في المصرف.. وسألته مرة:

ـ ليه يا هشام ..؟!

فقال وهو منشغل بوضع طعم آخر في السنارة:

ـ مية المصرف وحشة والسمك إللي فيها متربي على الوساخة ..!

ـ طيب وليه بتصطادها ..!!

ضحك ولم يجب .. ربما لأنه لم يكن بقادر على معرفة خرائط أدغاله الذكورية التي تطفح منها تلك المشاعر المعقدة فتدفعه إلى أن ينطر السنارة عاليًا حين يهتز الغماز مبشرًا بوقوع الفريسة .. ثم يرمق فريسته وهي تتقافز في ألم بتلك النظرة الغريبة ..!

هل شاهدت هيلي بن شو؟.. تلك العروض الكوميدية التي راجت في النصف الثاني من الثمانينيات .. ثمة مشهد ربما مر على المشاهدين دون أن يتوقفوا أمامه كثيرًا.. لكنني أعدته مرارًا .. لا لأضحك مثلما ضحكت

آختي فاطمة .. بل لأتأمله .. شاب يسير على شاطيء البحر .. رأى فتاة ترتدي تنورة واسعة وتجلس على مقعد مرتفع .. استرعى انتباهه جسدها البض .. فتوجه إلى حيث تجلس.. وتحت قدميها اضطجع .. فهمت الفتاة ما يرمي إليه .. اختلاس النظر إلى المناطق الخافية تحت التنورة .. فنهضت بهدوء وخلعتها لتصبح شبه عارية .. ثم عادت إلى مقعدها .. فماذا كان رد فعله ..؟ انصرف .. متعة هذا الرجل أن يتلصص .. يسرق .. يقتنص .. وحين أتاحت له الفتاة هذا بسهولة كانت هزيمة له .. ألم يكن هذا شعور فتى كولن ويلسون .. أعني رواية الحالم إن لم تخني الذاكرة .. تلميذ الثانوية الذي مارس التنويم المغناطيسي مع زوجة معلم الموسيقى ليضاجعها .. آرثر .. هل كان هذا اسمه ..؟! ربما.. وحين اكتشف أنها كانت على وعي تام حين ضاجعها .. شعر بالإحباط .. لأنه لم يفلح في سرقتها .. كل شيء تم برضاها .. ألست وهشام مثل هيلي وآرثر ..!

***

obeikandl.com

رأيته معي أكثر من مرة .. هشام أعني .. ما رأيك؟ أظنك ستقول: هذا الكائن لا يمكن أن يكون قد خرج من رحم امرأة ..!! هل شعرت إزاءه بالضآلة كذكر؟ .. إلا أنك في سريرة نفسك تحمد الله أن لديك ما تتفوق به عليه حين اخضعكما للمقارنة في موازين الأنثى السرية .. دماغك .. أعني علمك وثقافتك ورومانسيتك..!

وما كان في طفولته هكذا .. كان طبيعيًا .. كنا نركض و نتقافز فوق أكوام القش قبل رفعها إلى السطوح لتقينا من أمطار الشتاء .. ونستخدمها كوقود لأفران الخبز .. ونتخفى بين أكياس القطن في لعبة الاستغماية خلال موسم الجمع .. كنت في ذلك الوقت بالمرحلة الإبتدائية وكان هشام في الإعدادية .. إلا أنه روعنا بتلك الطفرة التي تعرض لها جسمه في المرحلة الثانوية .. وفي ليلة كنت منطوية بين كراساتي أحل واجب الحساب .. شعرت بيد مرتعشة على الباب .. فتحت .. لأفاجأ به.. أتلك دقة قبضة هشام التي تزلزل المنزل! انتبهت .. الدموع تملأ عينيه .. خجلت أن أسأله .. فزعت إلى أمي:

_ هشام بيعيط ..!

تفزع إليه .. كان قد توارى في ظلام الدوار .. أختي فاطمة تهرع خلفنا بلمبة الجاز لتنير الطريق .. نهنهته دلتنا إلى مكانه .. كان يدفن وجهه بين ساعديه المتكئين على قبة الفرن .. تتحول النهنهة إلى بكاء هيستيري " هذا توصيفي الآن لهذا المشهد الذي مضى عليه أكثر من ثلاثة عقود".. تملكتني الدهشة .. أمثل هشام يبكي؟ ولم؟ لأن أباه نهره أمام أصحابه ..! لكنني نسيت دهشتي وفوجئت بأنني أبكي لبكائه ..

لم أكن أتخيل في ذلك الزمن أو حتى الأزمنة التالية أن هشام هذا يمكن أن يكون زوجي!

بل بعد ذلك بعدة شهور لم أكن أتخيل أن يكون زوجًا لأي امرأة .. في ذلك

المساء الشتوي الذي عاد فيه بحمارة أبي محملاً بقفة دقيق من الطاحونة .. أنزل القفة في الحوش .. ثم ساق الحمارة إلى الدوار .. فهرعت تنفيذًا لأوامر أبي حين كان يتآخر في الطاحونة لإعداد بعض الفول الحصى في شيكارة صغيرة .. وهبطت إلى الدوار لأضع علف الحمارة أمامها لتداهمني أنفاسًا لاهثة .. تسمرت أقدامي في مكانها وعيناي على كتلة ضخمة وهي تندفع في موجات متلاحقة إلى الأمام و الخلف .. دققت النظر جيدًا لأراه ملتحما بمؤخرة الحمارة .. تجاوزت ذهولي سريعًا ونزعت أقدامي مستديرة إلى الخلف .. إلى غرفتي .. وأنا أحاول فك طلاسم المشهد العجيب! ولا أظن أنني تمكنت من رفع عيني في عينيه بعد ذلك شهورًا عديدة .. والذي أذهلني .. أنه بدا طبيعيًا .. حتى كان ذلك الصباح الصيفي .. مستكينة كعادتي في المرحاض .. وعيناي عالقتان نحو اللاشيء بالسقف الخشبي .. بينما طواحيني الداخلية تدور بعنف .. أجازتي الصيفية التي بدأت كيف أقضيها! وحليم الذي أبكاني في فيلم السهرة الذي شاهدناه الليلة الماضية بأغنيته " في يوم .. في شهر .. في سنة " وأمي التي نهرتني حين تسللت من البيت لألعب الحجلة مع صويحباتي في الحارة الصغيرة .. و.. أنتبه .. صوت خربشة في سقف المرحاض .. أحدد مصدره .. العرق الخشبي الذي يلتقي أعلاه الجدار بالسقف .. تتزايد الخربشة .. تتوحش .. أتخشب .. شيء ما ينفلت من الشق الفاصل ما بين العرق الخشبي والسقف .. صرخة تتحجر داخلي .. بل تخشب الجسد كله .. تلاشى .. حكمة زرعها الرعب في كياني .. لاشيء سوى عينين تتابعان انزلاقه إلى أسفل .. الي أين ..؟! نحوي .. ليلدغني.. لألفظ أنفاسي وأنا هكذا .. سروالي معلق على مسمار خلف الباب بعيدًا عن موطنه الذي حدده أبي بصرامة .. هل سيجدني أهلي هكذا جثة عورتها مكشوفة ..؟! ليتها أمي هي التي أول من يكتشف جثتي.. وليس أحد من أولاد خالي الذين كثيرًا ما يستخدمون مرحاضنا حين يكونون في البيت .. بل هشام فعلاً في البيت .. حين توجهت إلى المرحاض كان يتحدث مع أمي .. يا إلهي .. أيراني عارية ..؟ بلغت رأسه أرضية الحمام ..

رفعها فجأة .. هل شعر بي؟؟ معلمة العلوم قالت لنا إن الثعبان لايرى .. بل يشعر .. عضلات بطنه شديدة الحساسية للاهتزازات التي تحدث في التربة بفعل تواجد الآخرين أو أصواتهم .. يتجه نحوي .. خطوة واحدة تفصله عني .. هل شعر بوجودي؟ كيف..؟ حتى أنفاسي أكتمها .. كأنني أسأت الظن .. يتجه نحو الباب .. رأسه تتسل من الشق الفاصل مابين الباب وعتبته الرقيقة .. هل أحتفل بنجاتي بصرخة ..؟.. ربما عاد لينقض علي انتقامًا .. أتابعه عبر شق صغير في الباب .. يتجه نحو السلم الخشبي .. جذبت سروالي من فوق المسمار بأنامل مرتعشة .. ودفعت فيه ساقي حتى دون أن أغتسل.. جذبت الباب بهدوء لتنطلق بغير قرار صرختي المؤجلة أيضًا بغير قرار .. تباغتني استدارته نحوي شاهرًا رأسه المندفع من داخله إبرة رفيعة تتواثب في كل الاتجاهات .. تصيبني بالدوار .. في اللحظة التي تراجعت إلى الخلف لأحتمي بالمرحاض اندفع باب الحوش بقوة.. هشام وخلفه أمي وفاطمة .. أتطلع إليه بتوسل .. وما كان لديه وقت ليقرأ ما بعيني .. أشرت نحو الجدار .. وأنا أردد بحروف مرتجفة: تعبان .. تعبان يا هشام .. تعبان يامه ..

يحاول أن يبحث له عن منفذ في الحائط .. لكن قدم هشام الضخمة تنقض على رأسه لتسحب منه كل طرق النجاة .. يتقافز ذيله الممتد خلفه بحثًا في يأس عن وسيلة للهروب .. انحنى هشام بهدوء .. ليفاجأه بحركة مزدوجة قبض خلالها على رأسه بإحدى يديه وجذب الناب بيده الأخرى .. ثم رفع قدمه ولوح به في الهواء ..

_ إيه يا زينب .. خايفة منه ..؟ طيب إيه رأيك تخديه ينام معاك ..!

ارتجفت رعبًا لعبارته .. وما استكان جسدي اطمئنانًا حتى بعد أن هرس هشام رأس الثعبان بقدمه الضخمة .. بل إزداد فزعي حين قال لنا ابن خالي أن هذا الذي قتله أنثى وسيأتي وليفها ليلاً لينتقم .. هرعت إلى حضن أمي خشية أن يلتف الوليف المكلوم بقتل أنثاه حول رقبتي وأنا نائمة .. طلبت من هشام أن ينام في منزلنا حتى إذا جاء وليف الحية قتله .. لكنني حين

كبرت وتزوجت .. رغم الخوف الساكن بداخلي من كل ثعبان إلا أنني حلمت به ذات ليلة يتسلل إلى مخدعي من النافذة .. لم أصرخ حين رأيته .. بل ترقبت وصوله بشوق غامض .. يدنو.. وحين أصبح على بعد خطوة من سريري .. تطلع إليَّ بنظرة أيضًا غامضة .. تخلو يقينًا من الرغبة في الانتقام .. بل .. بل .. لا أدري .. يا إلهي .. كأنه أصدر لي أمرًا بأن أنزع سروالي .. فعلت .. اقترب .. رفع رأسه .. لا يتملكني ذلك الخوف الذي اعتصرني حين رأيته ينزلق من شق سقف المرحاض .. بل خوف آخر .. أظنه ينتمي إلى نفس الخوف الذي جرد ساقي ليلة الدخلة من كل قدرة على الحركة.. يشهر نابه لأفاجأ بساقي ينفرجان ولا أثر فيهما للخوف.. أشعر به فوق ساقي رطيب أملس ناعم .. يغرس لسانًا أصفر ذهبي كعود أراك بين ساقي وراح بطرفه الشوكي يمتص سموم رغبتي وينفث رحيق نشوتي حتى تخدر كل جسدي فراح يهتز في نبضات أليمة حادة الألم إلى درجة الإمتاع ليهتز كل كياني في نشوة ارتواء لم أعهدها في كل ليالي زواجي .. ولا أحلامي بك .. فما أن مال جسدي للارتخاء .. حتى اندفع نابه في داخلي بغتة ليرتج السرير بزعيق متعتي .. .. فينتفض هشام بجواري فزعًا :

ـ مالك يا زينب ..!

ألملم نفسي المبعثرة في خجل وأنا أتمتم في إعياء :

ـ الظاهر كابوس ..

وما كان كابوسًا .. بل قصة أليفة رفعت " عالمي المجهول " التي قرأتها للمرة الأولى في الليلة السابقة استعدادًا لمناقشتها في قصر ثقافة المنصورة..!

هل وقع اختيار الكاتبة على الثعبان ليروي أنوثة بطلتها العطشى لأنه رمز لذكر الرجل في التراث الإنساني ..؟ وهل تحت وطأة تأثير قصتها استدعيته أنا ليعوضني عن ليالي حرماني والتي لا أطيق معالجتها بخيانة رجلي ..؟ وهل يشعر هشام بالحرمان مثلي؟؟ نعم.. يقينا .. بعد عدة شهور

من زواجنا شعرت بجسده أرقًا .. يتململ .. راقبته بدهشة .. بقلق .. راعني ما يحدث .. يده تتحرك برتابة إلى الأمام فالخلف .. ليزداد إيقاعها .. ثم تتوقف فجأة ليرتجف الجسد.. لتداهمني زفرة ضيق يفشل في قمعها بالوسادة .. أظنه كان يعبث بعضوه .. ظني في تلك الليلة أصبح في الليالي التالية يقينًا .. ذات الشيء يتكرر .. حتى لو كان قد ضاجعني منذ ساعة أو دون الساعة.. وفي الصباح أتأمل بقعة من سوائل ذكورته فلتت من عالمه الذي يظنه سريًا على غطاء السرير .. وقبل الفجر يهرع إلى الحمام .. ليس فقط ليتطهر بل ويغسل سرواله .. وحين واجهته مرة:

هو أنا مش مراتك ولا إيه يا هشام..!

ـ مالك .. فيه حاجة يازينب ..؟

ـ شايفاك بتغسل هدومك .. أمال أنا بأعمل إيه!

وفي اضطراب صبي:

ـ لأ .. أصل .. أصل ساعات ببقى موسوس من أن تكون نقطة بول نزلت فتحوطًا أغسل اللباس .. دا مش بياخد مني حاجة .. دقيقتين على الحوض ..!!

ألا يبدو الوضع غريبًا ..؟ فراش يضمني .. زينب الحناوي .. القطفة الأولى لمحصول الجمال في هذا العالم " أليس هذا وصفك لي؟!" وهشام متولي .. الفحل الذي تكفي زفرته لإزالة عذرية نساء مدينة بأكملها .. ومع ذلك كلانا يتقلب على أسنة الحرمان ..!

هشام غيري .. كائن من خلية واحدة تمت تعبئتها من الصفر بالموروث .. متسق مع ذاته .. حتى في مضاجعته لحمارة الشيخ وابنته.. تناقض لا يتوقف أمامه كثيرًا .. مضاجعته للحمارة فعل تهتز له السموات السبع .. لكنه شائع في القرية .. في كل ريف العالم.. وهذا ما يقوله عالم اجتماع لايحضرني الآن اسمه .. ٤٥٪ من ذكور الريف يضاجعون البهائم .. فعل يثير السخرية إن اكتشف أمر الفاعل .. لكنه لا أظن يستوجب النبذ أو

الطرد كالسرقة مثلاً.. كان خالي مثل أبي يوقظ كل أفراد أسرته فجرًا ليصلوا .. تشبث هشام أكثر بتلك العادة بعد تأسيسه جمعية أحباء الرسول السنية.. ويبدو منزعجًا إن خذلته ولم أستيقظ مثله .. كان هشام مثل أبيه وزوج عمته شهمًا محبًا للخير .. وكريمًا .. كان سعيدًا أن يثمن أهل القرية سجاياه تلك .. وكنت أتطلع إليه بانبهار .. في إحدى العصاري الخريفية فوجئنا بصراخ ينطلق من قهوة أحمد الصعيدي غير البعيدة عن منزلنا .. وهشام يندفع بجسده الهائل داخل المنزل شاقًا طريقه في جوف الدوار ليسحب عرقًا خشبيًا يتدلى من سقف الفرن ويعاود الانطلاق نحو الشارع .. هرعنا خلفه في فزع وأمي تلاحقه بشتائمها لتثنيه عن الخروج دون جدوى .. صعدنا إلى سطح المنزل لنتابع ما يجري .. لنفاجأ بهشام وعدلي الذي كان ممسكًا بمقعد محاطين بستة من شباب عائلة الطحش مسلحين بالعصي .. كان هشام يلوح بالعرق الخشبي الهائل في الفضاء لينهال على كتف هذا وذراع ذاك.. وعدلي يكتفي بتلقي الضربات الموجهة إليه بالمقعد .. لم تمض سوى دقائق حتى تبعثر الحصار وسقط اثنان من عائلة الطحش أرضًا.. وتقهقر الآخرون ليلاحقهم هشام .. لكن ثقل جسمه لم يمكنه من اللحاق بهم إلا واحد تعثر فسقط أرضًا وهم هشام بأن يهوى بالعرق الخشبي فوق ظهره .. لكنه تراجع ..!! حين انفضت المشاجرة .. هبطنا لاستقبالهما وأمي تولول خوفًا من أن يكون أحدهما قد أصابه شيئًا.. عدلي كان ممسكًا بذراعه .. ورغم أنه حاول أن يهون من الأمر .. إلا أن الضربة التي تلقاها بدت موجعة .. حتى أنه لم يكن يقوى على رفع يده لتصل إلى الوجه .. لتنفجر أمي في وجهه في غضب:

ـ واحنا مالنا ومال الخناقات!

فرد عدلي محتجًا:

ـ يعني أسيبهم يضربوا الراجل الغلبان وأقف أتفرج ..!

والمستهدف كان عم مسعود جارنا .. تشاجر ابنه شوقي في جرن عائلة

الحلايبة مع أحد أبناء الطحش صباح ذاك اليوم حين كانا برفقة أولاد آخرين يلعبون الكرة .. انتقل خبر المشاجرة إلى عائلة الطحش بشكل محرف كما هي عادة كل أخبار البلدة .. قيل لهم أن شوقي شتم الطفل واصفًا أباه بأنه حرامي بهائم .. فاحتشدوا وهاجموا عم مسعود في المقهى وحين حاول عدلي أن يتدخل ضربوه أيضًا .. رأى هشام ما يحدث وهو عائد من صلاة العشاء بمسجد المعصراوي .. فهرع إلى دارنا ليتسلح بشمروخه الذي يخبئه خلف الفرن .. ويبدو أنه لم يجده فسحب العرق الخشبي .. ولم يأبه بغضب أمي .. حيث سأل متبرمًا :

ـ أنت وديتي الشمروخ فين ياعمتي؟؟

ـ رميته في الترعة يا روح عمتك .. واللا أسيبه لغاية ماتقتلك قتيل .. وتودي نفسك في داهية .. مش بكفاية إللي حصل لمحمد الغنام ..!

كان اسمه يثير في النفوس الهلع .. لا يسير إلا وبندقيته أم روحين تتدلى من كتفه .. الكبار يستأجرونه لتصفية الحسابات بينهم .. يضع السُم لبهائم هذا .. أو يغرق أرز ذاك .. أو يشعل النار في أجران القمح لحسابه هو .. إن تأخر بعض كبار المزارعين عن دفع الأتاوة التي يفرضها عليهم .. قبض عليه أكثر من مرة .. ودائمًا يفرج عنه .. فلا أحد لديه الجرأة على الشهادة ضده .. حين يكون الحديث عنه في بيتنا أشعر بوجه هشام ينقبض .. الآن استطيع تفسير ما كان يجري في دواخله .. توحش محمد الغنام إهانة له .. هشام الشهم .. نصير الغلابة.. ومرة زعق في أمي:

ـ الناس تستاهل .. ما حدش قال له لأ مش دافع وراح بلغ فيه المركز .. مركز إيه يابن أخويا ..! مين إللي مستغني عن روحه علشان يبلغ عنه .. الغنام بندقيته ما بتفارقوش وقلبه ميت ..

غادر هشام المنزل مأزومًا .. كأنه وزير داخلية يستهزيء به مجرم خطير .. كأن مروءته وشهامته وقوته في امتحان عصيب .. وإزدادت عصبيته حين تناقلت القرية الصفعة القوية التي تلقاها الحاج بدير

الفضالـي مـن الغنام أوقعته من على حماره .. كان الفضالي قد تآخر في دفع الأتاوة الشهرية عدة أيام .. وتطاير في الحقول والأزقة والمقاهي ما حدث في ذلك اليوم .. توجه هشام إلى مقهى سعد الأفيونجي الذي يسهر فيه الغنام .. .. وقف أمامه وصاح:

ـ اسمع ياغنام .. مفيش فلوس من الحاج بدير ولو قربت منه بعد النهاردة هخليك جرسة في البلد كلها ..!

ابتسم الغنام في هدوء وأخرج رزمة جنيهات وأخذ يحصيها .. كان تفسير أهـل البلد لابتسـامة الغنـام أن رزمة النقـود التي أخرجها مـن جيبه كانت الأتـاوة الشـهرية التـي تلقاها من أمي حتـى لايعتدي على أحد مـن بناتها أو يتعرض للطاحونة بضرر .. داهمنا همس الحقيقة التي وارتها عنا آمنا صفعة أشـد إيلامًـا من تلك التي تلقاهـا الحاج بدير.. وحيـن واجهناها وكان معنا هشام صفعتنا وهي تنهنه:

ـ خايفـة عليكـم .. دا راجل شـراني ما بيخافش من ربنـا .. وبعدين مين في البلد ما بيدفعش له ..!! أبوكم الله يرحمه كان بيدفع.. وخالكم كمان ..

كأن عيني هشـام حين سـمع ذلك تحولتا إلى ترسـانة أسـلحة نووية في حالـة تأهـب قصـوى .. انتفـض متجهًا إلـى الدوار ليشـق طريقه إلـى قراره المجهول وشـمروخه فـي قبضته .. صعدنا إلى السـطوح .. آنا في حلم يقظة .. تهليـل القريـة لموت الغنام على أيـدي ابن خالي .. وأمـي بهواجس الأخبار القاتمة التي سـتداهمنا بأن الغنام قتل هشـام .. .. بدت البلدة في هذا النهار الصيفـي القائـظ مكفنة في هدوء مخيف .. إلى أن انتفضت الشـوارع التي تتدلى من منطقة المقابر حيث يتوارى مقهى سـعد الأفيونجي بزعيق .. ليس تهليـلاً .. هـل خاب حلم يقظتـي وصدقت هواجس أمي ..! لكن سـرعان ما انجلت الأصوات..

ـ الغنام إتقتل يا بلد .. قتله هشام الغازولي!

جسدي ينتفض .. مم؟ لا أدري .. الخوف ..! هشام ابن خالتي قاتل!.. لكن سرعان ما انتابتني رغبة في آن أزغرد .. خوفي من أمي ألجم لساني .. من يدلني على عنوان إذاعة الشعب التي كنا نجلس بجوارها السابعة مساء في حوش الدار ومعنا هشام نترقب سيرة عنترة ابن شداد .. لأكاتبهم .. أود أن أقول لهم إن عنترة لم يمت .. إنه يعيش في قرية المعصرة دقهلية ويتخفى في اسم هشام .

لكن أمي تصرخ:

ـ يا داهية سودة .. وديت نفسك في داهية يا هشام يا ابن متولي علشان راجل مايستهلش!

تهبط سريعًا لترتدي طرحتها وتلقي بجسدها النحيل في قرار الشارع فتصطدم بعدلي الذي كان يركض وخالي وزوجة خالي .. وغيرهم .. كثيرون يركضون في اتجاه قهوة سعد الأفيونجي ..

نربض وأختي فاطمة خلف النافذة .. نتلقف الأخبار من اللاهثين في الشوارع .. خالي وعدلي اصطحبا هشام إلى دوار العمدة .. أرسل العمدة خفراءه ليحضروا الأفيونجي وبعض مرتادي القهوة .. وانفرد بهم وهشام في المندرة الرئيسية فترة قبل أن يهاتف مركز شرطة بلقاس .. قوة من المركز جاءت وألقت القبض على هشام .. سر لنا خالي بما عزم عليه العمدة .. ما حدث كان دفاعًا عن النفس بشهادة الأفيونجي وأكثر من خمسة أشخاص تواجدوا في القهوة في ذلك الوقت .. كان هشام مارًا أمام القهوة فإذا بالغنام يناديه:

ـ واد يا هشام .. قول لأمك لو ما بعتتش المعلوم الليلة .. هتلاقي الطاحونة الصبح كومة تراب ..

فرد هشام عليه:

ـ معلوم إيه يا عم محمد؟

فرد الغنام باستهزاء:

ـ إللي بيني وبين أمك أسرار ما لكش صالح بها .. ما عليك غير تبليغ الرسالة .

فرد هشام ..

ـ إذا كنت تقصد فلوس مفيش وإللي تقدر عليه اعمله ..

نهض الغنام وصفع هشام على وجهه فدفعه هشام بعيدًا ليرتطم بجدار حائط المقهى ليخلع الغنام بندقيته محاولاً تصويبها نحو هشام فمد هشام يده منتزعًا شومة كانت في قبضة سعيد السحرتي الذي كان متواجدًا في المقهى في ذلك الوقت لينهال بها على رأس الغنام.. تفاعلت القرية مع الرواية التي اختلقها العمدة وباركها ضابط المباحث بالمركز .. كان الجميع يدرك أن هذا الذي قيل في المركز والنيابة والمحكمة ليست الحقيقة .. لكنهم توحدوا مع أكاذيب العمدة التي رددها الشهود تعاطفًا مع هشام الذي خلصهم من الغنام .. لينتهي الحادث بأنه حالة دفاع عن النفس .. ويفرج عن ابن خالي ليعود إلى القرية في موكب إمتد ثلاثة كيلومترات من السيارات والجرارات الزراعية .. وكان في استقباله العمدة حيث احتضنه محييًا :

ـ أهلا ببطل المعصرة ..

وكانت أيام مجدي في المدرسة .. فالجميع من مدرسين ومدرسات وطلابا وطالبات يعرفون أن البطل الذي قهر الغنام ابن خالي ..

لم يمت الغنام .. لكنه قضي سنواته الأخيرة ملازمًا بيته بعدما أصيب بشلل نصفي بسبب الضربات التي تلقاها على رأسه وظهره من هشام بشمروخه المخيف ..

ألهذا ارتضيت به زوجًا ..! درعًا يحمي الأنثى الواهنة داخلي ..؟! تقلص ترددي بقبول هشام زوجًا في ذلك الضحى الشتوي الذي قامت فيه القيامة بمدرج كلية الآداب جامعة المنصورة .. يومها ألح هشام على أن يرافقني

إلى الجامعة .. كان لدي محاضرة في الشعر الجاهلي .. كان هشام يظن أن الشعر الجاهلي فقط هو عنترة المتيم به ومعلقته وفروسيته.. جلسنا في نهاية المدرج .. تأخر الدكتور وبدا أنه لن يأتي .. بدأ هشام يحدثني عن عمله الجديد في المديرية العامة للزراعة ومحبة الفلاحين له .. هذا ما كان يعني هشام دائمًا .. أن يمثل قيمة في أعين الناس حتى لو اقتضى ذلك أن يقدم مرتبه والدعم الشهري الذي يقدمه أبوه له قروضًا كان يعرف أن أكثرها لن يرد .. لكن ما كان يعنيه أن يقرأ هذا في عيون الناس ..

ـ شهم وكريم وصاحب مروءة ..

بل.. لا تكفي لغة العيون .. عليهم أن يفصحوا .. وكانوا يفصحون .. وكان هذا اكسير الحياة له .. وكنت أعرف شيفرة سعادته فأسأله عن الحرب التي خاضها ضد شباب عائلة الطحش لماذا كان يوجه ضربات الخشبة الهائلة التي انتزعها من سقف الفرن إلى الأجناب والأرجل .. فيرد ضاحكًا:

ـ مش بكفاية مصيبة محمد الغنام .. الراجل انشل وكان ممكن يموت ..

فيضحك وأضحك سعيدة بضحكه وأسأل:

ـ هو صحيح كان دفاع عن النفس ..؟

ـ نفس إيه يا بنت عمتي ..! الراجل يا ولداه اتفاجيء بي واقف قدامه.. ساددد عنه حتى نسمة الهوا إللي هيتنفسها .. والله وهو بيخلع البندقية عشان يضربني حسيت إن إيديه بترتعش .. وأول هبدة شمروخ على دماغه لاقيته وقع ماحطش منطق .. ما سبتوش.. الغنام كان وهم .. يخوف ولية غلبانة .. راجل في حاله ..!

ولم أشأ أن أصدمه في بطله عنترة بن شداد أنه بنى أسطورته هكذا كما بناها الغنام .. كان يضرب الضعيف فيرتعب الأقوياء ليصبح الإجهاز عليهم سهلاً .. هذا ما قاله عنترة نفسه .. فضلت ألا أكاشف هشام لأنه

سيصيح محتجًا : هتقارني الغنام بعنترة ..؟! فارس بني عبس ماكانش يهمه قوي أو ضعيف!

كانت علاقة هشام بعنترة بنيت على المسلسل الإذاعي الذي كانت تبثه إذاعة الشعب في السابعة مساء كل يوم .. وقبلها بنصف ساعة على الأقل نلتف حول راكية النارالتي يغذيها هشام أو عدلي بالقلاويح لتبث في أوصالنا الدفء .. وبجوارنا المذياع الخشبي الكبير يعتلي بروزًا خشبيًا مثبتًا في أحد طرفيه بالحائط ويتكيء عند الطرف الثاني على قائمين خشبيين مغروسين في الأرض الأسمنتية وتوضع بينهما بطارية المذياع التي يحملها هشام أمامه على ظهر الحمارة ليشحنها كل اسبوعين ..! ولم يفكر هشام بالطبع أن يتعمق أكثر مثلاً في معرفة الدلالات الاجتماعية والسياسية لعشق عنترة العبد لابنة عمه عبلة الحرة .. سليلة الحسب والنسب .. ولم أشأ أن أشرح له أن الجهر برغبته في الزواج من عبلة كان الرصاصة الأولى في الحرب ضد العبودية .. وأن يتساوى البشر بغض النظر عن اللون أو المرتبة الاجتماعية .. لم أشأ أن أقول له هذا .. لأن ما يعنيه في قصة عنترة .. ليس مغزى حبه لعبلة .. بل أنه صرع الأسود والفرسان..

واكتفيت بالضحك تعاطفًا مع قهقته وهو يروي موقعة الغنام .. إلا أن ضحكنا على ما يبدو لم يرق البعض حيث فوجئت بشاب ينهال علي ضربًا بشومة قصيرة وآخرون يحيطون بهشام الذي ما عبأ بضرباتهم .. بل كان رد فعله اللاإرادي أن جذبني إلى صدره بيده اليسرى .. رافعًا يمناه ليستقبل ضرباتهم الموجهة لي .. مرق المشهد سريعًا أمام أعيننا الذاهلة قبل أن يختفوا عن الأعين ليهمس بعض الطلبة في خوف..

ـ دول من الجماعة الإسلامية .. بيعملوا كده مع أي ولد وبنت بيشفوهم قاعدين مع بعض.

لم يكن هشام يرى فيما يفعلونه دينًا أو سياسة .. بل غنامًا بعث من جديد .. وكان يردد كلما تطرق الحديث إلى تلك الجماعات:

ـ شـايفة يا زينب .. حتى التبرعات بيجمعوها زي ما كان الغنام بيحصل الأتاوات .. إللي ما يدفعش ليلته سوده ..!!

لكـن أحاديـث هشـام عنهم لـم تعبـر كثيرًا عمـا بداخله من إحسـاس بالانكسـار .. مثلـه .. عنترة بن شـداد يتعرض للضـرب وخطيبته وفي مدرج الكلية أمام مئات الطلاب .. كان يشـعر بأن كبرياءه لن يعاود شـموخه إلا بالانتقام .. كيف..؟ إنهم ليسوا محمد الغنام أو أولاد الطحش .. بل تنظيمات أرهقـت الدولـة وقتلت رئيسـها يـوم ٦ أكتوبـر.. ذكرى عرسـه التاريخي .. وكنت أظن أن الزواج كفيل بأن يدفع به في ميدان آخر .. أنا والأولاد الذين سـيأتون وضغـوط الحياة .. لكنني فوجئت به يتبـدل .. أطلق لحيته .. وقصر جلابيبه التي يرتديها في البيت وخلال وجوده في القرية.. .. ويطيل مكوثه في المسـجد خاصة بعد صلاة العشاء .. هذا الذي يطلقون عليه مسجد السنيين .. وأظـن أن البدايـة كانت من هناك .. وجدوا فيه ما ينقصهم: القوة والثراء! جميعهـم فقراء وبلا أنياب! ضم هشـام إليهم سـيزيدهم مكانة وقوة وقبولاً فـي القريـة .. وأظنهم كانوا يعزفون على وتر المروءة والشـهامة في داخله .. بل أنني سمعت بعد ذلك أحدهم وهو يقول له حين كانوا مجتمعين في غرفة الاستقبال في منزلنا أن انضمامه للجماعة يشبه دخول عثمان بن عفان وعمر بن الخطاب للإسلام .. الأول أثرى الدعوة للدين الجديد بماله والثاني رفع من شـأن المسـلمين بقوته.. لذا لم يكن غريبًا أن يصبح هشام بعد ذلك خطيب مسجدالسنيين.. وما كان مجرد مسجد يصلي فيه هو وأصدقاؤه .. بل مقرًا فعليًا لجمعيتهم المعروفة باسم جمعية أحباء الرسول ..

سألته في توجس:

ـ مش دي الجمعية السنية إللي فروعها منتشرة في كل مصر..؟

أجاب في شيء من الرضا:

ـ وأنـا وأعـوذ باللـه من كلمة أنـا .. رئيس فـرع المعصـرة .. رئيس فرع المحافظة وبتزكية من رئيس فرع المركز أبلغني بالقرار النهاردة .

ـ بس دول متطرفين!

ـ متطرفين إيه يا دكتورة! احنا لا بتوع ضرب ولا اغتيالات ولا سياسة .. هدف الجمعية حث الناس على العودة لسنة الحبيب المصطفى ..

.. ومن من المسلمين يأبى أن يتمسك بسنة الحبيب المصطفى!! لكن بأي عين ينظر هشام ورفاقه إلى سنة الحبيب المصطفى ..! وكثيرة هي الأحداث التي انبثقت من رحم عالم هشام وجماعته والتي تؤكد أن قلقي كان مبررًا ..

في إحدى الأمسيات وجدني منهمكة وبتأثر شديد في مشاهدة فيلم .. كان فيلم بين الأطلال .. ودون أن يلتفت إلى الشاشة مد يده ليغلق التلفاز وهو يتمتم:

ـ هذا يلهيك عن ذكر الله ..

كظمت غيظي واكتفيت بملاحقته بنظرة دهشى .. ثم توجهت إلى فراشي محاولة أن أستسلم للنوم .. لكن مشاهد الفيلم ظلت تتراقص أمام عيني إلى ما بعد الفجر حين هز كتفي لأستيقظ ليكسب ثواب حثي على صلاة الفج .. لكنه بعد أقل من أسبوع كرر ذات الشيء ..

كنت أتابع الاجتياح الإسرائيلي لمدينة جنين .. فأمسك بالريموت وأغلق التلفاز ..

صحت في انفعال:

ـ إيه إللي إنت بتعمله دا ياهشام؟!

.. فقال بهدوء وهو يجلس قبالتي:

ـ مش أفضل إنك تقومي تقرأي شوية قرآن ..

ـ عارف أنا كنت باتفرج على أيه ..!! المذابح إللي بيرتكبها الإسرائيليين في فلسطين .. ولا دي كمان حرام؟

ـ عاوزاني أجاوبك بصراحة .. أيوه التليفزيون حرام ..

رمقته في صمت للحظات .. كنت أتدبر الأمر في سريرتي .. وانتهيت أنه من الأفضل أن أدير معه حوارًا عاقلاً وبهدوء ..

ـ شوف يا شيخ هشام .. زمان لما الإسرائيليين ارتكبوا مذبحة دير ياسين ماحدش من العالم حس بحاجة .. ماكانش فيه تليفزيون وأقمار صناعية .. دلوقتي الأمور اختلفت .. في أوروبا جماعات كتيرة بيعملوا مظاهرات ضد إسرائيل بسبب مذابحها ضد الفلسطينيين واللي بيشوفوها في التليفزيون .. يبقى إزاي هو حرام!

ـ زي الخمر ممكن يبقى بعضها مفيد.. لكن كثيرها مضر تبقى حرام.

ـ ما هو الكتير من كل حاجة مضر .. يعني لو أنا شربت عشرين إزازة ميه ممكن أموت .. يبقى نحرم الميه ..!! وبعدين التليفزيون زي الفلوس ممكن الراجل يصرفها على واحدة ست مش مراته علشان عاوز منها حاجة يبقى حرام عليه .. وممكن يصرفها في بناء المدارس والمساجد والصدقات يبقى بيستخدمها في الحلال ..

ـ الكلية وأساتذتها العلمانيين الكفرة هيفسدوا دينك .. ما هي الجماعات بتاعة أوروبا اللي إنت بتتكلمي عليها دلوقتي شوية شيوعيين ملاحدة .. ومش بيتظاهروا حبًا في المسلمين .. إنما كراهية في إسرائيل وعدوتهم أمريكا ..

واستطرد وهو ينهض متوجهًا إلى الحمام:

ـ ربنا يهديك يا دكتورة ..!!

لكنه فاجأني خلال اجتماعه برفاق الجمعية بمنزلنا بهشام آخر.. أحدهم كان يقترح أن تبدأ الجماعة حملة في مدن وقرى المركز لحث الناس على مقاطعة التليفزيون .. وفوجئت بهشام يواجههم: التليفزيون مثل الجنيه هو في حد ذاته لا حلال ولا حرام .. ممكن ندفعه رشوة فنرتكب حرمة وممكن نحطه في جيب واحد غلبان فنأتي خيرًا يجازينا الله عليه .. المشكلة مش

فـي التليفزيون .. المشـكلة في إللي بيتقدم فـي التليفزيون .. ما يغضب الله يمكن أن نتجنبه .. وما يصب في خدمة الدين نشاهده .. " وحين قال أحدهم أنه درءا للشـبهات ينبغي تحريم التليفزيون .. نفس ما قاله هشـام لي من قبل رد زوجي بنفس ما قلته له:

ـ يا أخي مذبحة دير ياسـين وكفر قاسـم ومذابح إليهود في فلسـطين ما حدش سـمع عنها فـي العالم .. ولهذا صدق النـاس أكاذيب إليهود .. الآن الفضائيات تنقل كل شـيء وعلى الهـواء .. لهذا يتعاطف الرأي العام العالمي مع قضايانا في كل مكان..

وحـاول الشـيخ صالح نائب هشـام والذي علـى ما يبدو يتطلع إلى رئاسـة الجمعية تأليب الأعضاء ضده:

ـ ألا تلاحظون .. الشـيخ هشام أصبح يستخدم لغة العلمانيين الكفرة .. الـرأي العام العالمي!.. وإيه إللي عمله الرأي العام العالمي لإخواننا في العراق وفلسطين وأفغانستان ..؟

إلا أن عضوًا آخر نبههم إلى ما يغيب عنهم:

ـ لو حرمنا التليفزيون لأغضب هذا الجماعة في شربين ..

ـ دي أمور لا تشغل بال الجماعة في شربين .. التليفزيون والنقاب والأغاني .. المهم ما نذكرش النظام بشر..!

ويحاول الشيخ صالح إرهابهم:

ـ وكيف نفتي ولمشـايخنا الأجلاء أحـكام في كل هذه الأمور..؟ وما يعنيه بشيوخهم الأجلاء الألباني ومحمد بن عثيمين وابن باز.. وما يفتي به هؤلاء لا يخضع للنقاش ..

كـم أشـفق على هـذا الصبي .. يحـاول أن يبـدو أمامي شـيخًا واثقًا من فتاويه .. لكن ها أنا أنجح في اقتحام تلافيف رأسـه لأصارع هذيانهم الذي يرضي به.. ربما فقط للاحتفاظ بمقعد الرئاسة ..

هل يروقني هذا..! كان يروقني أكثر أن تكون شخصية زوجي هشام الغزولي على نفس القدر من عنفوان بدنه .. وتخصب دائمًا بفكر آخر غير هذا الفكرالأسود الذي يشق طريقه دائمًا إلى الذاكرة دون أن يمر على معامل التحليل والتمحيص والتأمل في الرأس .. وكثيرًا ما حاولت أن ألقي في طريقه بكتب الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والغزالي وجاد الحق وكل علمائنا الذين رأوا الإسلام "صح" لكنه كان يعزف عنهم .. ربما لشعوره بأن مثله.. رئيس فرع جمعية أحباء الرسول في المعصرة يخون الجمعية وبالتالي الإسلام ذاته إن أنصت إلى ما يقوله هؤلاء الذين تآمروا على الدين الحنيف ..! هذا ما قاله لي مرة حين حدثته عن دعوة الشيخ محمد عبده إلى تنقيح السنة النبوية الشريفة مما لحق بها من شذوذ الأراء ..! لكن هل مجابهتي له تنبع من داخل مسلمة مستنيرة حقًا ..؟ أم أنها وساوسي السرية التي تطول وجود الإله ذاته ..؟ تلك الوساوس التي يستعصي علي أن أواجه بها زوجي .. فأتحايل بمناقشته من خلال ما نقول وربما نزعم أنها الرؤى الدينية المستنيرة!! ..

وما كان يحيرني غيابه نهار الاثنين من كل أسبوع .. لم يكن يذهب إلى العمل .. اتصلوا به مرة ليسألوه عن دفتر فقد .. ماذا يمكن أن تفكر الأنثى حيال أمر مثل هذا ..؟ أن لديه زوجة أخرى هناك ..؟!..

سألته حين عاد من غيبته الغامضة :

ـ الشغل اتصل بك يا هشام وبيسأل عن دفتر ضايع .. هو إنت مارحتش النهاردة ..؟!

لكنني وجدت أنه من الأفضل أن أكون أكثر وضوحًا : قل لي يا هشام .. إنت بتروح فين كل يوم اتنين ..!!

تطلع إلي بنظرة ضيق لا تخلو من الحيرة .. أظنه كان يفكر في إجابة على هذا السؤال: هل من الإسلام أن يصارح الرجل إمرأته بكل أموره ..؟ يبدو أنه لم ينته إلى إجابة أو انتهى إلى أنني ناقصة عقل ودين ليس من

الحكمة أن أعرف ما يخفيه..

لكنني عرفت .. مكالمة من مجهول:

ـ الشيخ هشام موجود؟

ـ لأ.. مين عاوزه .؟

ـ أخوان له في الإسلام .. وقوليله الأخوة في الدين يحافظوا على بعض .. مش يشتغلوا جواسيس لحساب حكومة كافرة .. باختصار .. قوليله بلاش مشوار الاتنين ..

أفزعتني المكالمة .. ترقبت وصوله بأضلع يمزقها القلق .. وحين جاء وقبل أن يتوجه إلى غرفة النوم لاحقته ..

ـ مين دول إللي بيتهموك بالتجسس عليهم ..؟ رمقني في قلق .. لكنه قلق المتعطش لإجابة عن أسئلة بداخله .. لاقلق رجل محاصر بأسئلة زوجته .. أخبرته بأمر المكالمة .. فألقى ببدنه على الفراش منهمكة أناملة في العبث بلحيته ولم يجب.. لكنني اقتربت من الحقيقة خطوة حين أخبرتني زميلة في الجامعة أن قوة من أمن الدولة بشربين داهمت منزل عمها لتلقي القبض على ابنه .. أمير الجماعة الإسلامية في قرية السماحية.. هل يعمل هشام جاسوسًا لمباحث أمن الدولة في شربين..؟ هل ألقى عنترة بسيفه جانبًا حين عجز عن الانتقام من أعدائه ولجأ إلى كتابة التقارير ضدهم ..؟ وكان كلما ورد اسم شربين على لسان رفاقه حين يجتمعون في منزلنا كنت أظن أنهم يقصدون فرع الجمعية في تلك المدينة.. يا لسذاجتي .. وما كان لسريرتي أن تهدأ قبل أن أعرف ماذا يخفي زوجي عني .. وعرفت .. مكالمة تلقاها .. ودفعني فضولي إلى أن أتنصت على مايقال من عدة غرفة النوم ..

ـ الجماعة واضح إنهم مش ناويين يجيبوها البر .. بكرة في صلاة الجمعة هيدخلوا البلد في موكب كبير .. إنت عارف طريقتهم .. هم بيقصدوا بكده إن يكون المشهد مهيب علشان يؤثروا في أهل البلد

.. استعراض عضلات .. عاوزين يخوفوا الكبار.. العمدة ورجالته وشيخ البلد والأعيان إللي هياخدوا منهم فلوس تبرعات .. والإبهار .. إبهار الأولاد الصغيرين في الإعدادية والثانوية والجامعة علشان ينضموا لهم .. هدفهم السيطرة على الجامع الكبير .. هينزلوا الخطيب من على المنبر وواحد منهم.. أمير الجماعة في البلد إللي اختاروه يصعد في حمايتهم ويلقي الخطبة .. المسألة دي بيعملوها في جوامع كتيرة وبتنجح .. مش عاوزينها تنجح في المعصرة .. هيبقي شكلكم وحش قوي لو حققوا غرضهم .. فاهمني يا شيخ هشام!

ـ على جثتي يا رأفت بيه ..!

لم تكن تلك لغة الشيخ هشام قائد جمعية أحباء الرسول .. والتي يحرص عليها على الأقل أمام أعضاء جماعته .. بل لغة فتوة المعصرة الذي يتحين لحظة الانتقام من هؤلاء الذين بعثروا كبرياء الرجل حين أوسعوه وابنة عمته ضربًا في مدرج كلية الآداب .. وما كنت في حاجة إلى كثير من الذكاء لأعرف أن الذي هاتفه ضابط من أمن الدولة بمدينة شربين .. الذين يخوضون ما يشبه معركة بقاء مع جماعة الأخوان المسلمين وجماعات أخرى متطرفة تتناثر بؤرها في مساجد ومدارس المحافظة والجامعة.. ..

ياه ..ما أشد تحولك يا هشام..!!مثلك .. لا أشعر بأي تعاطف مع الجماعات أو الإخوان المسلمين .. أنت تكن الكراهية لهم بعد علقة مدرج كلية الآداب .. وأنا.. لأني أراهم يجذبون مصر من حواف القرن العشرين ليثبتوها بحراب العنف في مركز أشد السنوات العثمانية حلكة .. لكن أن تكون تلك هي الوسيلة لمجابهتهم ..!

واجهته:

ـ أيه إللي إنت بتعملوا ده..؟ مرشد للحكومة يا هشام ..؟

ـ إخرسي

لم يكن قرارًا .. بل تأديبًا .. صفعة هائلة على وجهي .. ألقت بي خارج

الحيـاة .. كـم من الوقـت .. لا أدري .. أنتبه .. زهرة زوجـة عدلي تضع قطعة مـن الثلج علـى وجهي .. ببطء شـديد تعاودنـي أحداث اللحظـات الأخيرة .. لتشرخني بعنف ..

يطل شـبحه الضئيل من باب الغرفة .. تتسـحب زوجة أخيه وهي تدعو لنا بالهداية ..

لا أقوى على النظر نحوه .. يكابد ليتكلم .. أعرفه طفلاً في مواقف مثل تلـك .. تفـر كل القواميـس من بين شـفتيه . هل يعتـذر ..؟ لا أظن .. وهل ما لديهم من الأثر يوجب الزوج أن يعتذر لزوجته إن أخطأ في حقها ..؟ ..

ـ إسـمعي يا زينب .. إنت اشـترطت علشـان نتجوز إني أسـيبك تكملي تعليمـك .. مـش الليسـانس بـس .. الماجسـتير وكمان الدكتـوراه.. وافقـت.. وتشـتغلي .. وبرضـه وافقـت رغـم إن ده بيسـبب لـي حرج مع الجماعة .. إنت برضه سيبيللي جزء من الحرية في حياتي الخاصة ..

عيناي مثبتتان نحو اللاشيء في سقف الغرفة .. ربما أبحث عن مستقبلي .. حـاول أن يتكلـم أكثر .. ذكرني بعلقة الجامعـة .. لم يتحرك جفن لي .. انسحب.. وما أظنه عاد أو عاد ولم أنتبه .!!

لازمت غرفتي .. لكنني كنت أشـعر بهذا الذي يجري خارجها .. كلما رن جـرس البوابـة الخارجية اختلس النظر إلى الطارق .. شـباب من القرية ، ومن خارجها .. بعضهم يقودهم هشام إلى أطراف الحديقة الخلفية بعيدًا عن أي عيون فضولية ترمقهم من سطوح ومنازل الجيران.. بينما آخرون يكتفي بالحديـث معهـم بضع دقائـق أمام البوابـة . وينصرفون.. فـي منتصف الليل جاء.. حاول أن يبدو طبيعيًا ..

ـ السلام عليكم

لكنني لم أساعده ..

ـ عاملة أيه دلوقتي ..؟

أشيح بوجهي .. تطلع إلي في صمت عاجز لبضع لحظات ثم غادر..

لم أشعر بالبوابة الخارجية تفتح فجرًا .. لم يتوجه إلى مسجد السنيين ليصلي .. أظن أن هذا كان مخططًا .. أن يعبئوا جهودهم لمعركة صلاة الجمعة .. قبل أن يغادر عرج علي ليتكرر المشهد :

ـ مش عاوزة حاجة من بره ..!

لم أرد .. لكنني تابعت بقلق خطاه وعدلي وآخرين من العائلة وغير العائلة من خلف الستارة وهم يغادرون .. هذه أول مواجهة له مع الجماعات بعد علقة المنصورة .. هل يشعر بالخوف ..؟ يحاول أن يبتسم .. لكن عينايا تلتقطان خلسة تقاسيم وجه آخر غير وجه هشام الذي أعرفه .. لا أظنه الخوف .. هشام لا يعرف الخوف .. بل القلق .. ربما من أن يخسر معركة يرى فيها فرصته لاستعادة هيبته أمام نفسه وزوجته .. مثل هشام .. أخدود من المذلة ينشق بداخله إن أهين أمام امرأة ويتسع الأخدود إن أهينت المرأة وما قدر أن يحميها .. ويصبح الأخدود محيطًا يهدر بأمواج المذلة حين تكون تلك المرأة زوجته وابنة عمته .. عرضه وشرفه ولحمه ودمه .. إنها معركة كبرياء هشام وليس صراعًا دينيًا كما يظن الناس .. زمان في مناسبة مثل تلك نصعد إلى السطوح .. كانت السطوح المقصورة التي نشاهد منها الأحداث .. وما كانت مثل الآن .. سقف كانت من الخشب والغاب تعلوه أكوام من الخشب في الغالب .. وأحيانا الحطب .. وقود الخبيز.. هدم هشام وعدلي البيت وأعادا تشييده بالحديد المسلح وألغيّا الدوار القديم وأقاما في الخلف حديقة فسيحة .. وأوكلا مهمة تربية المواشي إلى شركائهما من المزارعين في بيوتهم الطينية .. وما عاد أحد في حاجة إلى القش والحطب .. حيث اختفت الأفران القديمة .. ومثل سكان البندر.. الجميع .. حتى الفلاحون يشترون الخبز من الفرن الآلي الذي أنشأته عائلة أولاد جاد الله منذ عدة سنوات ..

تجذبني أصوات تهليل وزعيق سيارات تتصاعد بقوة .. أهرع إلى النافذة ..

الأصوات تتدفق من السكة الزراعية ..

يخفق قلبي خوفًا .. ما زالت الوساوس القديمة تترسب داخلي .. إن مات هشام .. من سيحميني؟! .. حتى لو كان على باطل!! حتى لو كنت.. لو كنت أكرهه ..؟؟ أهذا أنا.. زينب المعيدة بكلية الآداب والطالبة بالماجستير هي التي تقول هذا .. تمامًا .. مثلما كانت أمي تقول؟ أمي ما زالت بداخلي .. بل كل جداتي .. ربما ينفرن على الأسرة من رجالهن .. لكن موت الرجل موت لها ..! وما الفرق بيننا وهؤلاء النسوة من الهنديات في الأزمنة البعيدة .. إن مات الزوج تساق الزوجة إلى المحرقة طوعًا أو كرهًا .. فلا حياة لإمرأة بعد انقضاء حياة رجلها!

أهرع إلى السطوح .. كان محتشدًا بنسوة العائلة والجيران .. كل السطوح كانت تحتشد بالنساء والأطفال الذين منعهم أهاليهم من التوجه إلى المسجد خوفًا عليهم .. ننتبه .. هتافات تدنو من ناحية بلقاس .. حشود من الجلاليب البيضاء القصيرة بالكاد تتجاوز الركب وعمائم تتدلى منها الذوائب حتى الأكتاف وبداخل الموكب تزحف ببطء عدة سيارات نصف نقل مكدسة بالشباب .. ترتج الأرض بهتافاتهم .. يرتج قلبي بالخوف .. أبعث نداء مشربًا بكل ما عرفته الأنثى عبر تاريخها من الضعف .. الهوان .. الجبن .. إلى هشام .. في قلب المسجد الكبير: انسحب .. تع إلى .. تلك ليست معركتك .. بل معركة الحكومة .. فلماذا أنت وحدك ..! أنامل حانية تمسح دمعة سالت على خدي.

ـ خايفة ..!

كانت زهرة زوجة عدلي ..

ـ مش عارفة ..

ـ ما تخافيش .. ربنا هينصر عدلي وهشام عليهم، أصبحت معركة عدلي وهشام .. هشام جرجر العائلة إلى ميدان معركة ليست معركتهم

ـ أصلك ما شوفتيش .. عدلي بعت جاب اخواتي واخواتي جابوا أصحابهم

ونساييهم .. وأصحاب هشام طول الليل بيتجمعوا .. وأنا سمعت أن العمدة جمع الخفر وكمان فيه رجالة جايين من المركز..!!

ـ ما أظنش أن الحكومة هتدخل .. هتسيبهم يخلصوا على بعض..

تمتمت بصوت مخنوق:

ـ ربنا يستر!!

تداهمنا فوضى الأصوات عبر ميكروفونات المسجد الكبير .. زعيق .. صراخ .. ارتطامات .. أحاول أن ألتقط رائحة هشام في تلك الفوضى .. أخفق .. فجأة تهدأ الأصوات .. يرتفع صوت المؤذن بالآذان.. ليس الشيخ برهان مؤذن الجامع .. أهو مؤذنهم ..؟ هل استولوا على الجامع .. وحسموا المعركة لصالحهم ..؟ وهشام .. أين هو الآن .. هل .. هل قتل ..؟ لو ثمة قتلى لألغوا الصلاة .. أظن ذلك .. كيف تقام صلاة على جثث قتلى؟؟..

لكنه يفاجئني .. يفاجئنا ..

ـ الحمد لله الذي جعلنا أمة وسطًا

تشهق زهرة بفرح:

ـ دا الشيخ هشام .. هو إللي بيخطب ..؟ يبقى .. ياما إنت كريم يارب .. والله ما بطلت دعا طول الليل إن ربنا ينصرهم .. وأولاد المراكيب فين ..؟

ـ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله.

هدأ الداخل قليلاً .. أين هم .. أولاد المراكيب كما أسمتهم زهرة..؟ يسلم هشام ويؤذن المؤذن للصلاة .. الدقائق تحبو كأنها سكين ينغرس في اللحم .. عقب التسليم في ختام الصلاة تداهمنا موجة أخرى من الأصوات المتشابكة .. تتباعد عن المسجد .. وما عاد مكبر الصوت قادرًا على التقاطها .. لكنها تقترب من السكة الزراعية .. غبار كثيف بصعوبة تخترقه أعيننا .. الجلاليب البيضاء القصيرة متسخة وبعضها ممزق

.. بـل آخريـن بلا جلاليب .. بناطيـل بيضاء وصدرية .. الـكل يركض على السـكة الزراعية في اتجاه مدينة بلقاس أو يحاول اللحاق بالسيارات نصف النقل التي أتوا بها.. وفي المؤخرة ينجلي تفسـيرًا للمشـهد .. هشـام وآخرون يلاحقونهم بالعصي والشـماريخ .. كان كلما رفع شمروخه إرتجت الأرض بصراخـه: يـا كفرة يـا ولاد الكلب .. كان ذات الصـراخ الذي أطلقه وهو يتلقى ضرباتهم قبل أن تصلني في مدرج كلية الآداب منذ خمس سـنوات .. لحظتها شـعرت بارتياح لأن بؤرة المذلة بداخله تذوب .. لكن ماذا عن بؤرة المذلة بداخلي ..؟

أهرع إلى شرنقتي .. تفاجئني طرقاته على الباب ..

ـ السلام عليكم ..

لكنني أشحت بوجهي بعيدًا

ـ إذا حييتم بتحية فحيوا بأفضل منها أو ردوها ..!

أود أن أقذفـه بالأباجورة في وجهه .. سـلامه كرسـي فـي الكلوب .. إن لـم أرد .. ربمـا طعننـي فـي إيمانـي .. كيف لمؤمـن لا يرد تحية الإسـلام إن ألقيت عليه ..! من طرف خفي رأيت وجهه .. إنه ذات الوجه الذي طل علينا به حيـن أفـرج عنه بعد قضية محمد الغنام .. نظـرة الفارس المظفر.. لكن ثمة كدمات.. أقمع في مشقة سؤالاً ملتاعًا بداخلي:

ـ إنت عامل آيه ..؟ اتعورت! وأخيرًا لاشيء سوى الصمت ..

ـ أنـا نازل أتغـدى مع الجماعة تحـت .. احنا عندنا ضيـوف كتير ولازم نضايفهم كويس ..

مـاذا يتعيـن علي أن أفعل ..؟ فعلته معـي لا ينبغي أن تطوى هكذا .. حتى إن اتخذت قرارًا بهذا فدواخلي لن تستجيب .. أشعر بأنني ممزقة.. ما كان هذا المسـار الذي أريد .. زوجي الذي أشـعر بارتياح لأن بؤرة المذلة بداخله تذوب أخشى أن يجرني لكي أتعبد معه في هيكل الدم ..

طرقة على الباب تنزعني من قلقي الموجع ..

ـ إيه يا دكتورة .. مش هاتنزلي تباركي لجوزك ..! دول ضربوهم ضرب ..

ـ اتفضلي يازهرة ..

آهي دعوة لمعرفة التفاصيل ..؟ توق لمعرفة كيف سحق فارس بني عبس أعداءه ..؟ يالشتات الداخل!

ـ دخلوا الجامع .. سبعة منهم حاولوا يقربوا من المنبر .. اتنين قدام وتلاتة وراهم .. واحد على اليمين والتاني على الشمال وإللي في الوسط الأمير إللي اختاروه للجماعة في البلد ووراه اتنين حراسة.. وكان الملعوب إن الإتنين إللي قدام ينزلوا خطيب الأوقاف ويطلع مكانه أميرهم في حراسة الأربعة إللي وراهم .. الشيخ هشام اتنفض وشد الإتنين إللي قدام من طوقهم ووقعهم .. وشال الأمير بتاعهم وحدفه على المصلين .. طلعوا عصي صغيرة من تحت جلاليبهم .. وحاولوا يضربوه .. مالحقوش .. عدلي واخواتي وشباب الجمعية هاجوا فيهم .. الشيخ هشام كان بيضربهم بغل.. بيقولوا فسخ واحد منهم .. كان رايح يضربه بشومة على رأسه من ورا .. لولا واحد من أعضاء الجمعية نبهه .. جوزك أدور ومسك الراجل من رقبته لغاية مازرزر في إيده .. ورهرط منه على الأرض .. الشيخ هشام ساب رقبته ومسك رجليه عاوز يفسخها والراجل يا ولداه بيصرخ من الوجع .. وما سابوش هشام إلا لما شاف كبيرهم الشيخ علي أمير الجماعة في المركز .. هجم عليه هشام .. لكن شباب الجماعة حوطوا الشيخ علي عشان يحموه .. الشيخ هشام بيقولوا كان عامل زي الثور الهايج يضرب يمين وشمال ومش حاسس بالعصيان والجنازير إللي نازله على بدنه .. ولما قرب من كبيرهم .. الراجل صرخ في جماعته عشان يهديهم .. وقال للشيخ هشام بمسكنة: يا شيخ هشام دا بيت الله وإللي إنت بتعمله دا ما

يتفقش مع دين الله .. فرد هشام: واللي انتوا بتعملوه ده دين الله!.. تهجموا على المساجد وتروعوا المسلمين ..؟! اسمع يا شيخ علي .. آنا فاهمكم كويس .. المعصرة لأ.. وجوامعها لأ ..

فرد الشيخ علي بنفس المسكنة:

ـ بتمنعنا من الصلاة في المسجد يا شيخ هشام ..؟

هشام الظاهر إنه إتآثر .. وقف مكانه .. بس صرخ فيه:

ـ واللي جاي يصلي جايب معاه عصي وجنازير يا شيخ علي؟؟!

وبعدين زآر فيه زي الغضنفر:

زي ما قلت لك مالكوش صلاة في الجامع ..

والتاني إدور وهو مدلدل رأسه وقال:

ـ خلاص يا شيخ هشام .. هنصلي بره الجامع ووراك.. مش إنت برضه الإمام ..! ومش احنا إللي هنحاسبك .. إنما صاحب الجامع والدين هو إللي بيحاسب ..

كانت زهرة تحكي على طريقة أفلام المغامرات المغرمة بها ووجدت في قصة هشام من روح المغامرة ما يجعلها تحكي بانفعال وتكابد لتغيير لكنتها لتتلاءم مع الخلفية الشعورية لكل متحدث..

ـ عدلي واخواتي قفلوا الأبواب من جوه وبدأوا يصلوا.. لكن الظاهر الجماعة بره ماكنوش بيصلوا .. بيخططوا .. وينظموا نفسهم .. بمجرد ما سمعوا هشام بيسلم .. هاجموا الأبواب .. عدلي قال: من الأفضل فتح باب واحد علشان ما يدخلوش كلهم مرة واحدة ونصطادهم .. وفعلاً فتحوا باب واحد كان يا دوب يسمح بدخول أربعة أو خمسة .. وبدأت المعركة .. أخويّا شوقي دشدش لوحده دماغ تلاتة .. والشيخ هشام ومعاه مجموعة من الجمعية نزلوا وسطيهم زي التيران الهايجة .. بيقولوا الشيخ علي اتعور تعويرة جامدة وشالوه في عربية من عربياتهم..

قلت .. مكابدة لتطهير سؤالي من قلق الداخل:

ـ وهو!؟

غمزت بعينها وهي تهمس في لؤم:

ـ خايفة عليه ..؟

ـ هشام ابن خالي

ـ بس؟ وكمان جوزك وحبيبك .. هشام طيب وبيحبك .. روقي يا دكتورة

ـ ما قلتليش هو عامل إيه؟

ـ كويس .. شوية وجع في الدراعين بس

ـ والكدمات إللي في وشه ..؟

ـ كدمات إيه ..!! دي حاجة بسيطة على آخر النهار هتروح ..

هل أفرح لفرحه ..؟ وصفعه لي ..! ثم .. وماذا بعد ..؟ هل تجتر الجماعة هزيمتها في صمت ..؟ لا أظن .. بل أصبح طوق الخطر بعد أحداث المسجد الكبير يضيق حولنا أكثر .. فإن كان الداخل قد نأى عن هشام .. ول أدري إن كان ذلك صحيحًا أم لا .. فماذا عن ابنتنا شادن .. ألا يمكن أن يلجأوا إلى خطفها إنتقامًا .. أو .. أو .. قتلها!.. يا إلهي .. فإن كانت روحي قد إنفرطت من عالم هشام بعد صفعه لي فماذا عن شادن؟.. منها أستمد وجودي .. قبلها حملت مرتين وأجهضت .. وبعدها لم يحدث أي حمل .. الأطباء قالوا إن أمومتي توقفت .. لم يهزني ذلك .. هشام هو الذي يحلم بدستة من الصبية كي يضع في يد كل منهم سيف عنترة بن شداد .. ما أروع أن تكون المرأة أما لطفل من الرجل الذي تحب .. وتلك إحدى نقائص مخدعي.. فما أحببت هشام .. نعم .. قلت إنني قبلت بوجودي معه تحت سقف واحد .. لأنه الدرع المضمون لحمايتي .. زينب ابنة عمته .. هذا ما غرسته أمي بداخلي .. وقلت أيضًا إن إيماني به زوجًا إزداد بعد علقة مدرج الآداب .. لكني مارأيت فيه

obeikandl.com

أبدًا الفارس الذي شكله إبراهيم ناجي بداخلي وحلمت به دومًا ..

أَيْـنَ مِـنْ عَيْنِـي حَبِيـبٌ سَـاحِرٌ
فِيْـهِ نُبْـلٌ وَجَـلَالٌ وَحَيـاء
وَاثِـقُ الخُطْـوَةِ يَمْشِـي مَلِـكًا
ظَالِـمُ الحُسْـنِ شَـهِيُّ الكِبْرِيَـاءْ
عَبِـقُ السِّـحْرِ كَأَنْفَـاسِ الرُّبَـى
سَـاهِمُ الطَّـرْفِ كَأَحْـلَامِ المَسَـاءْ
مُشْـرِقُ الطَّلْعَـةِ فِـي مَنْطِقِـهِ
لُغَـةُ النُّـورِ وَتَعْبِيْـرُ السَّـمَاءْ

حتـى حيـن اكتشـفت .. ولا أبالـغ .. أن التوحد الروحي بينـي وبين رجلي قـد يبلغ مداه إن اتكيء الجسـدان على فراش حب يصبـح فيه النبع والنهر والمصب الشيء ذاته .. لم يكن هشام أبدًا هذا الرجل.. ربما من جانبه لأني ابنـة عمته .. أوشـعوره أن بداخلي سـياجًا منيعًا يحـول دون حتى أن نتماس، فما بالك بأورجازم يصهرنا في آتون نشـوته .. وربما كانت اللبنة الأولى في هذا السياج تلك التي استقرت في أعماق تربتي في ذاك المساء البعيد بدوار منزلنـا.. فالعضو الذي يلج حمارة لايمكن أن أرتضاه رسـالة حب تخترقني حتى تمس قرار أنوثتي السحيق ..

مرة سألتني أختي فاطمة..

_ الشيخ هشام عامل أيه معاك ..؟

وكأنها تسأل عن آخر غير هشام ابن عمتها ..

_ في إيه يا فاطمة..؟

ـ فـي إيه يا فاطمـة..!! هتتلائمـي على آختـك!! الجماعة السـنيين دولا بيبقوا وحوش في أوضة النوم .. وعاوزين سـتاتهم يبقوا غوازي .. جبتي له بدلة رقص ..؟

ـ ليه هو إنت عندك بدلة رقص ..!

ـ هو إللي جايبها ..!

ـ دا بس إللي بيخليك تموتي فيه ..؟

ـ إيه يا زينب!.. هو إنت فاهماني حمارة ..! مدحت إنسـان حنين وبيحبني وبيعمل إللي يقدر عليه علشان يرضيني ولولا كده ماكنتش آتجاوب معاه ـ

وآسآل في غباء:

ـ يعني إيه!!

ـ يعني بسبب حنيته وحبه لي بوصل مرتين .. وممكن تلاتة وأربعة..!

قلت في غيظ:

ـ بسبب حنيته ولا بدلة الرقص ..!

ـ إنـت فاهمـه مدحـت آيه..! عادي زي الناس .. عشـر دقايق آو ربع سـاعة بالكتير .. وكمان لو آنا مش بحبه كنت هاآلبس له بدلة رقص ليه..!

وما نجح خيالي أن يسـوقني أبدًا إلى غرفة نوم آرتدي فيها بدلة رقص وآهز وسطي وآردافي وهشام مضجع على السرير يقضم تفاحة استعدادًا لالتهامي بعد التهامهـا .. وحتى لو غادر مشـهده خلف حمارة أبـي الذاكرة إلى الأبد فما آظن أن جسدي يمكن أن يهجع تحت جسده في شوق .. قد تشتعل النار تحت جلدي خاصة إن استدعيتك .. لكن الأمر يبدو لي وكآنني آمارس العادة السرية .. ولا أعرف هذا الذي تتحدث عنه فاطمة .. الرعشـة مرة آو مرتين آو ثلاث ..! إلا من خلال قراءاتي التي مثل غزلياتك تعذبني .. رجلي توقف نموه .. آخشى أن يكون قد إرتد إلى الخلف .. النموذج الوحيد للرومانسية عنده عنترة و عبلة .. والقراءات

الوحيـدة التـي أقبل عليها الألباني.. ابن باز .. ابـن عثيمين .. وربما اضطرارًا بعد انضمامه لجمعية أحباء الرسول فرع المعصرة ثم إمارته لها .. وحتى لا يتهم بأنه لا يسير على سنة الرسول الذي يحب .. أفرط في اطلاق لحيته .. لتتوحش وتلتهم تقاسـيم وجهـه.. ومـا أحببتها أبـدًا .. وأحمد اللـه أنه كان لا يميـل كثيرًا إلى القبلات .. رغم توحش توقي إليها .. لكن يقينا ليس من فوهة بئر تقذفني بخليط لا يطاق من روائح البصل والفسيخ .. رجل يأكل الأرز بالفسيخ وأحيانًا بالبطيخ .. ومدمن كرشـة وممبار .. ماذا يمكن أن تطرح أمعاؤه من روائح ..! ".. وكنت أسـتريح إلى هذا الوضع الذي تطلقون عليه في أدبياتكم الساخرة "الفرنساوي " .. ربمـا لأسـباب دينيـة أجهلها ..! وكثيـرًا ما ينزع إليه .. هـل لأنه الوضع الذي كان شـائعًا بيـن يهود خيبر فـرأى بعض المسـلمين أننا أولى به منهـم؟! وربما لأنه شـعر بالتجربة أنـه الوضع الملائم لعضو يعاني مـن الضآلة .. وإن كنت لم ألحـظ عليـه ما ينم أنه يدرك أن لديه مشـكلة في الحجم ..! ورغم أن الإنسـان هو الكائن الوحيد الذي يمارس الجنس وجهًا لوجه تأكيدًا لانسـانيته.. حيث يتلظى النفس بالنفس والصدر بالصدر والمشاعر بالمشاعر فيتوهج بؤبؤ عينيه بشعاع ظفر يخصب عينيها بأزاهير الخدر .. إلا أنني مع هشام آفر من المواجهة رغم احتشادها بكل ما ترغب الأنثى من مشاعر.. لأمنحه ظهري كلما هم بي.. وأحمـد الله أنه كان يلتزم بسـنة نبينا الكريم فلا يأتينـي إلا في العتمة حتى لايرى عورتي ولا أرى عورته .. " لا أدري هل هذه بالفعل سنة عن الرسول! " وأظنه قـد صـام أيامًا كثيرة تكفيرًا عـن المرات التي أتاني فيها فـي بدايات الزواج نهارًا .. أو تحت أشعة الأباجورة الحمراء!

ومـرة اتهمنـي بأننـي ثرثارة .. فابتسـمت ولم أعلق .. ذلـك أنني كنت قد انتهيت لتوي من قراءة كتاب عن الأمثال الشعبية عند الفرنسيين وكان من بينهـا مثلاً يقول: القبلة هي الطريقـة الوحيدة لتمنع فم المرأة من الثرثرة ..! لكن من شـفاه من؟ .. يقينا من شـفاه حبيب ..! وأنا حرمت من الحب .. فمن الطبيعي أن أكون ثرثارة ..!

الجميلة والوحش .. ألم يكن هذا تعليقك حين رأيت هشام معي أول مرة..؟ تعبيرك هذا يذكرني بتلك الليلة الغريبة التي يسمونها بليلة الدخلة!

منذ الصباح الباكر .. وجسدي مثل لوح زجاج هش ترمح على سطحه خيول .. حوافرها كأسنة الرماح .. تحاصرني آم سعيد الماشطة بقطع من الحلوى المقززة .. تلطعها على جسدي لتجذب ما به من شعر وربما معه شتات روحي بوحشية .. وهي تردد غير آبهة بتقززي:

_ يا بختك يا هشام يا ابن زكية ..!!

" حين قلت هذا لأختي فاطمة بعد خمس سنوات ونحن نجتر ذكريات تلك الأيام انعقد حاجباها في دهشة وهي تصيح:

_ آم سعيد..!!دي نتشة صوابعها زي عضة العصفورة ..أنا رحت لكوافيرات أشكال وألوان بعد كده مالقيتش صوابع في حنية صوابعها..!

أهكذا كانت آم سعيد الماشطة ..؟ إذن فالمشكلة في أنا .. ورغم مرور أكثر من عشرين عامًا على ذلك النهار ما زلت أشعر بأن شيئًا ما في جوفي يصيبني بالغثيان .. ويستعصي على الخروج..؟ هل الأمر يتعلق بهشام؟! حتى حين أرادت الماشطة أن تعبر عن اعجابها بجسدي رددت: يا بختك يا هشام .. وكأنني قطعة بنبونة برائحة النعناع سيلتهمها .. لا أظن أن هذا مقصد آم سعيد .. فرجل مثل هشام لا تتفتح شهيته بقطعة بنبونة .. بل بلحم أنثى .. .. أي أنثى أنا أو حمارة زوج عمته.. لحم مثقوب يدفع فيه عموده ليؤكد صحة المثل الإنجليزي ..

It,s pole and hole

يسمونه هشام هجمة .. في ضخامته كما رأيت يبدو مثل كينج كونج .. هل رأيت هذا الفيلم؟ أو تمثال فرعوني عملاق .. لكنه ليس أملس كتماثيل الفراعين .. بشرته النحاسية مزنزنة تحت طبقة من الشعر الأسود الكثيف

.. تهتز الأرض تحت قدميه .. مساء .. في الفرح.. اقتربت الغازية من الكوشة .. دنت بوجهها منه .. توقف جسدها عن الانثناء والانحناء والالتواء .. أغمضت عينيها .. كأن زمنها توقف عند حافة تلك اللحظة .. ماذا تفعل تلك الغازية..؟ أظنها كانت تحترق بنشوة في لظى أنفاسه ..

وأنا أيضًا احترقت .. لكن ليس بنشوة .. بل بفزع .. شيء ما آخر غير لظى أنفاسه يقلصني عدما ..

تلتحم ساقاي .. تتقبضان .. ترتجفان .. عرق غزير ينضح من وجهه وهو يحاول أن يشق كتلة ساقيي بكفه الخشنة .. يحاول ملاطفتي.. أكابد في الاستجابة .. تتفرج ساقاي بصعوبة .. أكابد لأنشطر عن شيء ما بذاكرتي.. حمارة أبي التي توحدت معها في مصير واحد رسمه لكلانا ابن خالي .. تتراجع ساقاي عن الانفراج .. عامود مدحت يباغتني .. تعاود الانغلاق .. يداه ترتعشان .. رعشة يديه تتسل في مسامي احساسًا بالدهشة .. أمثل هشام في حضرة النساء يرتعش؟! .. تخبو أشياء كثيرة في عينيه .. ولا شيء تبقى سوى التعاسة .. لا أدري ماذا يحدث .. ولا تفسير لسوائل لزجة بين فخذي .. وأين هذا العمود الضخم الذي تخيلته يشقني في ليالي رعبي منذ أن خطبني ..! كنت أظن أن لديه ما ليس لرجل..؟ مدحت زوج فاطمة يملك قوامًا عاديًا وربما دون العادي .. قال مرة إن وزنه ٧٤ كيلو جرامًا .. وينتصب تحت سرته هذا العمود المارد .. فماذا يخفي رجلي .. هشام الهجمة ..! .؟. لم أدرك إلا شيئًا ضئيلاً ضل في أصقاع نصفي الأسفل .. رغم أنه كان صلبًا بما يكفي لأن ينفذ بداخلي .. فماذا حدث ..؟! يستكين بجواري .. يخفي وجهه بيديه .. آه يا أمي: لماذا تفعلين بي هذا؟.. أما من رجل غيره..؟ أكان هذا حالي لو كان رجلي السويسي الأسمر؟! لماذا هشام يا أمي .. .؟!

ـ ابن خالك إللي هيراعيك ويخاف عليك .. إنتم ما لكوش اخوات صبيان يحموكم .. هشام طيب وباشمهندس قد الدنيا.. وما تنسيش خالك وأولاده كانوا ستر وغطا علينا بعد ما أبوك توفى.. ولما ستك ماتت

خالك ما حرمنيش من الميراث .. زي ما الناس بتعمل في البلد مع البنات .. اداني حقي بالتمام والكمال ..

أعرف كل هذا .. ولهذا رضخت لإرادتك يا أمي .. رفضي لهشام كان يعني أنني بيدي أسطر شهادة وفاة خالي متولي الذي راعانا بعد وفاة أبي .. كان دائمًا يردد: "بيت العدل هو آخرة كل بنت .. فليه لزوم التعليم والمصاريف ووجع الدماغ!

ورغم ذلك لم يجسد آراءه تلك سلوكًا معاكسًا لأحلام أمي.. أن ترى في يدي ويد فاطمة شهادة كبيرة .. لم يسع لزواج عدلي من أم كلثوم .. حين لاحت عروسًا أخرى لا ينبغي أن يفوتها .. "زهرة" إحدى جميلات عائلة الكحلاوي والتي سترث سبعة فدادين .. وأمي لم تغضب لذلك لأنه في ذات الوقت تقدم لأم كلثوم تاجر الموبيليا الثري.. إذا أنا وحدي التي يتعين علي ارضاء خالي وأمي بالقبول بهشام.. ولا أكره هشام ابن الخال .. لكنني في صحاري فراشي احترق بلوعة أسئلة الندم: أأشتري رضا خالي وأمي بقبول الزواج من هشام..؟ أيكفي أن يكون هشام طيبًا وشهمًا وباشمهندس لتسلموني إليه كي .. كي يدهسني كل ليلة .. دون حرث؟ وهل سيبقى فيّ رمق حياة لليالٍ أخرى غير الليلة الأولى!

وهذا الذي تصلب بين فخذي في ليلتي الأولى؟؟ ما عدت أشعر به .. هل أتنهد في ارتياح؟ ماذا به .. بي؟ أأكون أنا المعيوبة داخلي مسدود؟!.. فضيحة فوزية الدندراوي تتكرر في عائلة رضوان الحناوي! الدكتور محمود المعداوي .. ابن صباح بائعة الكرشة.. أمه كانت فرحة به حتى الجنون .. انجازها الهائل الذي فشلت في تحقيقه البيوت الكبيرة .. الدكتور محمود ليس كأي "ضنى" .. طرقت بابها الخاطبات يعرضن عرائس من كبرى العائلات في البلد وضواحيها .. لكن عينها كانت على عائلة الدندراوي .. الأغنى والأعرق .. ابنتهم فوزية .. بعثت أم سمير الخاطبة تتحسس المواقف خلف البوابات الضخمة لسراية الدندراوي فجاء الرد إيجابًا .. وتم الزفاف

لتعود العروس إلى سراية أبيها كما ذهبت .. عذراء .. الصدمة هائلة .. أفقدت كلاهما توازنه .. ليثرثر بما أصبح المادة الأكثر إثارة للتداول في البيوت والمقاهي والحقول لأسابيع عديدة .. هو يقول إنه فوجيء بها " مسدودة " ..! وهي ترد .. " هو إللي مش عارف"!.. قصة الدكتور محمود وفوزية حاولت أن أنزعها من ذاكرتي وهشام يحملني بين يديه إلى غرفة نومنا الجديدة دون جدوى لتتورم بها وسادتي أرقًا يزداد نهشًا لي مع كل محاولة فاشلة له لاختراقي .. أمر مثل هذا إن لم يتم يحطم قلوب الأمهات .. فرغم فرحة أمي بحصولي على ليسانس الآداب وأختي فاطمة على بكالوريوس تجارة.. إلا أن مشروعها لم يكن ليكتمل أبدًا بدون أن تسوقنا إلى بيت العدل عذارى.. تسيل دماؤنا على رؤوس الأشهاد .. معلنة أن بكارتنا لم تخدش من قبل ولو بنظرة رجل ..! .

أنسل إلى الحمام .. أباعد بين فخذي .. أتحسس بإصبعي في حذر ثقبي! أجده..؟.. أهدأ قليلاً .. ليستفحل عذابي مجددًا مع طرقة الباب كل صباح.. وسؤال أمي الموجع:

ـ هه.. طمنيني يابنتي .. أزغرد؟

ولا أجيب .. لتنساب دموعي في صمت:

ـ لسه برضه..؟

لا شيء سوى دمعة أحاول قمعها دون جدوى

ـ أمال باين عليه مستحمي وبيضحك ..؟

أنتبه .. مع كل طرقة على الباب يهرع إلى الحمام .. يبلل شعره وملابسه.. أيريد أن يوحي بأنه ..؟ يالعقل الذكور .. هل تعرف؟ أظن أن هذا سبب الفشل .. احساسه أنه في امتحان .. وعسير .. الرسوب فيه نهاية لكينونته..؟ لكم أنتم أيها الرجال جديرون بالشفقة ..

تتمتم فاطمة في استغراب:

ـ هشام ..! دا البنات بيخافوا يسلموا عليه أحسن يحبلوا ..!

ثم تهمس في أذني ضاحكة وربما في زهو:

ـ جوزي عملها من أول ليلة ..

أتوق لأحاديث فاطمة.. أمامها يتوارى شيء من خجلي .. كانت هي الأقرب لي من أي أنثى .. حتى من أمي .. كان يدثرنا دفء فراش واحد منذ صغرنا خاصة بعد زواج خديجة وأم كلثوم .. حاولت أن أجذبها إلى عالمي .. ثومة والعندليب فيروز .. كابدت لاقناعها أن تشاركني مكمني بين أكوام القش فوق السطوح لنشدو سويًا تراتيل ناجي والشابي .. لكنها لاتطيق.. وسريعًا ما تفر إلى عالمها .. المطبخ وفرن الخبز والمشلتت والحلويات .. تلك أصبحت متعتها .. في البداية .. أن تشارك أمي في الطهي وصناعة الحلويات والمربات والفطير .. وسرعان ما سعت إلى أن تكون وحيدة في المطبخ .. لم تحب.. يذهلني ذلك .. أنثى لا تحب .. لكنها ماكرة .. كانت تدخر كل طاقتها العاطفية والجنسية لمن يدق الباب ويروقها .. ولقد راقها بالفعل مدحت .. محاسب في ديوان المحافظة بكفر الشيخ .. ينتمي إلى أسرة ميسورة.. وكأنه توأمها.. لا يميل إلى الأغاني والشعر .. ومثلها لا يقرأ.. لكن إن كانت هي مصنعًا ينتج أفخر الأطعمة والحلويات.. فهو مستهلك نهم لمنتجاتها دون أن يؤثر ذلك على رشاقته.. وكان يفسر ذلك بأن نشاط أعضاء جسمه اللاإرادي يستهلك سعرات حرارية أكثر من أي إنسان آخر .. ويردد أيضًا أنه حريص على أن يتوجه إلى عمله الذي يبتعد عن بيته بخمسة كيلومترات مشيًا .. ولا يسمح للسيارة بأن تستعبده .. لكن تنافر التوجهات لم يشطر الحب الذي وحدني وفاطمة .. وأتذكر أنها وليست أمي من تلقى أول صيحة فزع لأنوثتي في تلك الليلة البعيدة .. حين أيقظتها في هلع:

ـ فاطمة .. فاطمة .. اصحي.

ـ إيه .. مالك يا زينب ..!

ـ دم .. دم بين أفخاذي ..!

وكنت قد شعرت بسائل ساخن يبلل ما بين فخذي فأسرعت إلى المرحاض وتحسست فرجي بيدي .. لأعود إلي الغرفة لأوقظها!! ادارت شريط اللمبة السهاري .. وأزاحت جلبابي إلى أعلى وتحسست المكان.. ثم نهضت .. وجذبت من السحارة الخشبية الصغيرة التي تضم ملابسنا منديلاً.. وقالت بهدوء: روحي دورة الميه واغسلي كويس وبعدين حطي المنديل ده تحت اللباس ..! هدوؤها بقدر ما بث الطمأنينة في نفسي إلا أنه أثار استغرابي:

ـ هو فيه إيه يا فاطمة ..!

ـ أما ترجعي من دورة المية هأقولك ..

عدت سريعًا .. تمددت بجوارها لتضمني في حنو وهي تقبلني في رأسي ثم همست:

ـ إنت دلوقتي ماعدتيش طفلة .. الدم دا اسمه الدورة الشهرية.. بيبدأ ينزل على البنت لما توصل سن ١٢ أو ١٣ سنة .. بس هو نزل علي بدري.. كان عندي ١١ سنة ..

وأتذكر أننا أمضينا الليلة نتهامس ولم يغمض لنا جفن .. ساعدنا على ذلك أن اليوم التالي كان عطلة بمناسبة المولد النبوي ..

والآن هل أجد لدى فاطمة المفتاح الذي أفك به طلاسم جسدي في بلاط ذكورة هشام ..:

سألتها .. فقالت وهي تستعيد ذكرياتها:

ـ كل البنات بيبقوا مرعوبين .. برضه المنظر مش هين .. أنا كان هيغمى علي لما مدحت خلع هدومه ووقف قدامي عامل زي طرزان وأنا قاعدة بالطرحة على السرير لاحول ولاقوة .. وسيادته واقف عمال يلعب بيه وفرحان بنفسه .. ساعتها لو كنت فايقة شوية لقمت ولطشته كام قلم .. دا بدل ما يخدني في حضنه ويهديني .. بس تعرفي .. بعد

كده حسيت إنه معاه حق يفرح بنفسه .. مش كده وبس.. وكمان آنا آفرح بيه .. آصل الجنس ده نعمة من عند ربنا .. وياغلبها إللي جوزها مالوش .. بقوللك إيه يا زوبا ماجايز المشكلة فيك ..؟

نعم .. لا أدري .. الخوف..؟ وربما الرفض .. مسامي إن هم باعتلائي تنقبض.. تنغلق .. أشعر بجسدي يتشنج ..

الرفض .. ربما هو الرفض .. شبحه وهو رابض خلف الحماره في الدوار..؟ لكن هذا تاريخ قديم .. وهل ثمة شيء يموت خاصة في الجنس ..؟ أبحاث فرويد تقول دائمًا : فتش عن الجنس.. إنه محرك كل سلوكياتنا ومفتاح كل عقدنا .. ورغم ما تعرض له من هجوم لإفراطه في الحديث عن هذا الشيء من قبل كبار مثل يونج وادلر وحتى ابنته آنا .. إلا أن الكثيرين أقروا بعد ذلك بتأثير الجنس في حياتنا .. هل ينغلق جسدي في مواجهة هشام بتعليمات من العقل الباطن ربما لأن مشهده خلف الحمارة مازال مستقرًا في قراري العميق بنفس طزاجة الوهلة الأولى ..؟

تفيض فاطمة :

ـ عارفة .. فيه واحدة صاحبتي .. محاسبة .. زميلة مدحت في الشغل .. متجوزة دكتور .. يا عيني الراجل كل ما يجي جنبها ليلة الدخلة .. تصرخ وتتشنج وتعضه .. هي إللي قالت لي كده.. تعرفي عمل أيه .. في الليلة التمنتاشر أعطاها مخدر من غير ما تعرف .. وبعدين خد بكارتها بصبعه .. يعني المشكلة ممكن تكون في الست مش في الراجل ..

نصحتني فاطمة بألا أظهر أمامه ضيقي أو أنني أخبرت أحدًا من أهلي.. حتى لا يهتز نفسيًا .. نصحتني أن أنام محتضنة جسمه من الخلف .. فإن نعس أعبث بعضوه .. فإن انتصب أوقظه بهدوء .. وما كنت أملك الشجاعة الكافية لأفعل هذا .. وما قدرت على فعله أنه حين يجثم فوقي أباعد بين ساقي .. وأحمد الله أنها جاءت منه!

شبه حالمة وهو يقلبني .. يفتح ساقي .. أنفاسه اللاهثة تفزعني.. ماذا يجري .؟ شيء ما كدبوس يشك داخلي .. أستيقظ على ومضة ألم تسري في أنحائي .. تعقبها آنة .. ثم ـ ولا أدري كيف ـ زغرودة.. كأنها رسالة إلى أمي.. إلى أخوتي .. انتبه على اشراقة نصر تتبثق من عينيه.. أزعم أن لا مثيل لها إلا في عين صياد .. تتلاشى نظرة الظفر في عين الصياد لتحل محلها نظرة ذهول .. ينفجر ضاحكًا.. مددت يدي إلى أسفل الوسادة .. جذبت منديلاً دسته أمي بين أغراضي وأوصتني بأن أضعه تحت وسادتي .. نشفت به خيط الدم الرفيع السائل بين فخذي .. ثم أودعته بحرص في كيس بلاستيك كنت أحتفظ به أسفل السرير .. أيضًا لهذه الغاية .. كان يتابعني في دهشة : إنت بتعملي أيه؟

لم أجب .. بل سألته وأنا ألوذ بفيضانات خجلي في صدره:

بتضحك على إيه؟

ـ العرايس في الحالة دي بيصرخوا ..؟

قلت في دلال ممزوج بشيء من الخجل:

ـ هو أنا ماصرختش؟

ـ زغردتي .. حاجة أول مرة أسمع عنها ..

ولم أعلق .. لكن تعليقك كان بليغًا .. ينم عن استتارة حكيمة وليست منفلتة .. ألم تكتب يومًا مقالاً بعنوان "شرف أمريكا وشرف بناتنا " .. ولأنك رجل ضعيف الذاكرة أظنك لا تتذكر .. ولأنك رجل فوضي فأظن أيضًا أنك لا تحتفظ به .. دعني أذكرك بما جاء في مقالك هذا الذي مازلت محتفظة بنسخة منه:

أخرجت المعلمة الشابة قطعة شيكولاته من حقيبتها وأعطتها لأحد طلاب الفصل .. طلبت منه أن يضعها في فمه. ثم سألته:

ـ ما رأيك فى طعمها ..؟!

قال الطالب:

ـ لذيذة

قالت المعلمة:

ـ إذن أعدها إلى!!

أخرج الطالب قطعة الشيكولاته من فمه .. وأعادها إلى المعلمة وسط دهشة زملائه .. وتحولت مشاعر الدهشة إلى حالة من الاستنكار الجماعى.. حين مدت المعلمة يدها بالقطعة إلى طالب آخر و دعته إلى التهامها .. بدا الامتعاض على وجه الطالب .. واعتذر فى أدب .. لتحاصر العيون المعلمة بالتساؤلات .. فقالت المعلمة!

ـ أرايتم ..؟! زميلكم رفض أن يتناول قطعة الشيكولاته لأن آخر لاكها فى فمه ..! هكذا ينبغى أن تكون علاقات الرجل بالمرأة.. انتقال الفتاة من شاب لآخر لا يتفق مع الفطرة الإنسانية!!

بدا حديث المعلمة مباغتًا وصادمًا لما هو مستقر فى العقل الجمعى للشباب وللمجتمع من ثقافة تحرض على الحرية الجنسية .. وتصنف كل من لا يرتكن إلى هذه الثقافة بالتخلف!! تلك الواقعة عمرها خمسة عشر عامًا .. وموطنها إحدى المدارس الأميركية .. وأجواؤها أعاصير الفزع التى اجتاحت المجتمع الأميركى مع انتشار فيروس الإيدز .. وكان لابد من ظهور عقلاء يهزون المجتمع الغربى بعنف على شاكلة تلك المعلمة .. وهذه النزعة وإن كانت تواجه بحائط صد قوى من دعاة الحرية الجنسية تؤكد ببساطة شديدة صواب ثقافتنا المستمدة من تعاليم الدين الإسلامى فى هذا الاتجاه ..

فالإسلام يرفض " كثلكة " العلاقة بين الرجل والمرأة .. انطلاقًا من أننا بشر وامكانية انعدام التفاهم بينهما.. وبالت إلى استحالة استمرارية العلاقة الزوجية .. فيمثل الطلاق فى هذه الحالة مخرجًا .. حتى لو كان أبغض الحلال .. إلا أنه على الأقل لا يتماشى مع الحرام.. ورغم أن التعددية

تداعياتها أحيانًا مضرة بالبناء الأسرى إلا أنها قد تكون مخرجًا للعديد من المشاكل الزوجية .. ويحدد لها علماء المسلمين ضوابط .. وتلك أهم سجايا ثقافتنا الإسلامية .. الإباحة تحت مظلة الضوابط .. عكس الثقافة الغربية التي اندفعت نحو المجهول بما يسمى بثورة الحريات المدنية

ويكفى أن نشير إلى إحدى الظواهر التى تعصف بالمجتمع البريطانى والتى تتضح من حالة الانفلات الجنسى، وهى ظاهرة الأمهات الأطفال.. فبسبب الحرية الجنسية ـ ولأن ثقافة المجتمع مثلما هو الحال فى أى مجتمع غربى تزدرى الفتاة التى تحتفظ بغشاء بكارتها حتى سن السادسة عشرة .. وربما قبل ذلك ـ يعانى المجتمع البريطانى الآن من وجود عشرات الآلاف من الفتيات الصغيرات .. بعضهن لا تتجاوز أعمارهن الثانية عشرة وأصبحن أمهات ..

طفلة فى الثانية عشرة تعانى فجأة من أعراض الحمل .. والأب مراهق.. حين يعرف ذلك يصاب بالفزع .. ويفر بعيدًا مخلفًا طفلة بائسة مطحونة بواقع مخيف .. إنها بعد شهور ستكون أما!

والغريب بدلاً من أن يسعى التربويون وعلماء الاجتماع والإعلام إلى شن حملات لإعلاء القيم الروحية وتمجيد قيمة الاحتفاظ بطهارة الجسد .. يوجهون جهدهم لاقناع الشباب باستخدام الوسائل المانعة للحمل! ورغم أن هذه الظاهرة .. وظاهرة تفشى الإيدز وغيرهم من الأمراض التى تتضح بها الهيستريا الجنسية تعد جرس انذار بضرورة إعادة هيكلة البناء القيمى الغربى ـ إلا أننا نفاجأ بهم بالنقيض تمامًا .. حيث يطالبوننا نحن بالتخلى على هيكلنا القيمى لتخلفه ولقمعه للطاقات الإنسانية.

وعلى موقع " قنطرة " الألمانى قرأت مقالاً هذا عنوانه " العذرية شبح يهدد الفتاة المصرية " كاتبة المقال تقول إن غشاء البكارة رمز للتخلف.. وموروث من الجاهلية ..!! وتؤكد ما تقوله بآراء لناشطات فى مجال " حقوق الانسان " واللائى يطالبن المجتمع المصرى بنبذ هذه العادة .. أى عادة

التمسك بالعذرية حتى تتحرر الفتيات مما يعانينه من شيزوفرينيا!

ولماذا السخرية من غشاء البكارة ..؟! قالت لى إحداهن واسمها فتحية المغربي ـ وهي ناشطة في مجال حقوق الإنسان ـ إنه فى النهاية قطعة جلد.. لا قيمة لها .. فلم نقدسه كل هذا التقديس ..؟!

سألتها: أليس لكل دولة علم .. رمز لها ولكبريائها الوطنى ..؟!

قالت: بلى

قلت: ألم تهتز أميركا .. الإعلام والكونغرس والشارع .. حين دهس أحد الأميركيين علم بلاده بقدمه ..؟! أليس هذا العلم فى النهاية قطعة قماش ثمنها لا يتجاوز بضعة دولارات؟! فلماذا تغضب أميركا وتطالب برأس الرجل لأنه أهان شرف الأمة ..؟!

قطعة القماش تلك هى شرف أميركا! والأميركيون لا يغالون فى ذلك .. علم كل دولة هو رمز لشرفها وكبريائها .. وغشاء البكارة الذى هو أيضًا قطعة جلد .. رمز لشرف الفتاة ..

ولقد أشاعت تلك المرأة عنى ـ وهى كاتبة قصة ـ أننى متخلف ولا أصلح أن أكون حامل قلم!

لماذا ..؟! لأننى ببساطة .. مثل الملايين من أبناء هذه الأمة .. أرفض التوقيع على اتفاقية استيراد تقيحات الحضارة الغربية .!! أهلاً بعلومهم وتكنولجيتهم وديموقراطيتهم .. لكن ألف لا .. للبثور "

هذا مقالك عن شرف البنت .. وبه كنت سعيدة .. رغم خربشة وساوس فى داخلي أنك كتبت هذا باقتناع منقوص اكتمل بشيء من النفاق لزملائنا من أساتذة الكلية الذين يرتبطون بعلاقات قوية بجامعات شرق البحر الأحمر ويساعدونك في الحصول على دعوات منها كأستاذ زائر.. إلا أن ما تضمنه المقال من أفكار تتناغم تمامًا مع استارتي التي لم تكن أبدًا كما هو حال بعض أصدقائنا من التنويريين سكينًا أحمقًا أسلطه

على ما أراه رمز عزة وحكمة أية فتاة هنا أو هناك .. أعني غشاء البكارة.. وفتحية المغربي تلك التي تطرقت إليها في مقالك .. زرت يومًا مدونتها .. هل تعرف بماذا شعرت حين رأيت صورتها العارية تمامًا وكلامها المعنون بـ " مذكرات "فتاة حرة " أن ساعتها متأخرة أربعة عقود .. فعباراتها عن تحرير الجسد من مكبوتاته الجنسية .. وحق الإنسان في ممارسة حريته الجنسية مقتبسة من تلك الأدبيات التي بزغت وازدهرت مع الثورة الشبابية التي اجتاحت الغرب أواخر ستينيات القرن الماضي وكان أحد أهدافها إيجاد مخرج للمأزق الجنسي الذي تعاني منه البشرية من خلال التبشير بثقافة جديدة تتكيء على كسر ما يظنونه بـ" التابو الوهمي" الذي أحاط به الإنسان جسده واطلاق الحريات الجنسية .. لذا شاع مع هذه الأحداث تعبير " الثورة الجنسية " .. ويقصد بها كما تعلم التغيير الجذري في العلاقات الزوجية .. حيث يصبح من حق المرء أن يقيم علاقات جنسية دون الحاجة إلى زواج .. وصدرت بالفعل حزم من التشريعات التي تحمي هذا النوع من الحرية باعتباره جزءًا من الحريات العامة .. والحقيقة أن الكثير من هذه المصطلحات كالحرية الجنسية لم تكن وليدة ثورة الشباب في أواخر الستينيات.. بل ظهرت في أواخر العشرينيات مع تنظيرات (سيجموند فرويد) والذي عزت كل سلوكياتنا إلى الجنس .. بل حتى الحب كان يراه كما ذكرت سابقًا رغبة جنسية مؤجلة..! "تصور أنني إن كنت أحبك فلأنني أشتهيك ..! هذا قلب للحقائق .. لأنني إن كنت أشتهيك فلأنني أحبك "وحتى مصطلح "الثورة الجنسيّة" الذي شاع خلال ثورة الشباب سبق وأن استخدمه عالم النفس (فيلهالم رايش) عام ١٩٣٦ حين نقد في كتبه ما يراه بالأخلاق الجنسية المغلوطة والكاذبة التي كانت منتشرة في عصره.. حيث كان يرى أن الأخلاق ذات الوجهين وكبت الفطرة الجنسيّة تأتي بتشوّهات في الشخصيّة.. وتفضي إلى العدوان والانفلات .. وحسب رايش فإن تحرير الأخلاق الجنسيّة سيؤدي إلى تحوّل سلمي للبنية الاجتماعيّة .. كما أن الإنسان الذي يعيش في علاقات مشبعة لا يمكن تقييده في نظم

حكم ولا تعبئته لأعمال عنيفة!

فإذا كان الترويج لثقافة الحرية الجنسية خيارًا آخر ثوريًا لخروج البشرية من "مأزقها الجنسي" .. فهل خرجت؟!

هذا ما تظنه فتحية المغربي .. حيث بدت عباراتها التي ذيلت بها صورها وكأنها استنساخ لأدبيات ثورة شباب الستينيات ..

إلا أن ما تتجاهله فتحية أن الحرية الجنسية أدت إلى تفشي الهوس الجنسي ..

وأتذكر أن السياسي الأمريكي (بات يوكانان) والذي كان مرشحًا في انتخابات الرئاسة الأمريكية أمام ريتشارد نيكسون نوه في كتابه "موت الغرب" إلى أنه من بين الأسباب التي يمكن أن تلعب دورها في انهيار الحضارة الغربية .. الهوس الجنسي وانتشار العلاقات المثلية وحمايتها بالتشريعات القانونية ..

.. وتقول تقارير دائرة الاحصاءات الأمريكية إنه يوجد في الولايات المتحدة ١٠ ملايين و٤٠٠ ألف أسرة بلا أب .. حيث تتولى الأم مسئولية الإعالة .. ليس لوفاة الأب .. بل لأنه أمضى وقتًا ممتعًا مع الأم .. وحين أدرك أن للأمر تبعاته الاقتصادية والتربوية فر!

وهل أدت ثقافة الحرية الجنسية إلى هدوء وسكينة الإنسان الغربي كما توقع فيلهالم رايش؟

على النقيض .. فإن كان أبناء الدول الاسكندنافية هم الأكثر استمتاعًا بثقافة الحرية الجنسية وبتحرر الجسد من قيوده أو هكذا تبدو الأمور .. فأعلى نسبة انتحار في العالم تسجل هناك..

وإذا كانت الثورة الجنسية هدفها السامي تحرير الإنسان من مكبوتاته وعقده والتي تعد سببًا رئيسيًا لارتكاب الجرائم الجنسية.. فأعلى معدلات الاغتصاب والقتل وأبشعها لأسباب جنسية تسجل في المجتمعات الغربية

.. فـي أمريكا ترتكب مئة ألف حالة اغتصاب سـنويًا ..! والمعدل يتزايد .. وفي بريطانيا يصل الرقم طبقًا لتقرير نشر في صحيفة صن مؤخرًا إلى ٥٥ ألف حالة.

والطرق التي ترتكب بها بعض الجرائم الجنسـية لا توازيها في قسـوتها أيـة نوعية أخرى من الجرائم .. حتـى تلك التي تتعلق بنزعة الانتقام .. ودعني أذكـرك بتلك الصور التي ظهرت على شـبكة الانترنـت عام ١٩٩٦ لإمرأة على شبكة الانترنت وهي تقطع جسد رجل بمنشار .. وتبين من التحقيقات التـي أجريـت في مدينـة ميونيـخ أن المرأة وشـريك لها أمريكـي ارتكبا تلك الجريمة لأسـباب جنسية .. وفي فرنسـا كشفت (كلير بريسيه) وهي مسـئولة في إحدى مؤسسات حماية الطفولة عن وجود أطفال للبيع الجنسي بعضهم في سن الصبا بل والرضاعة مزقوا إربًا بعد استغلالهم جنسيًا!

وأظنك قرأت عن تلك الجريمة البشـعة التي كشـفت عنها شـرطة فيينا منذ أسـابيع .. مهندس نمساوي يبلغ من العمر ٧٣عامًا احتجز ابنته لمدة ٢٤ عامًـا فـي قبو وكان دائم الاغتصاب لها وأنجب منهـا ٧ أطفال .. حين مات أحدهـم وهـو رضيـع تخلص من جثته بوضعهـا في النظام الخـاص بالتدفئة المركزية ..!

إذا ودون أن تـدري فتحيـة المغربـي فهـذا الـذي تحتفي به علـى مدونتها أصبح يمثل مأزقًا خطيرًا للمجتمعات الغربية .. فما هو المخرج..؟

فيمـا فعلتـه المعلمـة الأمريكية الشـابة التي اسـتهللت مقالك عـن العفة بقصتها مع تلاميذها .. وليست وحدها التي استأثرت بالحكمة في مجتمعها.. هنـاك كثيـرون غيرها يرون ضرورة إعادة الاعتبار لغشـاء البـكارة.. ورغم كل خطاياه .. إلا أنه يحسب للرئيس الأميركى السابق جورج بوش برنامجه الجريء لنشر ثقافة العفة فى المجتمع الأميركى .. والذي رصد عبر سنوات رئاسـته مئات الملايين من الدولارات للإنفاق على تنفيذ برامج لتوعية شـباب بلاده بأهمية التمسك بالعفة .. وهذه النزعة .. تؤكد ببساطة شديدة أن نتائج

ثورة الشباب في الغرب تخضع الآن للمراجعة .. خاصة أنها لم تنجح في إيجاد مخرج آمن للمآزق الجنسي .. صحيح أن المراجعة لاتتخذ شكلاً ثوريًا صاخبًا كما حدث مع الثورة الجنسية .. وربما تسير بخطى بطيئة إلا أنها حققت شيئًا من النجاح يجعلنا نصفها بالثورة الصامتة من أجل رد الاعتبار للعذرية وللعفة!.. فثمة مؤسسات جامعية وجمعيات تدعم برامج لتحفيز الفتيات على التمسك بالعذرية .. وهناك من الأثرياء والهيئات المختلفة من يغدق على هذه المؤسسات بالمال..

وفي عام ٢٠٠٥ وصل عدد الفتيان والفتيات الذين انخرطوا في برامج العفة التي تنظمها تلك الجمعيات حوالي مليونين ونصف المليون في المجتمع الأمريكي .. وفي أوروبا يرتفع الآن في أوساط الفتيات وإن كان على استحياء شعار "عفيفات وفخورات بذلك".. حيث تقابل تلك الظاهرة بالتشجيع من قبل الفتيان .. ومن منظمات مدنية ..

وما أود قوله أن ما تفخر به فتحية المغربي الآن يرفضه الكثير من شباب الأجيال الجديدة على ضفتي الأطلنطي مع اكتشافهم وبمساعدة من العقلاء أن الحرية الجنسية ليست المخرج الآمن للمآزق الجنسي .. وأن تمجيد الجسد وتخليصه من عقده لايكون بتعريته كما فعلت .. بل بستر ما يتعلق بخصوصيته .. وهذه الأفكار راودتني منذ عدة أيام وأنا أتأمل صور فتحية العارية على مدونتها .. أن الملبس كان أول اختراع في تاريخ البشرية ..! فإن كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون .. فالإنسان الأول في أفريقيا أو آسيا أو الكاريبي .. في أي بقعة من الكوكب أدرك حتمية ثقافة الستر .. حجب عورته..! الإنسان الأول أدرك ومبكرًا جدًا أهمية وجود مساحة من الخصوصية في حياته .. لذا إن شعر برغبته في الارتواء الجنسي استتر ..! وإن رغب في قضاء حاجته اختلى .. فلماذا يفعل الإنسان ذلك ومنذ خطوه الأول على الكوكب ولم تفعله باقي الكائنات الحية؟ الإجابة ببساطة لأنه يتميز عنها بالعقل .. وأيضًا الحياء!

"ما رأيك ..؟ وانتني الآن فكرة أن اقتطع سطوري السابقة حول غشاء البكارة وأنشرها في مقال بجريدة القاهرة تحت عنوان: "ساعة فتحية المتأخرة أربعين عامًا" .. ثمة عنوان آخر "حاوروها ولا تلعنوها" .. فإن كنا كأصحاب فكر تنويري نؤمن بأهمية الحوار مع الآخر.. أي آخر.. فلا ينبغي أن نستثني فتاة مثل فتحية مهما بلغ بها الشطط.. فربما أتى الحوار معها بنتيجة أفضل كثيرًا من لعنها ورجمها كما يفعل الكثير على المواقع الاليكترونية ..! في انتظار رأيك على فكرة المقال وعنوانه.. هذا إن استسلمت لفكرة أن أبعث اليك برسالتي تلك .. لكن مقالي هذا سيبدو منقوصًا إن لم أذيله بما ينتابني الآن من شعور ولو بدا شاحبًا .. أن ما يقوله فيلهالم رايش عن الأخلاق ذات الوجهين أنا أيضًا مقصودة به ..!

أثرثر وأنظر عن العفة وبداخلي امرأة فاسقة لا تتوانى عن استحضار رجل ليعزف على أوتار نصفها الأسفل .. وهي مضجعة بجوار زوجها.. بل أسفله ..!

وزوجي يفعلها .. وأنت .. ألا ترى .. كلنا ضحايا وكلنا مجرمون .. كلنا نعاني ذات المأزق الجنسي!

ودعني أعود إلى تلك الليلة المشهودة التي نجح فيها هشام وبعد أيام من المعاناة في الحصول على برهان رجولته ودليل عفتي .. لم أنم .. كنت مبتهجة .. لكن سعادتي بلغت ذروتها وأنا أدس المنديل المخضب بدليل طهارتي في يد أمي حين طرقت بابنا لتطلق بعفوية زغرودة إلتاع لها هشام فأسرع ليسد فمها بقبضته الضخمة .. لأكتم بدوري ضحكة كادت تنفلت مني .. هشام يخشى أن يعرف الجيران أنه كان يخدعهم حين كان يظهر أمامهم مبلل الشعر لإيهامهم بأنه كان بالفعل عنترة منذ الليلة الأولى.. لكن _ أتذكر _ لم تكن سعادتي سعادة أنثى بتدشينها في بلاط رجل بقدر ما كانت سعادة ابنة بارة بأمها ..

وماذا بعد ليلة الدخلة ..؟

هشام آخر قريب مني إلى حد إن لامست يدي جسده فلا شيء سوى الإحساس بأنني ألامس جسدي ..!! وعلى الأسرة .. كل منا في كون ناء عن الآخر بملايين السنين الضوئية! فإن نجح في تنبيه جسدي إلى براكينه الخامدة تستعر دون أن تلقي بحممها على ضفاف نهر الحياة مخصبات تطرح محاصيل الانتشاء .. فما كان لديه سوى غريزة ذكورة منتقصة ولا شيء من ثقافة وذكاء رجل محب تمكنانه من قراءة أبجدية أنثاه .. وكلما اقترب مني أتذكر بأسى ما قاله أوسكار وايلد: المرأة كالقيثارة .. كلما أجاد الرجل العزف عليها.. منحته أعذب الأصوات ..!! ولا أتذكر ليلة عرف فراشي مثل هذه الأصوات التي يتحدث عنها وايلد .. لأن رجلي .. لا يجيد العزف على أوتار أنوثتي ..! وكيف يجيد العزف على أوتار عالم لامتناه لايملك مفاتيح خرائطه ..!

***

عائـدون كنـا في اليوم الثالث مـن عيد الفطر من زيـارة آختي خديجة.. انفجر إطار السـيارة .. السـاعة تتجاوز الواحدة صباحًا .. ولسـعة برد خفيفة تشاكسـنا .. الطريق هاديء إلا من صفير سـيارة بين الحين والحين .. بينما كان منهمكًا في تغيير الإطار .. كنت أتطلع إلى الحقول الناعسة باطمئنان متوسدة ضي القمر .. شجرة صفصاف ضخمة تبسط أجنحتها في حنو على سـاقية بطريق صغير غير ممهد.. أخطو نحوها ببطء .. أزيح فروع الشـجرة لأتوسـط المكان.. خرير ماء في مروة مجاورة يتدفق في قلبي صدى ترتيلة تنسـاب من أكوان غير معهودة .. وقطرات الندى فوق أوراق الشـجرة تتلألأ تحت ضي القمر كأرواح تنتظر لحظة أمر السماء بالحلول في أجساد على وشـك الانبثاق من رحم الملائكة .. أكل هذا السحر بين أيدينا ونحن عنه غافلـون..؟ تتهـادى داخلي أبيـات أعطني الناي .. موكب ملائكي ينسـاب داخلي محبة .. لكنه يفصلني عنه بعنف:

ـ يا زينب ..

أتأمل وجهه في حيرة ..

ـ ما لك بتبصيلي كده ليه؟

أود أن أبوح له ما بداخلي ..

ـ إيه رأيك يا هشام نقعد هناك تحت الساقية شوية ..!

حتـى فـي خيالي لـم أسـتطع أن أبوح بأكثر مـن هذا .. وحيـن عدنا إلى بيتنـا .. هرعـت إلـى الحمـام .. اغتسـلت .. وانزلقت إلى فراشـي عازمة على استحضارك .. إلفا فقط في أحلامي ..

.. لاتأبـه بمقاومتـي .. تجردني بغير رحمة .. ومـا كانت الرحمة مقصدي .. تقتنصنـي .. هـل وبختك في سـطوري السـابقة لأن روح القناص تتقمصك ..؟! وقد أمطرك بمزيد من التوبيخ لذات الشـيء لاحقًا ..! لكن .. لا أدري ..

نداء يزعق في قراري السحيق أن تمددني على هذا الفراش الأسطوري الذي صنعته لي خصيصًا الطبيعة من أوراق الشجر المبللة بأنهار السماء .. والذي بشرني به جبران الذي تعشق وأغريتي بأن أتوحد معك في ذات العشق:

هل فرشت العشب ليلاً

وتلحفت الفضاء

زاهدًا فيما سيأتي

ناسيًا ما قد مضي

أنتبه .. عيناك تغرق في عيني .. كأنك تسبح على لجج ضي القمر المنعكس فيهما .. أفاجئك:

ـ عاوزة أطلع فوقك ..!

تصيبك رغبتي بالارتباك .. كهفي أنت مازلت رغم أكوام الكتب التي قرأتها .. ألا يحق لي أن أرغب ..؟! إن بحت برغبتي فأنا في قواميس رجولتك بقرة شايعة!! هذا ما يردده ذكور قريتي عن كل أنثى تعيسة لا تستطيع أن تخفي رغباتها .. سمعتها من هشام حين وصف جارتنا كوثر الأرملة التي تركها زوجها وثلاثة أطفال.. تقدم أحد أقاربها للزواج منها فرحبت .. بل فرحت .. بالسذاجتها .. كيف تقع في تلك الخطيئة ..! ألم تقرأ أبدًا بيت أبو فراس الحمداني: "نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر".. هذا هو الشعار الذي تلوذ به كل امرأة حكيمة حتى لو كانت دواخلها تمور بنار الرغبة .. جارتنا تصرفت بتهور حين عبرت عن رغبتها في الزواج لتصبح المادة المفضلة لثرثرة المقاهي والمصاطب التي يواجه بها ذكور القرية ضجرتقويمهم الرتيب .. واتفق الجميع ـ وليس هشام وحده ـ على أنها بقرة شايعة .. مش قادرة تصبر!! غضب أشقاؤها ـ أحدهم صحفي ـ هددوها والعريس بالقتل .. وعلق هشام: معاهم حق ..!

ليلاً حاولت أن ألقنه درسًا ..

أطالبه بمداعبة طرف أذني بلسانه .. قرأت في بحث أن تلك اللمسة الندية من لسان الرجل تهدر في أنهار الأنثى شلالات قادرة على تحطيم صخور البرودة .. يرمقني بدهشة للحظات قبل أن يستجيب بتردد لينتفض جسدي تحته ثائرًا متلهفًا إلى ما هو أكثر .. لكنه توقف ربما ظنًا منه أن هذا وحده يكفي .. لا أدري .. وانتني رغبة شيطانية .. ماذا لو كنت أنا الفاعل! أحرك وجهه إلى اليمين قليلاً ليتمكن لساني من أذنه .. لا شيء في داخلي غير مألوف إلا ترقب رد فعله ليفاجئني .. عيناه تنزعان نحو الانغلاق .. بينما تكسو وجهه مسحة من الخدر .. ينتفض سريعًا .. منفلتًا .. وهو يبسمل ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وأظن أن الشيطان الذي يقصده هو أنا .. يمنحني ظهره ليغرق في التفكير .. في النوم .. لا أدري ..! لكن .. أليس هذا شذوذًا؟ .. هل هشام لديه استعداد فطري للشذوذ .. أن يستلذ بأن يكون مفعولاً به ..؟ أهذا حال أي ذكر .. إن كانت أنهاره الداخلية تتدفق بهرمونات الذكورة فثمة غدير تطبق ضفتاه على محتواه القليل الساكن ربما من هرمون الاستروجين الذي إن عبث به ذكر آخر مار وفاض وتوحش وأصبح طوفانًا من الرغبات الشاذة!

على أية حال .. كانت رسالة حاولت من خلالها أن أنبهه لحقيقة نبهنا إليها عالم لا أتذكر اسمه .. أن المحسوس .. المفعول به.. أكثر استجابة و ارتواء بشهد الجنس من الفاعل!!

ومع ذلك .. الرجل هو الذي يلهث في الشوارع مخترقًا بعينيه مؤخرات النساء .. أما المرأة مثل كوثر التي رحل زوجها لو باحت بمجرد رغبتها في الزواج ثانية فهي بقرة شايعة!

وكأن هذا قدرنا الذي لا فكاك منه .. كوثر وأنا .. فقط مفعول به .. نترقب الفاعل في صمت .. ليس إبداء رغبة جنسية لي وحده سبب دهشتك .. بل ربما استنكارك .. أن اعتلي .. رغم أنه أحد الأوضاع المعترف بها في القانون العرفي لغرف النوم .. تسمونه الفارسي .. لأن المرأة تبدو كفارسة

تمتطي حصانًا .. أنت ترى في ذلك انقلابًا خطيرًا يهدد عرشك .. أنا الذي اعتلي وأنت المعتلى .. وما كان هذا مأربي .. بل كي استمتع بشعاع القمر وهو يهذب من نظرة القناص في عينيك .. لتبدو الحقيقة التي أحلم بها والتي تنساب من جهاز التسجيل بجوارنا .. إنت عمري إللي ابتدى بنورك صباحه! لكنني بعد لحظات شعرت بأنني لست أنا ..

ـ خليني تحت ترمقني .. هذه المرة ليس باستكار .. بل بدهشة .. لكنك تستجيب لنزوات محبوبتك المجنونة .. هل سوف تنعتني في تلك اللحظة بالمجنونة ..؟ إذن هي لحظة الأورجازم الكبرى .. فلا رعشة لإمرأة على فراش يتدثر بالعقل والحكمة .. على الأسرة لا حاجة للنساء للحكمة..! العبث بالجسد في فضاءات الجنون على عزف أوتار القلب ما أحب .. لكنك لا تدري .. لأنني لا أقول .. وغير مسموح لي بأن أقول ..! علمني قهرك ألا تنفرج شفتاي إلا في حالتين.. على الأسرة .. حين يفعل بي .. فتتلذذ بآهاتي.. وعلى الأسرة أيضًا ربما بعد تسعة شهور لتنتشي بصراخ أوجاعي التي تبشرك بأبوة تحلم بها! وربما مرة ثالثة أيضًا .. شهقة الموت ..

وإياك أن تظن أنني سأذوب نشوة بين يدي رجل يتمتم بشكل مهذب للغاية:

ـ لو سمحت يا زينب هانم اخلعي سروالك .!! فلتعلم أنه لأنني هانم في الشارع أريد أن أكون امرأة أخرى على سريري .. عاهرات الشوارع هن فقط من يردن أن يعاملن على الأسرة هوانم .. وأنا لست بعاهرة شارع ..! صديقة لي ـ مدرسة ـ أسرت لي بما أذهلني .. بدءا.. لكن سرعان ما اكتشفت أنه الطبيعي جدًا .. صديقتي ادخرت مبلغًا لشراء "أنسيال" لكن المبلغ لا يكفي .. طلبت من زوجها أن يكمل لها ثمن "الأنسيال الذهبي" .. وافق .. بشرط .. أن تتيح له مضاجعتها من دبرها .. وافقت على مضض .. كانت تجربة مزعجة كما أخبرتني!

.. لكنها وجدت نفسها تشترط عليه كلما هم بها:

ـ تدفع كام إن متعتك؟

حتى لو عرض ربع جنيه كانت تفاجأ بجسدها ينصهر جذوة من المتعة في جسده .. و تفيق من خدرها على لحظة نشوة أخرى كبرى حين يضاعف المبلغ ..؟ فكرت في الأمر مليًا .. شعرت بحاجتي الملحة لأن أفعلها مع رجلي .. أنت .. في الأحلام التي ما بحت لك بها أبدًا.. هل تبدو منتشيًا الآن إنك دائمًا رجلي دون أن تدري ..؟! وأظنك أيضًا ترتوي حتى الامتلاء بنشوة.. قد تكون نشوة المحب .. ولكن يقينًا أيضًا نشوة القناص .. فما أنت في النهاية إلا ذكر .. فإن فتر شعورك بالنشوة قليلاً فربما تسأل: ولماذا لا تمارسين ذات اللعبة مع هشام .. زوجك ..؟ حتى لو انهارت كل جبال الجليد التي تفصلني عنه وقلت له بدلال حين يأمرني بأن استدير:

ـ طيب لو متعتك تدفعلي كام؟ لا استبعد في حالة مثل تلك أن يحملني ويلقي بي من النافذة وهو يصرخ:

ـ الشارع مكانك ياعاهرة

ـ وكم ألحت الرغبة المحمومة في أن أصرخ: نعم .. بداخلي عاهرة.. تبلغ نشوتي مداها حين أشعر أنني مطلوبة .. نجمة هوليوود تشارلز هورثن سمعتها تقول في مقابلة تليفزيونية: لا شيء يسعد المرأة أكثر من احساسها أنها مقبولة جنسيًا ..! وهل يدفع رجل لإمرأة إلا إذا كانت مطلوبة ..؟! ألهذا تمارس صديقتي المدرسة اللعبة مع زوجها بسعادة ..؟! لكن تلك السعادة لا تعني أبدًا أن تكون عاهرة خارج فراش زوجها .. إنها صديقتي ولاتخفي عني شيئًا .. مثلي .. تأسست على الفضيلة .. لكن هذا ليس وحده الذي يعصمها من الخطيئة بل أيضًا لأنها تحب زوجها.. إن أحبت المرأة صانت .. لكن ماذا عنك ..؟ دعني أتولى عنك الإجابة .. حتى لو أحببت فمن الوارد جدًا أن تخون .. وربما مع امرأة تكن لها الكراهية .. أنت على السرير غريزة ذكر تشبع مع أي أنثى .. وأنا انسانة "نعم انسانة وليس انسانًا.. وإياك أن تظن أنني

أخطـأت حيـن أكتبها هكـذا.. فإمرأة بهامتي مـن الحماقة أن يبخل عليها اللغويون بتاء مربوطة " .. على الفراش لا أريد ذكرًا.. بل رجلاً .. انسانًا .. أنزع في حضرته روب الأستاذة الجامعية .. ولا أبالغ_ إن كان الحب يوحدنا_ وأنا أموء تحته في عهر أشعر باكتمال انسانيتي..!

ومنذ خطوي الأول في عش الزوجية ولدي شـعور غامض بأن أزمتي هي تجسـيد لمـأزق العلاقـة بين هو وهي منذ بـدء الخليقـة .. الآن .. مع تراكم الخبـرة والقـراءات بدأ يتضح لي أسـباب المأزق .. أنها أكثـر تحضرًا .. بل تتجاوزه بألف سنة من الرقي الانساني .. والمأساة أن هشام لا يدري .. وأنت أيضًـا .. تظنـان أن العيـب في لأنني ناقصـة عقل ودين .. والعـار عاري لأنني مفعول بي ..

ومن أين يبدأ هذا الشـرخ الذي يروق لي أن أسـميه بالحضاري بيني وبين هشـام؟ هو طبقًا للمنظومة الاجتماعية طبيعي .. حتى لوضاجع حمارة أبي .. لـو عرف أهل القرية لضحكوا اسـتهزاء .. تمامًا مثلما يسـخرون من دخول المراحيض والتبرز .. لكنهم قد لا يسـتهجنون .. لأن هذا حال البشـر .. نداء الطبيعة .. الجنس أيضًا نداء الطبيعة .. ومن الطبيعي أن يشبع .. من أي ثقب .. حتـى لـو كان ثقب طفـل أو حمارة.. وما أكثر الحكايـا التي ثرثرت بها عمتـي عن أبناء الأكابـر الذين ضبطوا يضاجعون أبقـارًا وحميرًا وماعز .. وحكت مرة قصة شقيقين لديهما ناقة _أظنها نكتة _ لكنها تؤكد أنها وقعت بالفعل .. الشاب الأكبر كان سهرانًا في المقهى وحين عاد ليلاً عرج على الدوار ليقدم العلف للناقة ففوجيء بأخيه قد أتى بمقعد خشبي ووضعه خلف الناقة وصعد فوق المقعد وأخذ يضاجعها.. زعق في أخيه:

_ إيه القرف إللي بتعمله ده!!

هبط الأخ الأصغر من فوق المقعد وهو يردد في خجل:

_ معلهش ياخويا .. دي وزة شيطان فاذا بالشيطان يصيح مستنكرًا :

_ والله مهما وصل بي تفكيري .. لا يمكن يوصل للي إنت بتعمله ده..!!

أما أنا فإنسانة سوية.. ويقينًا لن تقودني سطوة رغبتي إلى فعل مثل هذا .. تفعلها امرأة شديدة الاختلال ربما .. وما ورد في ألف ليلة وليلة.. وفي غيرها من حكاياتنا التراثية عن امرأة كانت تحتفظ مثلاً بقرد ليضاجعها أو أخرى لفظت أنفاسها تحت حمار لم تطق قضيبه الضخم .. كتلك الحكاية التي أوردتها سهير المصادفة في روايتها لهو الأبالسة .. كلها قصص طفح عقل ذكري مهووس جنسيًا ..!

ألا ترى كم نحن مختلفان ..؟ لا أدري إن كنت تعلم بهذا أم لا ..؟ العلماء يقولون إن موار جسدي أشد من موار جسدك .. ومع ذلك تعلمت أن أروضه .. أطيقه .. كي أكون انسانة.. وكما تراني أرفض أن يستجيب جسدي لأية نداءات غواية تصدر منك .. لأنه لم يسبقها نداءات صادقة للرأس .. للقلب .. للوجدان .. وكل كتاباتك التقريظية عن كتاباتي وغزلياتك العفيفة ـ بداية ـ لم تكن سوى شباك للإيقاع بي .. كنت أعي هذا جيدًا .. وحتى إن استجبت أختزل استجابتي في جغرافيا الخيال ..!! أما أنت .. والشيخ هشام.. رغم أن رغباتكما ليست ربما سوى خيط دخان للمبة جاز نمرة خمسة مقارنة بأتون جهنم الذي يستعر تحت جلدي .. فتكابدان لتجعلا من أسرة الواقع امتدادًا لأسرة الخيال تستلذان فيها بالتهام لحم فرائسكما.. ولا شيء يشعل في العينين نشوة القناص سوى اللحم الطري .. حتى لو كان لحم حمارة أبي!!

أعود مجددًا إلى هذا السؤال الذي يؤرقني منذ الصفعة: من أين يبدأ هذا الشرخ الحضاري ..؟.. وما كففت عن اللهث بين صفحات الكتب بحثًا عن إجابة.. عالم الحيوان الداروني (هنري مودسلي) يرى أن هناك بالفعل مخًا بدائيًا داخل مخ الإنسان.. يجعل بالإمكان تتبع البدائية الوحشية في الحضارة .. فهل سامي الجبالي.. الأستاذ الدكتور والناقد الأدبي .. رمز هذه الحضارة .. الذي يدفعه نحوي.. ليس المثقف العلماني المناضل من أجل حق المرأة في المساواة .. بل القناص الذي يسوقه لملاحقتي مخه البدائي..! فلا

تراني سوى الأنثى الفريسة؟ .. وهل هذا الذي تحدث عنه هنري مودسلي سبب الفجوة؟.. وهل ثمة فجوة ..؟ ألست أسعد أيضًا بك قناصًا _ مهما أنكرت _ وبي فريسة ..؟.. وإلا بماذا أفسر موجات الإثارة الغامضة التي سرت في روحي حين صدمتني عبارة جارنا وهو يوبخ شقيقه: بقى يا تيس.. تسيب البكر وتتجوز واحدة نط عليها راجل تاني ..؟! وأيضًا.. فيوضات نشوتي وأنت تستدرجني إلى أسرة في ضواحي اللاشرعية فأثمل حين ترتخي أسلحة مقاومتي وأرقب في شوق أصابعك الخشنة وليست أصابعي وهي تنزع عن جسدي حتى ورقة التوت ..!

وهل ثمة علاقة بين تلك القوة الغامضة بداخلي والتي تجعلني لا أنصت كثيرًا لصوت المخ البدائي وبين نتائج دراسة حديثة أجريت في جامعة كاليفرونيا الأمريكية انتهت إلى أن ثمة فروقًا فسيولوجية وراء الأخدود الذي يشطرني عنك؟ .. الدراسة تقول إن نظرة الرجل للمرأة تنبثق من خلايا في الفص الأيسر من المخ تتعلق بالغريزة. .. أما نظرة المرأة فتفيض من خلايا في الفص الأيمن تتصل بالقيم الإنسانية والعاطفة والجمال والإبداع والخيال .. ويبدو أن الكاتب البرازيلي الشهير (باولو كويلو) فجع بهذه الفجوة الحضارية.. لكنه تجاوز انزعاجه سريعًا .. وحاول كرجل أن يقلل من تلك الفجوة .. حين يعبيء المخبوء في داخله من الأنوثية إزاء كل موقف ليحدث توازنًا مع الذكوري فيكون الإنسان .. أظن أن هذا ما كان يعنيه حين قال في حوار مع شبكة سي إن إن:

"أنا امرأة .. يبدو مظهري كمظهر الرجال .. لكنني إمرأة." .. .

ثم ابتسم وقال موضحًا: بمعنى أنني أعمل دائمًا على توطيد الاتصال بطاقتي الأنثوية .. علينا أن نوازن بين الناحيتين .. فنحن بحاجة للنظام بقدر حاجتنا للعطف والحدس .. وفي رواياتي أحاول دائمًا التركيز على الجانب الأنثوي .. كي يمكن تقبله."

ليس وحده باولو كويلو الذي يحتفي بشطره الأنثوي .. فبينما كنت

غارقة في "أنا" أورهان باموق المقموعة وهي تطفو على سطح ذاكرته في كتابه المهم "أسطنبول" سمعته يقول: "مازلت أتساءل بسذاجة ما إن كان من الممكن أن أكون أفضل لو ولدت امرأة ..

ماذا لو قال رجل عربي مثل هذا ..؟ يقينًا .. سيكون مستهدفًا من كل ملكات السخرية من المحيط إلى الخليج .. ومع ذلك فعلها أديبنا يوسف إدريس و باح بشيئ من هذا القبيل .. فإن لم تخني الذاكرة أظن أنه قال إن إبداعه يتدفق من الجانب الأنثوي داخله ..!

وشعرت بأن أقوال كل هؤلاء دعم لي وإن جاء متأخرًا لتلك المعركة الصغيرة التي ورطت نفسي فيها بحماقة منذ عدة سنوات حين انفلت من شرنقتي لأتصل بشيخ في إحدى الفضائيات التي توصل الناس للجنة .. هكذا يقول شعارها! كان يتحدث حول قوامة الرجل.. كان ينظر لماذا أن المرأة لا تصلح أن تكون ولية .. محافظة .. أو وزيرة .. وأصدر فتوى بأنها يقينًا لا ينبغي أن تكون قاضية .. لماذا؟ لأنها ناقصة عقل ودين .. أغاظني قوله .. "ربما سبب غيظي أيضًا أن ذلك الشيخ سبق له منذ سنوات أن أفتى بحرمة مشاهدة التليفزيون .. لكنه كما يبدو غير رأيه حين أصبحت تلك الفضائية التي توصل الناس إلى الجنة سبوبة له ولغيره تدر عليهم ملايين الجنيهات سنويًا" .. رفعت السماعة وضغطت على رقم القناة .. وقلت له بدون مقدمات.. وربما ما يبدو أنه بعيد عن موضوع حديثه .. قلت: يا شيخي العزيز ليست المرأة ناقصة عقل ودين .. الرجل هو ناقص انسانية .. دون المرأة بألف سنة .. ولكي يكون انسانًا وليس ذكرًا هو في حاجة إلى أن تزيد لديه ولو قليلاً إفرازات هرمون الاستروجين .. المرأة انسانة بسبب هذا الهرمون ..!!

أظنه لم يفهم كلامي واكتفى بأن دعا لي من عليائه بالهداية .. لكن مشاهدين آخرين من الرجال ممن يتوقون أن يدخلوا الجنة عبر تلك القناة فهموا ما أعنيه فردوا في غضب: تلك المرأة المنحرفة تريد تخنيث الرجال .. "فكرت للحظة أن أعيد الاتصال لأزيد بما يمكن أن يصدمهم في

حقيقتهم .. أن أبلغ صور الفجوة الانسانية بين الرجل والمرأة موطنها السرير .. الفروق هناك تبدو جلية .. إنه يعتليني وشعاره المثل الإنجليزي

It,s pole and hole

حتى القبلات تبدو عبئًا ثقيلاً .. كنت أود أن أتحدث عن طقوس هشام في السرير

ـ استديري!

في البدايات كنت أسأله لماذا ..؟ لأنني كنت هبلة .. وبمرور الوقت عرفت لماذا ..

ـ اخلعي هدومك ..

واستجيب في غيظ لأنه لايدرك أن عالمي لا يمور بالإثارة إلا حين تمتد أنامله الخشنة لتنزع عني سروالي .. لتتدفق شراييني بمشاعر الفخر أنني مطلوبة .. أو.. . فريسة!

.. وبعد دقائق يفرغ داخلي قطرات من ماء النار .. ليهبط في إعياء ويمنحني ظهره وسرعان ما يعلو شخيره!.. بداخلي زفرة مقموعة كنت أود أن أبثها على الهواء مباشرة..

ـ ما أتعس النساء .. جدران تبدو مزروعة بالمسامير أو كما قال هشام مرة معللاً إخفاقاتنا في غرفة النوم: فرجك زي حيطة مغفقة بالأسمنت..!!

صفعة أخرى وجهها لي .. لكنه على أية حال لم يتجاوز الحقيقة .. وسأظل هكذا .. لن تتندى دواخلي بسوائل الشوق واللهفة طالما أن هشام يعتليني كيفما اعتلى حمارة أبي .. ومرة باحت لي أختي فاطمة بما ينقصني حنية رجل محب .. خبير بلغتي.. عندئذ تهدر أعماقي السحيقة بأمواج النشوة .. ليرتخي الجسد تحت تأثير خدر الروح .. ليتكور في داخلي جنين .. ينبثق من بين فخذي .. لأتلقفه بشوق.. أنشئ .. وأشكل وأربي ..

كنت أود أن أعري على الهواء مباشرة حقيقة هشام وكل هشام.. كنت أود أن أقول: أيها السادة .. الجنس كما ترون .. أعيشه بكل كياني عمرًا كاملاً .. وهشام .. الذكر .. ليس لديه سوى عشر دقائق إن لم يكن دون ذلك بكثير ليعطيني ظهره ويشخر ..!! كنت أود أن أحدثهم عن عثور علماء جامعة كارديف في مقاطعة ويلز البريطانية بعد ثلاث سنوات من البحث على ما ظنوه إجابة لهذا السؤال: كيف يكون الرجل أكثر جاذبية لأنثاه ..؟ وبدلاً من أن يغوصوا في أعماقي بحثًا عن الإجابة .. استخدموا سمكة " أبوشوكة .. حيث توصلوا إلى أن بعض ذكور تلك السمكة تفرز كميات صغيرة من بروتينات يطلق عليها إسم "بيبتايدات" وتستخدمها في إطلاق رائحة تجذب بشدة الإناث .. حين توصل باحثو الجامعة البريطانية إلى هذا الاكتشاف فركوا أيديهم في ارتياح وهم يرددون: أخيرًا وجدنا الحل!! من الممكن جدًا انتاج روائح عطرية قادرة على تفجير رغبات المرأة الجنسية.. قليل من تلك الروائح "يتبرفن" به الذكر قبل أن يدخل غرفة النوم ليجد إمرأته نزعت كل ثيابها وانحنت أمامه في انتظار اقتحاماته ..!! ألا ترى .. الرجل هو الرجل .. سواء كان هشام ابن نجوع الدلتا أو عالمًا في جامعة كارديف .. الأمور كلها تنحصر في النصف الأسفل من الجسد وإفرازاته.. لو أنصتوا باهتمام إلى تلك الشاعرة العباسية التي قالت منذ ثمانية قرون: إن النساء ينا.. من آذانهن!! لعرفوا شيفرة جسدي ..

الكلمة الصادقة .. مفتاح كل فردوس أنثوي .. ليس جسدي بداية .. بل قلبي .. روحي .. فإن نبض قلبي ارتخي جسدي استعدادًا .. لينتفض تفاعلاً.. ليستكين خدرًا ..

هل تباغتك كلماتي ..؟ وكل الرجال .. الأغبياء فيهم والذين رغم معاشرتهم لنا منذ آلاف السنين مازالت مفاتيحنا مستغلقة عليهم وإن كانوا يدعون غير هذا .. والذين يستغبون .. هؤلاء الذين عرفوا المفتاح.. لكنهم يأبون استعماله فخسروا وخسرنا معهم .. وسبب المباغتة ربما أنني أنزع

عـن كيانـي الرداء الذي لا ترونا جميلات مثيرات إلا به .. الخجل ..! لكن ثمة أمورا يجري تشكيلها الأن أهم وأخطر من حروب غرف النوم .. هذا ما اكتشفته بعض الأوساط النسـائية في ثمانينيات القرن الماضي بالولايات المتحدة الأمريكية.. حين ظهرت موجة ما يسمى "نسوية ما بعد الحداثة" .. هل قرأت شيئًا عنها ..؟ دعني أشـرح لك اتجاهات هذه الحركة .. فلسفتها ترتكـز علـى أن المرأة تختلف عن الرجل في بعـض الخصائص البيولوجية والنفسـية وأن فـي ذلك تمييـزًا حقيقيًا وليس انتقاصًا من شـأنها.. وواكب ظهـور هـذه الحركة موجة قوية من الانتقادات لـ "المنجزات" التي حققتها الهيمنـة الذكورية علـى العالم .. كما ظهرت دعوات لرفض انفراد الرجال بحكـم الكوكب بسـبب المآسـي التي جرهـا ذلك الأمر على الإنسـانية بشـكل عام .. " ومرة أخرى .. إيـاك أن تزنزن أوراقي تحت مجهرك النقدي لتنتهـي إلـى أن ما بين يديك رواية معيوبة بالتقريرية الفجة .. فما لذت بقلمي وأوراقي لأكتب رواية .. بل لأبثك صراخ أوجاعي التي لاعلاقة لها بأي جنس أدبي .. "

وقد يثير دهشتك أن أنصار نسوية ما بعد الحداثة .. وما أكثرهم يرون أن المرأة الأجدر بأن تكون المهيمنة على غرف صناعة القرار.. من منطلق أن السيطرة الذكورية على القرار السياسي كانت وراء الظاهرة الاستعمارية واضطهاد الشعوب الضعيفة .. ويدعم هذا الاتجاه دراسات علمية وأكاديمية تحـاول الربـط بين الهيمنـة الذكورية على غرف صناعة القـرار في الغرب بشـكل خاص واضطهاد الشـعوب الضعيفة عبر تشـريح فترات الاستعمار التي تعرضت لها تلك الدول. كما ظهرت دراسـات نقدية لما سـمي بالعقلية الذكوريـة التـي خلصت إلى أن تلك العقلية تسـببت في قهر شـعوب العالم الثالـث والطبيعـة والمـرأة!. وبـدأ في تلـك المرحلـة تغير واضح فـي نوعية الأهداف التي تناضل من أجلها المنظمات النسـائية داخل الولايات المتحدة حيث ظهرت دعوات لتحسـين ظروف معيشـة الشعوب المقهورة ومنح جميع سكان العالم فرصة تحصيل العلم والتمتع بالديمقراطية ..!

هل سبق وأن قلت إن أبلغ صور الفجوة الإنسانية بين الرجل والمرأة تداهمنا في غرف النوم؟! عفوًا.. بل وكما أكدت الدراسات .. تبدو الفجوة جلية أيضًا في غرف صناعة القرار التي يدار منها العالم .. قرارات الرجل تصدر من تلك الخلايا الغريزية في الفص الأيسر من دماغه .. لذا تستهدف اشباع غريزة القنص والقتل والتملك .. فإن ملكت المرأة مفاتيح غرف صناعة القرار .. فمن نهر انسانيتها الذي يترقرق بهرمون الاستروجين تتدفق قراراتها بردًا وسلامًا على البشر ..!

ومنذ عدة شهور روعني المشاركون في ندوة حول " الأدب النسائي " في منتدى الفكر الحر .. وجميعهم .. نساء ورجالاً.. كانت تلك نظرتهم للأدب النسائي .. أنها ذاتها النظرة التي تلو كونها منذ ٦٠ عامًا أن الأدب النسائي.. هذا الذي يتعلق ببوح المرأة عن عالمها الأنثوي الخاص جدًا .. والخاص جدًا يعني في النهاية حديثها عن جسدها .. وكأن المرأة عدم إلا قليلاً .. وذاك القليل جسدها .. وهذا كان سبب اندفاعي الذي كابدت لترشيحه من حمم الغضب وراء كتابة مقال عنونته بـ" أدب الاستروجين " أنوي نشره في إحدى الصحف .. إلا أنني أتيح لك قراءته الآن .. وسوف أهاتفك بعد يومين من وصول رسالتي تلك لأعرف رأيك " هذا إن استقر رأيي على إرسال أوراقي تلك لك ".. وها هو المقال:

أدب الاستروجين

منذ ستة عقود تقريبًا ظهر هذا المصطلح، الكتابة الأنثوية أو الأدب الأنثوي "فيمينزم" مع كتابات الأديبة البريطانية (فرجينيا وولف) والكاتبة الفرنسية (سيمون دي بوفوار) في كافة أرجاء العالم .. خاصة مع حالة الجرأة المفرطة التي انتابت أقلام النساء مع حمى حركة الحقوق المدنية التي اجتاحت الغرب في أواخر ستينيات القرن الماضي .. لتغمس الأديبات أقلامهن في المحيطات السرية لعوالم الأنوثة ويكتبن .. وأصبحت كل كتابة نسوية ذاتية تخوض في أدغال ومجاهل القارة الأنثوية تصنف

أدبًا نسويًا .. وكأن الأدب النسوي بهذا التوصيف يفترض أن يتكئ على شرطين.. أن يكون انبثاق رحم امرأة أو فيض علبة ماكياجها .. وأن يكون ذاتيًا ومزنزنًا في فضاء الشأن الأنثوي .. تحديدًا علاقة المرأة الخاصة بالرجل.. وبالمجتمع الذكوري بشكل عام .. إلا أن هذا النوع من الأدب لم يزدهر في عالمنا العربي إلا في ربع القرن الأخير .. وازداد شيوعًا مع منتصف تسعينيات القرن الماضي .. خاصة في بعض المجتمعات الخليجية مع انتشار التعليم بين صفوف النساء وخروج المرأة إلى ميادين العمل واكتسابها قدرًا من الشجاعة دفعها إلى أن تقول ما خشيت أن تقوله عبر آلاف السنين في هذا الذي يتعلق بعلاقتها بالرجل .. وحظي هذا النوع من الكتابة النسوية بقدر من الشيوع بين الرجال أحيانًا لأسباب تتعلق بشهوة الفضول .. فها هي نافذة لها وجود حقيقي يطل منها الرجل على المخدع السري للمرأة.. والذي ظلت معلوماته عنه مجرد طفح أخيلة ذكورية مريضة .. وها هي حواء ذاتها تبوح وتعترف بما يمور في أعماق محيطاتها السرية من تيارات عنيفة وحادة ظلت غائبة أو متجاهلة من الرجل.

إلا أن هذا المفهوم الشائع للأدب النسوي لا يبدو دقيقًا، فمن الكتاب من نجحوا في استقراء خرائط المرأة ربما أكثر من المرأة ذاتها .. من هؤلاء إحسان عبد القدوس .. فهل يمكن أن نصنف كتاباته عن المرأة بكونها أدبًا أنثويًا لأنها خاضت في عوالم المرأة؟

أظن أنه كان من الأجدى أن يطلق مصطلح "الأدب النسوي" على كل ما تكتبه المرأة بمداد هرموناتها الأنثوية .. بغض النظر عن المتن.. ذاتيًا.. سياسيًا .. حربيًا.. المهم أنه أدب يفوح برائحة الاستروجين .. فحين تغمس روائية قلمها في هرمونات أنوثتها وتكتب رواية سياسية عن حرب العراق مثلاً .. فيمكن تصنيف تلك الرواية كأدب نسوي .. لأنها تفوح برائحة الأنثى .. رؤية الأنثى لحدث ما حتى لو كان عسكريًا أو سياسيًا يقينًا تختلف عن رؤية الرجل.. المداد الذي كتبت به نفس الأحداث يختلف ..

وهـذا الاختلاف يمنح لكل منهما مذاقه الخاص .. ورغم اعتراض الكثير من النقاد على تلك التقسيمة .. أدب ذكوري وأدب نسوي .. على اعتبار أن ما يكتبه الرجل أو تكتبه المرأة هو في النهاية أدب انساني .. فالتقسيمة تفرض نفسها على القارئ والناقد معًا طالما أن الرائحة الهرمونية تختلف في هذا عن ذاك.

حين تعرضت "مسز كرازون آكينو" رئيسة الفلبين السابقة لانقلاب عسكري .. وأبلغت في الرابعة فجرًا أن القصر الرئاسي محاصر بقوات الجيش ورئيس الأركان ينتظر مقابلتها بقائمة من المطالب .. نهضت رئيسة جمهورية الفلبين من فراشها وتوجهت أولاً إلى المرآة ووضعت شيئًا من الماكياج .

.. وصففت شعرها جيدًا وارتدت ثوبًا أنيقًا .. ولم تغادر غرفة نومها قبل أن تتأكد من اكتمال أناقتها ثم توجهت إلى القاعة الرئيسية للقصر لمقابلة رئيس الأركان .. وبدأت معه مفاوضات شاقة انتهت بانسحاب قوات الجيش إلى ثكناتها .. فماذا لو كان الرئيس رجلاً؟ يقينا سيتخذ السيناريو صورة آخرى .. وليس مستبعدًا حين يبلغه رجاله أن قوات الجيش تحاصر القصر أن يقفز من فراشه بملابس النوم إلى القاعة مباشرة لمقابلة مبعوث قادة الانقلاب.. ما أعنيه أن هرمون الاستروجين تفوح رائحته في أي موقف تكون بطلته المرأة .. إذن لحواء منظورها الخاص للشأن العام وبالتالي إن كتبت فكتابتها مهما كان الموضوع الذي تكتب عنه تصنف أدبًا نسويًا.. لذا من السخف أن نزنزن هذا المفهوم فيما تكتبه النساء عن الخاص الجسدي أو العاطفي .. أنها نظرة ذكورية مجحفة .. آن الأوان لتصحيحها!

***

هل أقسو عليك ..؟ نعم .. أحيانًا..؟ إنها حيرتي .. مخاوفي منك.. من كل رجل! لكنني أحيانًا أخرى .. ربما أكثر .. أرى في كل تصرفاتك وليس فقط في كتاباتك التجسيد الحي في هذا العالم للرومانسية .. علاقاتك حتى بالرجال .. بالطبيعة .. بالطبع بالنساء .. وأكثر من مرة ضبطت عينيك مغروقتين بالدموع بينما راديو مكتبك ينساب منه شجن حليم .. يا شارع الضباب .. و ثومة.. لسه فاكر .. وفريد .. حكاية غرامي .. يا تصبريني على الحرمان يا ترجعيللي ليالي زمان .. رغم أن فريد لا يطاول في داخلك وبالعدوى بعد ذلك داخلي حليم .. كأن نهر عواطف ينتظر اشارة من ملوكك الذين هم أيضًا منذ عصاري مراهقتي فوق سطوح منزلنا القديم .. ملوكي .. حليم وثومة وفريد وعبد الوهاب .. وناجي وجبران والشابي .. ليتدفق دموعًا.. ألا تلحظ .. كلهم رحلوا .. وحتى الآن لغير مطربي وشعراء القبور لاندين .. وتلك الرومانسية التي تفيض من مسام روحك هي الجذر الحقيقي لحبي لك.. منذ ثلاث سنوات نشرت مقالة في مجلة الكاتب العربي اجتاحتني كلماتها كإعصار لا يقاوم .. وبالفعل كلما عدت إليه وأعدت قراءته أتناول سماعة الهاتف في وهن أنثى محبة لأهاتفك.. لأتوحد مع شجنك.. لأعلن بغير التباس أنني ملك بنانك .. وبمجرد أن يلفحني صوتك .. أبذل في مشقة جهدا خارقا لأكون شرسة في مواجهتك .. المقال كان بعنوان "ملوك وجداني" وها هو الآن بين يدي أخصب بحروفه روحي التي أخشى عليها من التصحر .. وتلك بعض سطوره:

" .. كما الكثير من أبناء جيلي .. أدين بقدر هائل في تشكيل خرائط وجداني إلى شعراء مثل أبي القاسم الشابي ورائعته "صلوات في هيكل الحب" .. وإبراهيم ناجي ورائعتيه "العودة" و"الأطلال" وعلي محمود طه وجندوله .. وأدين بقدر أكبر لشعراء المهجر .. الذين تعلمنا منهم كيف نسبح في فضاءات من المحبة والتسامح .. كيف نستطيع الفكاك من أسر

جاذبية غرائز الجسد وتسمو كينونتنا لتهجع في مدارات روحية تستعصى على الادراك بحسابات البشر المألوفة .. أتذكر أمسيات قريتي الصيفية الهادئة .. إلا من صخب تدفق دموعنا آنا ورفاق الثانوية العامة .. حين يقرأ أحدنا " أعطني الناي " دموع حنين لشهقة البكارة الكونية كما رسمها جبران خليل جبران .. أتذكر توقنا إلى الأنثى المستحيلة .. عبر أبيات الشابي:

"عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصبح الجديد

كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد "

فنرى صبايا قريتنا يتسربلن على السكة الزراعية بأرديتهن المدرسية كأنهن أبيات شعر لأبي القاسم تنثرها أشعة شمس الصباحات الشتوية دفئًا يسري في عروقنا .. جمالاً أثيريًا .. يطهر دواخلنا من نوازعها الشيطانية.. فلا نرى الأنثى .. كل أنثى .. سوى روح نقية.. غشتها الملائكة بطهرها .. بسموها ..

فإن خدعتنا الأنثى الحبيبة .. وداهمتنا بانسانيتها .. تأكل وتشرب مثل الإنسان .. تهجر وتخون وتغدر مثل الإنسان .. صرخنا بلوعة مثلما صرخ كامل الشناوي:

"كوني كما تبغين .. لكن لن تكوني ..

فأنا صنعتك من هوايا ومن جنوني .. "

لكننا نكذب لوقلنا مثلما قال: "**ولقد برأت من الهوى ومن الجنون..**"

فما برأنا أبدًا من الهوى وجنون الهوى ..

ونعنف القلب إن وهن مثلما عنفه إبراهيم ناجي:

أيها الساهر تغفو .. تذكر العهد وتصحو

فإذا ما التام جرح .. جد بالتذكار جرح

فتعلم كيف تنسى .. .. وتعلم كيف تمحو

أو كل الحب في رآيك غفران وصفح؟!

تلك هي الأنثى الحبيبة كما لملمناها من قصائد آبائنا العظام .. ناجي والشابي والشناوي

ـ وذلك هو الخلاص للروح .. العودة إلى الطبيعة في بكارتها الأولى .. كما علمنا جبران وشعراء المهجر..

"هل فرشت العشب ليلاً

وتلحفت الفضاء

زاهدًا في ما سيأتي

ناسيًا ما قد مضى .. "

وحين تتغرس هواجس الوجود في أرواحنا أرقًا .. نهرع إلى عالم إيليا آبو ماضي.. نبحث عن أجوبة لأسئلتنا الحيرى .. فتلطمنا حيرته بموجات أعتى من الأرق .. .

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجودْ

هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ

هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقود

أتمنّى أنني أدري ولكن لست أدري!

فهل أخطأنا حين سرنا خلفهم ..؟

تسآل وألهث خلف سطورك بحثًا عن إجابة:

" .. وما أعنفه الإحساس بالذنب الذي كان يعصف بنا في ذلك الوقت .. لأننا سلمنا وجداننا طوعًا وحبًا لهؤلاء دون أمير الشعراء.. شوقي وصديقه حافظ .. لكن .. في مواجهة الإحساس بالذنب ثمة نشوة التمرد .. إن كانت الذائقة العربية اختارت هؤلاء أمراء.. فذائقتنا اختارت آخرين .. الشابي وناجي وجبران وإيليا ملوكا .. ولدينا القوة لنبوح بغير خجل باختياراتنا ..

فهل أسأنا الاختيار ..؟

الآن في شيبتنا أقول: لم نسئ .. وما وقعنا في شرك المراهقة الفكرية..

اختبارات الزمن برهنت أننا كنا على صواب .. فالسواد الأعظم من جيلي ومن الأجيال الأخرى مازالت قلوبهم تنتفض لوعة حين تشدو أم كلثوم بأطلال ناجي .. وإن باغتتني فيروز من أي راديو في مقهى أو على الطريق برائعة جبران " أعطني الناي " .. أبكي بنفس نضارة دمع الثانوية العامة في ليالي قريتي الصيفية .. وحين تداهمنا الفضائيات بمشهد آشلاء شيخ فلسطيني في مخيمات غزة مزقته دبابات ميركافا الإسرائيلية .. أو امرأة عراقية تنوح على الأب أو الأخ الذي مزقه صاروخ من طائرة أباتشي أمريكية .. من فينا لا يصرخ في داخله " أخي جاوز الظالمون المدى " وجدار الهوان الذي شيدته إسرائيل ليحجز الرضيع الفلسطيني عن ثدي أمه آلا يمور مشهده في أعماق كل منا بصرخة الشابي:

" وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة بالدماء يدق ".

آلا ترى..؟ وكأنك كنت تجاورني على مقعد الدراسة في حصص أبله هدى .. أو على سطوح بيتنا القديم .. نفس الأشعار .. نفس الأغاني التي وردت في مقالك ذاتها كانت ومازالت أكسجين وجودي ..

لكنني وكما لمحت لك مرارًا أرى أن لغة رسائلك التي تنهال علي منذ سنوات تعرضت لتبديل خبيث أخافني .. حبلى نعم بالرومانسية .. لكن رومانسيتك تلفحني بزفير صياد يصارع لأن يسوق فريسته إلى السرير .. أبدي تبرمي .. استهجاني .. ودائمًا لديك تفسير:

ـ أكثر الناس رومانسية رجالة وستات أكترهم نهما للجنس .. لكن أي جنس ..؟ بالطبع مع محب رومانسي .. .

وتزيد:

ـ الجنس مع المحب شهد ..!

أمطرك بثورات غضبي: ما عندكش حاجة تتكلم فيها غير الجنس؟ ولا أكف عن اظهار استيائي؛ لكنني أخفي حقيقة أمري .. أن بكلماتك كانت تتندى منافذي ليلاً توقًا لاختراقاتك.. أستحضرها .. نسائم تدغدغ روحي .. أعاصير تزلزل جسدي .. تستبيح ممالكي التي استعصت على هشام رغم صكوك الملكية الموثقة من المأذون على سنة الله ورسوله و بمباركة من كل أهل القرية .. أهديك بحب.. بشوق .. جسدي على أنغام ألف ليلة وليلة ..:

يا حبيبي .. الليل وسماه .. ونجومه وقمره وسهره وإنت وأنا

ياحبيبي أنا .. يا حياتي أنا كلنا .. في الحب سوا

والهوى .. آه منه الهوى .. سهران الهوى

يسقينا الهنا .. ويقول بالهنايا حبيبي

فتتنهد: **هو العمر إيه .. غير ليلة زي الليلة..!**

ودعني أذكرك بواحدة من رسائلك الخبيثة:

"هل لديك مرآة في غرفة نومك ..؟ إذن انظري إلى عينيك .. امعني النظر.. ألا تلاحظين شيئًا؟.. شعاع ناعس .. في وهنه.. رعشته تبدو وكأنها الكلمة الأولى لقمر رضيع .. يدنو منه.. يتوحد معه أحيانا.. لظى نجم جبار.. هكذا أنت.. زينب رضوان الحناوي .. جلية بغير أدنى التباس في صفحة عينيك.. تشكيلة من المتناقضين: الرعشة الشاعرية لقمر وليد أو ربما أكون أكثر دقة لو قلت لنجمة إن نأت ملايين السنين الضوئية .. ولظاها إن دنت وحطت في سرير رجل محب ..!! والجمال الحقيقي في هذه الحياة ذاك الذي تشكله أقدار متناقضة ..!! انتظري .. لا تبارحي غرفتك .. بل أوصدي الباب.. النوافذ .. انزعي ملابسك قطعة قطعة .. تأملي جسدك في المرآة.. تأملي ذلك القوام الممتد بشموخ في فراغ الغرفة .. استديري ..

تأملي تشكيلة الردفين .. أظن منهما يستمد التشكيليون قواعد الجمال التي يتخذونها منهجًا لريشتهم ..! ارتدي ملابسك .. توجهي إلى الحمام .. توضأي .. صلي ركعتي شكرلله .. فما شكلك الله مثلما شكل النساء .. لقد خلقهن .. أما أنت .. فأبدعك .. "!!

تهاتفني مساء: إيه رأيك في الرسالة .. قرأتيها؟ فأجيب:

_ أنت مراهق ..!!

ومع ذلك أهرع إلى غرفة نومي .. أغلقها كما أمرتني .. أنزع ملابسي قطعة قطعة .. كما أمرتني .. أتأمل جسدي في المرآة .. استدير وعيناي لا تبارحان المرآة .. كما أمرتني .. أتأمل قوامي الممتد بشموخ في فراغ الغرفة كما أمرتني .. لا أرتدي ملابسي .. ولا أتوضأ وأصلي ركعتي شكر لله على هذا الجسد الرائع الذي أبدعه سبحانه وتعالى كما أمرتني .. بل انتصب أمام فراشي .. استحضرك خلفي لتكسر شموخ هذا الجسد بأوامرك الأخرى التي تراودك في أحلامك ولم تضمنها رسائلك .. أن انحني حتى تلامس جبهتي حافة السرير ليتدفق صراخ هواني فتفيض أنهار شموخي .. أتوجه إلى الحمام .. أتطهر من آثامي .. أواري جسد مذلتي تحت أردية كثيفة لأصلي مئة ركعة استغفار .. أتوسل إلى الله أن يخلص جسدي من مواره الجهنمي .. منك!! فأهجع .. مكابدة .. في اطمئنان ليوقظني هاتفك .

_ لابسة أيه ..!

أود أن أنهال بسماعة الهاتف على رأسك الشيطاني ..!

_ وإنت مالك!

حاولت أن تكون كلماتي جافة .. لكن لم تخل أبدًا من دلال الأنثى .. دلال ينبثق أيضًا من رأسي الشيطاني ..

_ عاوز أتخيلك..

أود أن أقول:

ـ سبقتك ..! لا أقوى ..

ـ مراهق في الستين..!

لاتبالي:

ـ عارفة كنت فين امبارح!

ـ في كفر الشيخ .. إنت قلتلي النهارده .

ـ أمسية شعرية جميلة .. أولاد صغيرين ما حدش يعرف عنهم حاجة .. وجايين من النجوع .. بعضهم مش مستبعد سالف جنيه المواصلات إللي جاي بيها .. وما شاء الله على حلاوة الشعر إللي قالوه .. واحد منهم وهو بيقول الشعر على المنصة كانت عينيه زايغة .. بصيت لاقيت بنت تتابعه بحزن .. وكأن ما حدش موجود في القاعة غيره وغيرها .. وهو بيقول: دي جنية .. دي مولودة على أيدين الجناينية!!.. دمعة شكلها متحجرة بقالها سنين ساحت مش على خده لوحده .. على خدودنا كلنا عشان تحرقنا بلوعته.. إيه الحكاية ..؟ سألت واحد صاحبه .. فقلي دول في يوم من الأيام هيبقوا حسن ونعيمة .. الراجل متخرج من آداب ومش لاقي شغل .. ولا لاقي ياكل .. وكل حياته في الشعر.. وأهلها مش بتوع شعر .. بتوع فلوس .. هو ما تقدمش وخايف لو تقدم هيرفضوه .. وطبعًا دا إللي هيحصل ..!

قلت له بما يشبه الرجاء:

ـ طيب ما تحاول تساعده .. كاتب كبير زيك له علاقات كتيرة.. حاول توفر له وظيفة ..

ـ عشان عيونك وانتصارًا للحب ..

آباغتك:

ـ لو كنت والدها .. هتوافق؟

تكفنك لحظات من الصمت تنفلت منها لتجيب بما اعتبرته شجاعة منك

وخيبة أمل لي:

ـ مش عارف!

ورغم ذلك لا تكف عن ملاحقتي .. بأن الحب هو خيارنا الذي ينسحب أمامه أي خيار آخر!

جميع رسائلك لي شباك غواية .. أكل هذا لأسير أمامك صاغرة إلى ما تسوقني إليه .. شقة في ضواحي اللاشرعية ..؟ لن يحدث.. لكن الأقدار تخذلني .. تبارك مشروعك الاستراتيجي .. فوجئت بكلانا فقط في مصعد الكلية .. تطلعت إلى عينيك في خوف.. في فضول .. أدهشني ما أرى .. رغبة محمومة في أن تلتهمني .. مشروع جاهز دائمًا لديك استعداد لتنفيذه حتى لو كان المتاح فقط بضع ثوان .. لم اكترث .. أكان ذلك يعني استجابة متوقعة لدي؟! .. استعداد دفين للاستسلام .. نادرًا في الواقع .. وكثيرًا في الأحلام.. لكن ما يصنف تحت بند نادرًا .. حدث .. حين زنزنتي بين ذراعيك.. أقاوم بجدية .. برغبة في أن تنهار قدرتي على المقاومة .. تركض شفتاي فرارًا من ملاحقة شفتيك .. ولهفة في الداخل لأن تتعثر شفتاي ويسقطان بين شفتيك.. وحتى بعد أن هويًا أكابد لتستمر مقاومتي.. ثوان دون جدوي .. يستكينان لإعصار شفتيك .. و حين لاحقتني في فراشي مساء ذلك اليوم فاضت روحي بخدر لذيذ وصوتك ينساب عبر الهاتف:

ـ عارفة .. كأني كنت بارتوي من جوزة هند طازجة .. ما دوقتيش جوز الهند قبل كده؟

ـ لأ

ـ طعمها محايد .. لكنه الحياد الإيجابي .. ندى شفايفك بدا مذاقه في شفايفي وكأنه كوكتيل بيتجمع فيه طعم كل المشروبات .. لكن مفيش فيه مشروب غالب على غيره..

أفتش في جهازي الليمفاوي عن فلول كرات دم بيضاء ما زالت قادرة على المقاومة .. أظنني نجحت ولوجزئيًا .. قذفتك:

ـ إللي إنت كنت شايفة جوزة هند كان بالنسبة لي اغتصاب!!

تضحك! أباءت محاولتي بالفشل ..؟ في غيظ:

ـ إيه إللي بيضحكك؟..؟

ترتدي نظارة محاضر في القاعات الجامعية لتحكم حصارك حولي:

ـ عارفة إيه هو الخطأ إللي بتقع فيه لجان التحكيم في مسابقات الجمال ..؟ إنها مش واخدة بالها من أهم عناصر الجاذبية في المرأة.. انعكاس المشاعر على وشها وفي عينيها .. في حزنها.. أمومتها .. عنفوان وهنها وهي في غرف النوم .. تقلصات وشها وهي على السرير.. كل ده كان بيتدفق منك .. وأنا بحاول احتويك بين ذراعي في الأسانسير .. حسيت إن الخلطة الغريبة من مشاعر الرغبة والرفض والخوف إللي حولت وشك لوحة تشكيلية بتستعصي على أي فنان تشكيلي .. ساعتها عرفت ليه صورك الفوتوغرافية مش في مستوى جمالك الحقيقي .. جمالك يستعصى على أي كاميرا .. وحتى على الفنانين التشكيليين..

نفسي تصدقيني .. أنا مرآتك الصادقة .

هل تراني خائنة حين أبوح لك بأنني استحضرك ليلاً! وأنت .. ألم تقل لي مرارًا أنك تستحضرني دومًا في فراشك بديلاً لزوجتك كلما أذن موعد واجباتك الزوجية .. لا لتطيق فقط ما يجري .. بل أيضًا لتستمتع به طالما أنا وليس هي شريكتك في الفراش! وإن لم أكن أنا فآخرى .. أي عاملة في صناعة المتعة .. راقصة .. ممثلة .. عارضة أزياء .. فإن مللت من كل هؤلاء فمجهولة تشكلها في خيالك .. ألا ترى .. إن خنت أنا ففي أحلامي .. ومع ـ فقط ـ من أحب! أما أنت.. فمع أي امرأة سواء على أسرة الواقع أو الخيال.. يا لهول الفارق الإنساني بيننا!

***

تحدثني فاطمة عن إحدى مغامراتها الجنسية مع مدحت:

ـ مـن كام يـوم لاقيته بيقوللـي إيه رأيك ما تيجي نطلع فوق السـطح..؟! بصيت له مسـتغربة وقلتله: دلوقتي..! دي الساعة تلاتة ونصف .. ساعة والفجر يآذن ..!

لاقيته بيشدني .. وبيقوللي: بس تعالي .. دا القمر طالع والجو حلو..

خـد معـاه حصيـرة ومخدة .. وآنا وراه ماشـية مـش فاهمة حاجـة.. طلعنا السـطح ورا جدار أوضة الأسانسـير فرش الحصيرة وشدني: آأقعدي.. وبدأ يتحسـس جسـمي: إيه يـا راجل .. فيه إيـه ..! فيه إللي عمري ما حسـيت بيه .. دفسـت وشـي في المخدة علشـان آكتم صوتي.. لو سـبت نفسي سكان العمارة والعمارات إللي حوالينا هيصحوا على زعيقي..

بماذا تفسـر متعة فاطمة وزوجها المضاعفة؟.. التجديد؟.. ولا آظن آن هذا بالتفسـير الكافي .. كان يطالبها بآن يتخاطبا باسـمين آخرين غير فاطمة ومدحـت فهمسـت في آذنـه بـ" دوحة " ليوشوشـها بـ " بطة " ليزدادا انتشـاء .. وكآن "دوحة " و" بطة " آخران ليسـا مدحت وزوجته فاطمة .. آهو المحظور الـذي تتفجر منه ينابيـع المتعة؟.. متعة الذي يجري بين عاشـقين على فراش اللاشرعية .. آهذا ما كان آو ربما يجول بخاطر كل منهما .. آن ما يجمعهما ليس توق زوجين .. بل عاشقين يغافلان الحراس الحديديين للشرعية .. التوق إلـى الحـرام .. تـوق نمارس عليه كل صنـوف القمع .. لكنه أبـدًا لايموت .. وآليس ما فعلاه تحايلاً على ورقة المآذون ..! ربما ليسـتعيد به مدحت تجربة مع آخرى ليسـت فاطمة في ذات المكان آو مكان آخر شـبيه .. آو تآكيد للمثل الفرنسي المذهل: كل النساء جميلات ما عدا زوجتي؟ آلهذا حكيت لـي مـرة ما زعمت آنك سـمعته مـن صديق لأم كلثـوم .. بآنها وصفت صوت المطربة سـعاد محمد بآنه يشبه مضاجعة المتزوجين.. آي لا لذة فيه! لم تقل " مضاجعـة " تحديدًا .. بل اسـتخدمت تلك الكلمـة المبتذلة التي تتداولونها

فيما بينكم .. عوامكم ومثقفيكم .. وقلتها لي مرارًا .. محاولاً اقناعي بانتمائها الأصيل للفصحى .. ورغم أنني لا أصدق روايتك أن تكون ثومة التي حلقت بأمة فوق السحاب قالت شيئًا مبتذلاً مثل هذا .. إلا أن مغزى عبارتها المزعومة والدافع وراء مغامرة دوحة وبطة فوق السطوح قد يكونان وراء احتمائي إزاء غاراتك بسياسة الباب الموارب .. "تعبيرك الذي فاجأتني به مرة في إحدى ثورات غضبك" .. فتحت لك نافذة صغيرة تطل منها على عالمي.. وكم عذبني هذا الذي أراه تنازلاً هائلاً .. لكنك كنت لا تراه كافيًا .. فأعلنت في إحدى مكالماتك أنها النهاية وأنك لن تعاود الاتصال بي .. فزعت.. وكم هي الليالي التي توحش فيها شوقي إليك .. لكنني أبدًا لم أهاتفك .. وحين عاودت أنت الاتصال بعد ثلاثة شهور .. كابدت حتى لاتصلك زغاريد الفرح في قلبي .. واستقبلتك بفتور!!

أتزلزلك اعترافاتي ..؟ نعم .. كثيرًا ما كنت أتوق إلى تربصك بي .. تحرشك.. لأزجرك .. فلا تأبه فأقاوم .. لأستسلم .. في أحلام يقظتي ..!!

في تلك المرات التي استجبت فيها لإلحاحك الذي كان يروقني دون أن أفصح .. وأصحبك في السيارة لتوصلني إلى هذا المكان أو ذاك .. " لو علم الشيخ هشام بهذا لحول حربه الباردة ضد العلمانيين الذين أنت واحد منهم إلى حرب تهدر فيها بنادقه الآلية وأول مئة رصاصة ستكون مصوبة نحوك ونحوي "

كنت أتوق إلى أن أسمعها منك:

ـ إيه رأيك .. نمر على الشقة نشرب شاي ..!

شقتك التي حدثتني عنها من قبل .. استأجرها لك العمدة والدك حين كنت طالبًا في مدرسة ابن لقمان الثانوية .. واحتفظت بها حتى حين أكملت دراستك في كلية دار العلوم .. جامعة القاهرة.. حدثتني عنها مرارًا وكأنك تغويني بحلم أن أصحبك إلى هناك .. ويقينا مع كل مرة تحدثني فيها عن الشقة الصغيرة يحاصرني الحلم ليلاً ليس في أحلام نومي .. بل

فـي أحـلام يقظتـي .. لكنك لـم تقدم لي عرضًـا بأن نعرج على شـقتك في كل مرة أرضخ فيها لالحاحك وأستقل معك السيارة .. أيعزى هذا لغبائك؟! ربمـا .. وربمـا كنت تظـن أنك لو فعلتها فسـوف تحتقن حصـون المحصنة زينب الحناوي زوجة الشيخ هشام الغازولي غضبًا فتفر من حياتك فلا تراها ثانيـة.. رغـم أننـي لو تدري كنت أترقـب هذا العرض منك .. لا لأسـتجيب.. بـل لأسـتحضره في فراش وحدتي ليلاً .. وحين وانتـك القدرة على فعل ذلك عندمـا اصطحبتني في سـيارتك لشـراء بعـض المراجع التـي أوصيتني بها لرسـالة الماجسـتير التي تشـرف عليها .. وفـي الطريق قلـت مدعيًا تذكر مـا غـاب عنك في مكتبـك بالكلية .. أن لديك مرجعين مهمين في الشـقة سـينفعاني فـي الرسـالة .. رمقتك بنظرة نافـذة .. لم تقرأها جيـدًا .. ظننتها استنكارًا واحتجاجًا .. فأسرعت لتصحيح الخطيئة التي انزلقت إليها :

ـ مـا تخفيـش .. مـش هتطلعـي معايـا الشـقة .. اسـتني تحت وأنـا أطلع أجيبهم..!

لـم يكن سـهمًا هذا الذي نفذ من عيني ليرشـقك احتجاجًـا .. بل تخيلاً للحظة آتية .. مجيئها بقرار مني .. تفصلني عنها بضع دقائق لأكون أسفلك عارية تمامًا في فراش مراهقتك .. مراهقتي ..

ـ بس ما تغيبش فوق .!

خدرتنـي تلك التورية التي تشـي بها عبارتي.. وأظنك .. أسـتاذي .. أسـتاذ البلاغة .. لم تنتبه لها .. أنا نفسي لم أنتبه إلا بعد أن انبثقت من بين شفتي.. أنا خايفة حد يشوفني ..

راقتك عبارتي:

طيب اطلعي وخليك بره الشقة وأنا هدخل أجيب الكتب ..

كان السـلم نصف معتم .. وأحيانا لضيقه تلامسنا .. بل ولامست أناملك ردفـي .. إعصـار كابـدت ألا يطيح بي من فـوق الدرجـات .. وحين كادت

قدمي تتعثر فوق درجة تآكل نصفها تشبثت يدي بخصرك بعفوية غريبة .. لأفاجأ بيدك أيضًا تحيطني درع حماية .. ليلتقي شعاعين انبثقًا من عينينا للحظات قبل أن أرتد سريعًا إلى داخلي .. كانا خافتين لكنهما مفعمان بدلالات عميقة .. لحظتها شعرت بأن يدي فعلت الصحيح حين تشبثت بخصرك .. وكان رد فعلك أيضًا العفوي بغير التباس صحيحًا .. ليختال في داخلي سؤال يهزأ ربما بنا: حين يتعلق الأمر بمشروع اتحاد أبدي بين رجل وإمرأة .. ألا تكون العفوية هي الطريق الأسلم للاختيار..! كان بجواري سور السلم .. العقل يقول أن ألوذ به .. إلا أن شيئًا ما داخلي لا أدري كنهه .. لكنه حكيم .. دفعني لأن ألوذ بك أنت ..! وسرعان ما انشقت العتمة عن وجه أبي الصارم .. شدني من جوارك إلى الخلف .. أتبعك عبر الممر الطويل الذي انتهى إليه السلم بخطوات متوجسة كما أمرني .. وحين دلفت إلى ممر صغير وتمتمت:

ـ هي دي يا ستي شقة تلميذ الثانوي!

تحجرت أقدامي.. بينما خطوت أنت نحو الشقة و انشغلت بفتحها.. وحين تم لك ذلك استدرت لتدعوني إلى الدخول .. لتقع عيناي على بنطالك فإذا به متضخم عند نقطة تلاقي الساقين .. يكاد يتمزق بفعل هذا الشيء الذي يتوحش أسفله .. فأشحت بعيني خجلاً .. لأشهر في وجهك لا صارمة أشعر أنها أخصتك .. تأملتني للحظات .. وداخلك نهب لمشاعر الحيرة: فلم صعدت إذن معك ..؟! سأقول لك الآن ما لم أقله لك من قبل .. احساس غامض بالإثارة أن أجد نفسي على باب شقة اصطحبني إليها رجل .. ليس أي رجل .. بل هذا الذي أحب.. إنها مشاعر الأنثى المبتلية بأنيميا الحب في غرفة نومها.. أنيميا تزلزل ثقتها في أنوثتها .. ودومًا يراودني هذا السؤال: أممكن أن أكون امرأة مطلوبة لذاتها بعيدًا عن الزواج والمآذون .. فلماذا إذن لم ألب نداءك وأدلف خلفك إلى الشقة ..؟ الأنثى فعلتها حين رشقتها بنداءاتك لتقاوم كي تستسلم .. في أحلام يقظتها ولا شيء خارج أحلام

يقظتها.. حيث تتأهب دومًا الدكتورة زينب الحناوي .. الإنسانة المدججة بأسلحة الأب والدين .. لتزجر شياطين الأنثى بغير هوادة .. لكن الأنثى في صحاري ليالي الحرمان لا تكف عن التوحش.. معذبة بتوقها لهذا الشيء الذي تضخم بدماء الحب تحت بنطال الرجل الذي أحبت..

هل أفرط في الحديث عن الجنس ..؟ أمر يسبب لي شيئًا من القلق.. وأخشى أن أكون مختلة جنسيًا .. أو أعاني من إدمان جنسي إن لم يكن متاحًا بالممارسة فبالكلام والتفكير .. لكن يبدو أنني لست وحيدة في هذا الشأن .. دراسة علمية أجراها باحثون فرنسيون منذ عشرين عامًا انتهت إلى أن الإنسان يفكر في الله مرة كل عشر دقائق وفي الجنس مرتين ..!! ولأنك مولع بالتفسير الجنسي للحياة .. "لا أظن أن هذا قدحًا .. فعلماء النفس يقولون إن النشاط الجنسي هو أرقى وأجمع وألذ وأرفع نشاط يقوم به الإنسان حيث ينصهر بكامله ويتورط جميعه .. نفسه وعقله وبدنه وروحه وماضيه وحاضره ومستقبله .. فكل درجات الوجود كائنة في هذا الفعل المبهر " أقول لأنك مولع بالتفسير الجنسي للحياة .. سوف يكون تفسيرك ذاته تفسير عالم النفس " ويلهيلم ستيكل " أن الابداع الأدبي بالنسبة لأديب يعاني هو غذاء .. وبالتالي فرسالة د. زينب الحناوي عمل أدبي تقتات منه وجبة عاطفية دسمة في مواجهة حرمانها .. كي تظل تحيا كانسانة .. فنحن نكتب فقط ونبدع حين نغمس أقلامنا في نهر الحرمان ..

هذا سيكون تعليقك .. وربما تستشهد أيضًا بما قاله بلزاك: إن أيروس ـ إله الجنس ـ كان الأجدر بأن يكون الماسك بقيثارة الشعر وليس أبو للو..!

.. الآن .. بل ومنذ سنوات ربما يصل عددها عمر حياتنا الزوجية يلتف حبل من المشاعر القاسية حول عنقي نهارًا .. ليلاً .. فإن حاولت الانفلات منه بالنعاس سرعان ما أستيقظ فزعة على شبح ضخم يدنو من عنقي ليجذب الحبل بعنف .. أهذا شبح هشام .. ..؟!

هل تفوح عباراتي برائحة الكراهية له؟.. وأكره على مايبدو نفسي ..

هذا ما أشعر به أحيانا .. خاصة في تلك الليالي التي ينهار جلال صمتها بانفجارات أمعائه ..!! فيشتعل فراش أرقي بغازاته لتعلو سحب الكراهية في علياء روحي ..!

تدهشك كلماتي .. تثير استغرابك .. تهتف في أعماقك .. ما هذا الذي تقوله الدكتورة زينب ..!! أو ليس هشام سوى انسان! وهل الدكتورة زينب لا تفعل هذا ..؟! هذا ما كان يعذبني .. أن لي مؤخرة وأمعاء .. وكأنه برهان ربي أنني لن أكون ملاكًا أبدًا .. الملائكة لا يتسللون إلى المرحاض خلسة مثلما أفعل .. وأجهد نفسي بقسوة حتى لا تتجاوز أصوات هواني الجدران فيلتقطها هشام .. وفي الكلية أمضي يومي أقاوم فكرة دخول المرحاض .. حتى لا يراني أحد من زملائي أو الطلبة فيتبادلون التعليقات الساخرة حول فعلتي الشنعاء! أمضيت عمري في عالم رسمت خطوطه الأولى أبله هدى .. عالم نحلق فيه بأجنحة الملائكة .. نتنفس أوكسجين الحب .. ولا ننفث تلك الغازات الكريهة .. عالم بلا مطابخ ولا مطاعم ولا حمامات.. أغوص في لجج عالمي النوراني هذا حتى أنني لم أكن أتخيل أنك أو عبد الحليم حافظ أو ثومة أو عبد الوهاب أو فيروز أو نجاة .. وكل أفراد قبيلتي التي أتوحد بهم برباط بلازما الرومانسية يمكن أن يشقوا طريقهم كل صباح إلى المراحيض .. وفي الجامعة حين استضافت كلية الأداب الدكتور عثمان أمين ليحاضر عن فلسفته "الجوانية" لم يجد ما يعبر به عن سخطه على الحالة الفكرية العربية سوى بوصفها بـ . بـ .. عفوا بـ" التجييص الفكري " .. لحظتها انتابني دوار عنيف .. وحين أفقت قليلاً شغلني خاطر وحيد .. لو كانت فلسفة هذا الرجل هي طريقنا المفروش بالورود إلى الجنة لما خطوت عليها خطوة واحدة .. حتى حين نضجت رؤيتي وبدأت أرى أن القضيب ليس بالشيء الذي يثير الغثيان أوالتنافر مع الرومانسية .. بل وأردد ـ فقط في دواخلي ـ أنه ليس في هذا العالم أمتع من قضيب حبيب ينغرس

في جسد حبيبة .. وأن عضو الحبيب يمكن أن يخصب حقول الرومانسية تحت جلد الحبيبة لتطرح أزاهير النشوة .. نشوة الروح والجسد لتعبق فضاءات الإنسان بشطريه المتوحدين .. الرجل والمرأة بشذى الجنة .. هذا التطور الإيجابي الذي انتهى بتطبيع تلك العلاقة التي ظلت متوترة داخلي بين الجسد والروح في غرف النوم منذ سنى مراهقتي وحتى بعد مضي شهور عديدة من زواجي لم يواكبه قبول روحي لنزعات الجسد في المرحاض .. حتى حين أبديت تنازلاً من أن أكون ملاكًا .. واكتفي بالانتماء إلى ما يراودني أحيانًا عن حلقة مفقودة بين البشر والملائكة .. لم يكن ذلك كافيًا لتحقيق المصالحة المنشودة داخل دورات المياه!

ذات مرة سألتني طفلتي شادن .. " ليس هذا اسمها في الأوراق الرسمية .. لقد سجلها والدها في شهادة الميلاد باسم عائشة .. حاولت أن أشرح له أن شادن كلمة عربية أصيلة تطلق على الغزال الصغير .. لكنه كان يتابعني بعينين متشككتين في إيماني .. فقط لأنني أختار اسمًا لابنتي غير اسم أم المؤمنين .. وتوجه إلى الوحدة الصحية بالقرية ليسجل في خانة اسم المولود عائشة لكنني لم أدعها أبدًا سوى بشادن".. سألتني وهي تتابع عبر النافذة جنازة جارنا عم مسعود..

ـ أنا شفت الناس بيحطوا عمي مسعود في الصندوق .. همه هيودوه فين!

أشفقت علي سنواتها السبع من أن تصطدم بمشهد مثل هذا فجذبتها بعيدًا عن النافذة وأنا أجيبها :

ـ هيدفنوه في الترب ..

فأصرت على مواصلة طرح أسئلتها المرهقة ..

ـ مش الترب دي إللي عند البحر ورا مدرستنا ..؟

ـ أيوه

ـ أمال إنتى قلتيلي قبل كده إن إللي بيموت بيروح عند ربنا في السما .. و عمي مسعود ليه مش هيطلع عند ربنا في السما؟

كنت أعاني لحظتها من إحدى نوبات القولون المزعجة فقلت لها.. ربما لنفسي وأنا أتجه إلى المرحاض:

ـ لحكمة من ربنا .. عشان مش عاوز يلوث السما بوساخات الجسم!! وبياخد الروح بس عنده لأنها نضيفة وطاهرة!!

لكنها أبهرتني بما نجحت فيه رغم سنواتها القليلة وفشلت فيه أنا.. كنا نتابع ذات مساء وبعد أن انتهت من واجباتها المدرسية برنامجًا للأطفال طرحت فيه مقدمته هذا السؤال: ما هو أهم اختراع توصل إليه الإنسان؟ تطلعت إلى شادن وأنا أترقب الإجابات المعتادة لمثل ها السؤال: الطائرة.. الصاروخ .. التليفزيون .. لأصحح لها الإجابة بما يغيب عن الكثير من الناس.. حتى المتعلمين .. بل وبعض المثقفين: أهم اختراع هذا الذي توصل إليه الإنسان البدائي من عشرات الألاف من السنين حين أتى بقطعة من الصخر وحك بها قطعة أخرى ليتوالد الشرار .. الشرارة .. النار هي أهم اختراع في تاريخ البشر لأنها فتحت الباب أمام توليد الطاقة .. وبالتالي كل الاختراعات التي توصل إليها العلماء بعد ذلك من قطارات وسيارات وصواريخ .. لكني قبل أن أنطق داهمتني شادن: الحمام هو أهم اختراع ..! أنا مش عارفة ياماما قبل الحمامات الناس كانت بتعمل أيه!

هل قلت داهمتني ..؟ بل التعبير الدقيق أنها أبهرتني .. شادن بسنواتها القليلة تصالحت مع نفسها وافرازاتها باختراع الحمام .. مواسير وصنابير وشطافات وسيفون .. أدوات كثيرة لإخفاء معالم فعلتنا نقبلها مخرجًا لمأزقنا مع الذات .. مع الجسد .. ونكابد لنجعل من مراحيضنا مكانًا مريحًا بل ومبهجًا بالروائح الجميلة وباقات الورود التي تتناثر في أرجائه.. والسعي لابتكار نماذج مبهرة من " البانيو " و سيراميك وقيشاني بألوان سحرية تسر العين ونحن نمضي الوقت في التخلص من فضلاتنا ..! وربما

عبارة شادن كانت وراء ردي الحاد على هشام حين "ضبطني" وأنا أتسلل إلى الحمام بقدمي اليمين .. فترقب خروجي لينهرني قائلاً:

ـ كم مرة نبهتك إن ده مكان تسكنه الشياطين .. وعليك أن تدخلي بقدمك اليسري وأنت تبسملين أعوذ بالله من الخبث والخبائث ..!

انتظرت إلى أن فرغ من محاضرته لأقول له بحدة: ده كان زمان .. لما كانوا بيعملوها في الجبل والخلاء .. الحمامات الآن أنضف وأجمل من غرف النوم في بيوت كثيرة..!

وأظنه وراء أزمتي تلك .. فما كان قولوني عصبيًا قبل زواجي منه .. الآن لا يمر يوم لا أعاني فيه من فصول القولون الباردة .. وما يستتبع ذلك من اذعاني يأسًا لتلك العلاقة التي تنمو بقوة بيني وبين المرحاض رغم تقززي.. وكثيرًا وأنا رهن جلسات معاناتي داخله أتساءل ساخرة: أهذا أنا.. الدكتورة زينب رضوان التي كل خلية فيها ترتيلة من صلوات أبي القاسم الشابي في هيكل الحب؟! أو هذه وظيفة مؤخرتي التي قلت أنت عنها في إحدى رسائل غوايتك: تلك كانت إرادة ماعت .. آلهة العدالة في مصرنا القديمة والتي ماظلمت أحداً .. أن تمنح ردفيك نصف محصول الإثارة في العالم وتوزع النصف الآخر على كل النساء!

.. كيف لي أن أتقبل هذا.. أن مؤخرتي هي فخر مملكة أنوثتي .. هذا في الحقيقة هو دورها.. نفث قاذوراتي في المرحاض ..؟ أختي فاطمة مفتونة بمؤخرتها.. تقول إنها أكثر مفاتنها استحواذًا على اعجاب مدحت .. حتى أنه حاول أن يخترقها مرة .. لكن هذا لم يكن ممكنًا بسبب ضخامة عضوه ..!"

أيضًا هشام حاول .. ليلتها نهضت من فراشي محمومة بالغضب لألوح له بالآية القرآنية: نساؤكم حرث لكم فأتوا نساءكم من أني شئتم .. ليتهته.. أنه لم يأت نص صريح بالنهي عن ذلك .. فواجهته بالحديث الشريف: من أتى إمرأته من دبرها فهو كافر .. ليواصل تهتهته: حديث ضعيف!!.. إلا أنه

لـم يكـرر فعلته تلك.. لكنني لـم أكف عن التفكير فيما حـدث .. لو أنا مغرمة بهشـام هل كنت سـأواجهه بكل هذا البركان من الغضب حتى لو رأيـت في مثل هـذا الفعل امتهانًا لأنوثتي؟. ومن يدري .. ربما كنت أنت مثل هشـام ومدحت .. ربما كل الرجال هكذا .. هل تتذكر تلك الظهيرة التي ضبطتك فيها وأنت تحملق في مؤخرتي .. بينما كنت أنحني لألتقط كتابًا سقط من حقيبتي في المكتب الذي لم يكن يضم أحدًا سوانا ..! لحظتها قلـت ضاحكًا أنك كنت تمارس تمرينا رياضيًا بعينيك لتنعم بعمر أطول .. سألتك في فضول حاولت قمعه بلكنة ساخرة: أي تمرين هذا الذي تمارسه العيـون ..؟! فقلـت إن باحثـة ألمانية أثبتت من خلال دراسـة علميـة أن تطلع الرجـل إلى أرداف الأنثى لمدة عشـر دقائق يوميًـا يطيل عمره بمعدل خمس سنوات ..! ألم تكذب ..؟ هذا ما شعرت به حينها .. لكن تلك المؤخرة التي تثير اعجابك هي ذاتها سبب أزمتي الإنسانية.

.. حتـى أننـي ظننـت أن تاريخـي المـأزوم علـى غيـر مـا أردت تاريـخ مؤخرتي..!!

مـع نوبـات الامسـاك المذلة التـي تجعلني حبيسـة المرحـاض كل يوم عـدة سـاعات .. وربما بـلا جدوى .. ألجأ إلى وسـيلة شـيطانية .. أدس فوهة "الشـطاف" فـي فتحـة الشـرج كالحقنـة الشـرجية .. أراحني هـذا كثيرًا لكن ليس دائمًا .. فبعد عدة أسـابيع أذهلني اسـتعصاء أمعائي على طوفان الميـاه المندفـع فيها عبر فتحة الشـطاف.. تتزايد معاناتي.. أحرك جسـدي يمينًـا ويسـارًا .. إلى الأمام فالخلـف .. دون جـدوى .. أدس اصبعي في فتحة الشـرج وأنـا أبكـي.. ليس ألمًـا .. بل احساسًـا بالمهانة .. ومـع ذلك تواصل أمعائـي معاندتهـا .. تعاودنـي آلام البواسـير التـي أصبت بها خـلال ولادتي لابنتـي .. لتتوحش مذلتي! اتنتقم منـي مؤخرتي لاحتقاري لها وتوقي الغريب إلـى الملائكيـة ..؟ أجتر ألامي في صمت .. .. لكن أوجاعي من الامسـاك والبواسـير مـا عدت بقـادرة على احتمالها .. " .. ياه .. مـا أقذرنا! تلك العبارة

تقيأتها في قرف وآنا آلملم كياني المبعثر في المرحاض بعد نوبة امساك حادة .. لكنني حين غادرته لفحني المذياع بنجوى ثومة " **الحب كله حبيته فيك وزماني كله أنا عشته ليك** .. فاستطردت: إلا إذا أحببنا! وأصبحت تلك حكمتي المأثورة في الحياة: الإنسان يبلغ زهوته حين يحب أو يبدع أو يفعل خيرًا .. لكن حكمتي تلك التي لا أكف عن ترديدها على مسامع من أعرف ومن لا أعرف لم تنسني أبدًا مأزقي الوجودي .. ذاتي الممزقة بين وجدان ملائكي يسبح فوق السحاب وجسد تعصف به آلام قاذوراته في المراحيض"

طرقت باب طبيبة .. ليس لأن تلك إرادة الشيخ هشام آلا أتعرى أمام طبيب.. فما أخبرته أبدًا بمعاناتي مع الامساك خجلاً .. وللسبب ذاته طرقت باب طبيبة لا طبيب ..!

لكنها تفجعني! تدس اصبعها في مؤخرتي لأزلزل عيادتها بصرخة فشلت في قمعها ..

ولا يبدو علي وجهها الطفولي أية علامات تنم عن احساسها بالقرف..!! يالهؤلاء الأطباء ..!!

تواجهني بنقيصتي التي تحول دون أن أكون .. ليس الكائن الملائكي الذي طالما حلمت به .. ولا حتى ما تخيلته كائنًا من كائنات الحلقة المفقودة بين البشر والملائكة .. بل مجرد إنسانة عادية .. تأكل وتشرب وتفرز بسهولة فضلاتها صباح كل يوم بالمرحاض خلال دقائق ..

ـ هناك شرخ بسيط في فتحة الشرج .. إنت في حاجة إلى توسيع..!!

توسيع ..!! توسيع ماذا .؟.

ـ مفيش داعي للقلق .. مش محتاجين عملية جراحية.. فيه وسيلة تانية أفضل ..!

ـ وسيلة إيه..؟

ـ جلسات أسبوعية هنا في العيادة ..

استسلمت لها .. في الجلسة الأولى بعد أن تمددت على السرير قالت:

ـ نامي على جنبك واكشفي الكريمة ..

ـ أكشف أيه..؟

تجذب وهي تبتسم سروالي إلى أسفل .. يا لجهلي ..! أستاذة النقد والبلاغة لا تعرف ماذا تعني "الكريمة"؟ إنها اسم التدليل للمؤخرة في لغة طبيبتي..!

تدس اصبعها الذي غمسته على ما يبدو في كريم مرطب بفتحة "الكريمة " لينزلق بقدر من المشقة لم يكن كافيًا على اشعال صراخي.. تحرك اصبعها في كافة الإتجاهات حتى أصبحت أشعر بشيء من الاستئناس لوجوده .. أهذه جلسات التوسيع ..؟ لا بأس بها إذن! أخرجت اصبعها .. ونزعت الغطاء البلاستيكي من يدها لتلقي به في سلة المهملات وهي تسألني:

ـ حضرتك بتشتغلي إيه؟ ومضت في طرح الأسئلة عن حياتي الزوجية.. خمنت أنها تملأ بحديثنا فراغ وقت يفصلها عن شيء آخر آت .. وأدركت مآربها .. الكريم الذي غمست فيه اصبعها كان مخدرًا موضعيًا .. إذن ثمة ما يستدعي الصراخ آت ..

ـ خدي نفس عميق ..

وما أن فعلت حتى شعرت بشيء ضخم وشديد الصلابة يخترق مؤخرتي .. أكابد لأصرخ .. أعجزني الألم عن الصراخ لتنهال دموعي في صمت:

ـ عدي لحد ثلاثين ..

هل أجد في العد وسيلة لنسيان آلمي ..؟؟ ٥٤٣٢١ .. . لماذا لا تستأصلون تلك المؤخرة اللعينة ..؟ تسحب قبضة الشيطان من سراديبي السفلية .. ليغمرني ارتياح عميق ..

ـ ميعادنا بعد أسبوع ..

أسأل في مذلة:

ـ مفيش وسيلة تانية..؟

ـ مع كل مرة هيقل الألم ..

تكذب علي .. نفس سعير قبضة الشيطان في مؤخرتي .. بعد خمس جلسات وضعت أمامي شيئًا غريبًا .. خابور خشبي برأس مسحوبة أكثر سمكًا في منتصفه من قضيب مدحت ..

سألتها في رعب:

ـ إيه ده..؟

ـ زي ما إنت شايفة .. روحي لأي نجار علشان يصنع لك واحد زيه .. استخدميه مرة كل يوم .. هذا أفضل من جراحة التوسيع ..!!

وددت لو أبصق عليها .. انسحبت لأعاود التشرنق في قوقعة أوجاعي.. إلى من أذهب ..؟ كان لابد من أن أطل من شرنقتي على صدر حنون أبثه آلامي الغريبة .. هاتفت أختي فاطمة .. انفجرت ضاحكة .. نهرتها بحدة .. فقالت وهي غير قادرة على قمع رغبتها في الضحك:

ـ طيب إذا كانت مسألة خوابير ما عندك هشام يحل لك مشكلتك ..! ولا هيقولك دا حرام ..! في أوض النوم يا دكتورة مفيش حرام وحلال بين راجل ومراته..

هشام ..!! حتى لو حاولت الآن اغواءه .. فهل يفي بالغرض ..!!

بدأت استخدم أصابعي .. اصبع.. اصبعين .. ثلاثة بصعوبة .. وداومت على استخدام بعض الكريمات القوية لمعالجة البواسير .. كانت حربًا للتخلص من آلامي نجحت فيها أخيرًا .. إلا أنها تعاودني من حين لآخر .. فأواجه طلائعها وقبل أن تبدأ غاراتها الشرسة بالمراهم القوية .. لكنني مازلت أعاني من نوبات الامساك .. بدأت أنقب في شبكة الانترنت عن وسيلة لاتقتضي التوجه إلى أطباء .. عثرت على ضالتي في أحد المواقع الطبية ..

تمارين لتدريب وتنشيط الأمعاء باستخدام الكومبيوتر .. اتصلت بالجهاز الهضمي في المنصورة وأنا أتوارى خلف أسلاك الهاتف .. أكد لي طبيب وجود تلك التقنية لديهم .. بحثت بين قوائم الأطباء المناوبين عن طبيبة .. لن أبوح بمأساة مؤخرتي أبدًا لرجل .. وجدت .. كشفت لها في خجل مما أعاني.. بعد إجراء عدة فحوصات سألتها في قلق:

ـ فيه عيب خلقي ..؟

فأجابت بما اراحني:

ـ أبدًا .. بس فيه بعض الكسل في حركة الأمعاء .. التدريبات ممكن تكون مفيدة ..

رددت في قلق:

ـ ممكن .. يعني الأمل ضعيف..؟

ـ في الحالات دي الأمر بايد المريض نفسه ..

استسلم لتعليماتها .. أضطجع على جنبي .. بحيث تبدو مؤخرتي في مواجهتها لتدس أنبوبًا رفيعًا ينتهي طرفه الآخر بجهاز كمبيوتر .. تطلب مني أن آخذ نفسًا إلى الداخل .. أشعر بسائل لزج في مؤخرتي:

ـ حاسة برغبة في دخول الحمام ..؟

يا لعاري .. كانت قد طلبت مني قبل أن آتي أن أتعاطى حقنة شرجية وشربة زيت خروع .. لأنظف امعائي جيدًا ..

ـ أنت متأكدة أنك فرغت كل ما في أمعائك قبل ماتيجي ..؟

رغم أنني غير متيقنة قلت نعم ..

تستمر الجلسة ما يقرب من ثلث الساعة .. ثماني جلسات عبر شهرين خططت لها السماء لتذكرني بما لايجب أن أنساه أو أفر منه .. أسوأ ما في انسانيتي .. حتى أكف عن التطلع إلى الملائكية.. تجتاحني مشاهد ملائكتي حين يتعرضون لمرض عضال ويحزم الطبيب أمره .. لابد من

عملية عاجلة .. حليم في حكاية حب .. وفاتن حمامة في فيلم لا أتذكر اسمه .. والعملية تقتضي إفراغ الأمعاء من قاذوراتها .. أكان لديهم أمعاء وقاذورات! حين تآلفت مع الطبيبة .. سألتها في تعجب:

ـ بعض الناس بينظروا إلى مهنة الطب بشيء من الرومانسية.. لكن.. عفوًا أنا مش شايفة في عملك أي رومانسية .. ما بتحسيش بالقرف..؟

تتجاوب معي ربما لتحقيق مزيد من الألفة كجزء من العلاج:

ـ ده هو قانون الحياة .. مدخلات ومخرجات .. ومكونات المخرجات ما بتختلفش عن مكونات المدخلات .. مواد كربونية على هيدروجينية على .. لكن التفاعلات الكيميائية هي إللي بتمنحها الصورة دي .. والمخرجات زي ما إنت عارفة بتتفاعل مع البيئة .. التربة .. لتدخل في الزراعة مخصبات .. فتنمو المحاصيل وتطرح الغذاء إللي بناكله..! عارفة رواد الفضاء بيشربوا أحيانًا إيه! بولهم إللي بيتم إعادة معالجته..!..

انتهت الجلسات بغير تحسن كبير .. لكنني تعلمت من الممرضة كيف أفعل تدريبات القولون تلك في مرحاض بيتي .. لأحرز في النهاية تقدمًا أسعدني .. أصبحت أمارس وإن كان بصعوبة شديدة عملية الإخراج بغير شطاف وبدون ملينات .. ياه كم أنا سعيدة .. آلا يصيبك هذا بالاستغراب .. الدكتورة زينب رضوان التي كانت تنتشي بقصيدة شعر للامارتين أو أبي القاسم الشابي أو عمر بن أبي ربيعة.. أصبح ما يسعدها صوت فضلاتها وهي تخر في عين المرحاض ..؟ وما أكثر أسماء أدوية المعدة والقولون وعسر الهضم التي تزاحم بشراسة أغاني حليم وثومة وفيروز في الذاكرة..!

لكن .. حتى لو كانت تلك حقيقتنا .. وهي يقينا حقيقة مخجلة ـ تمامًا مثل حقائق أخرى نعرفها وحين صدمنا بها هنري باربوس في روايته الجحيم.. لم نطق ما يقول ـ أو ليس من الرقي إن داهمتنا الأمعاء بإنذار لإحدى انفجاراتها أن نسرع بعيدًا ونتوارى عن الأنظار؟ ورغم ذلك كثيرًا

مـا كنت أتسـاءل في حيرة: تـرى من فينا المنتمي ومن الـلا منتمي .. أعني هشام وأنا!

خبر طريف قرأته منذ سنوات .. السلطات اليابانية اكتشفت أن ثمة سببًا غريبًا لإهدار المياه .. الخجل .. خجل النساء .. إن دخلت إحداهن المرحاض تجذب السيفون مع كل مرة تخرج فيها صوتًا لتحجب زعيق أمعائها بصوت تدفـق الميـاه ..!! أظنهـم لم ينهروا النسـاء علـى أفعالهن الحمقـاء تلك .. بل لجـأوا إلـى وسـيلة طريفـة .. تركيب جهاز تسـجيل في الحمـام يبث قطعًا موسـيقية لفنانين يابانيين وعالميين لتطغى موسيقى بيتهوفن على موسيقى نداء الطبيعة .. لو قرأ هشام هذا الخبر لأثار دهشته .. ليس لرقي اليابانيين.. بـل لتفاهاتهـم .. إنـه لا يرى في الأمـر ثمة مشـكلة .. إن أمعـاءه الثرثارة لا تختـار أبدًا الوقت والمكان المناسـبين لثرثرتهـا .. على مائدة الطعام .. في الفـراش.. في السـيارة .. يبدو أنه يظن أنه طالما نحـن زوجان .. فهذا يعطيه الحـق أن يجعـل مني امتـدادًا للمرحاض .. ينفث في وجهـي .. بل ووجه ابنته غازاتـه الكريهـة .. أكابد في تجاهل ما يحدث .. وفي داخلي أكابد كي تتكيف روحي مع ما يحدث .. دون جدوى .. أهي أزمتي..؟.. الدكتورة زينب الحناوي التي تتمرد على بشـريتها .. أم أزمة هشـام النسخة الكهفية الأولى للإنسـان ..!! أم أزمتنـا نحـن الاثنين حين فشلنا في أن نلتقي عند الوسـط الحسابي المنطقي جدًا .. الكائن الأرضي المتحضر ..!!

وأصارحك القول إنني أخشـى أن يكون حديثي عن غازات زوجي هروبًا ربمـا من شـيء ما أكثـر وجعًا في حياتي معـه؟ ورغم رفضي لتلـك العبارة التـي تنتهي إليها دومًـا أبحاث فرويد: فتش عن الجنـس ..!! إلا أنني كثيرًا ما أتأمل العبارة وأنا أتصفح كتاب حياتنا معًا.. ومنذ أيام قرأت بحثًا لفريق علمي مصري ينتهي إلى أن ٦٠٪ من مشـاكلنا الزوجية لها جذور جنسـية .. أأنا وهشام من ضمن الستين في المئة! أتذكر في صباي هذا الحوار الذي دار بيـن أبـي والنجار الذي أتى به ليصلح باب الدوار .. سـأل النجار أبي قبل

أن يختبر الباب:

ـ فيه إيه يا شيخ رضوان ..!

ـ بيزيق..!

قال النجار:

ـ جايز المفصلات عاوزة تتزيت ..!

ـ يا ما حطيت زيت ومفيش فايدة، فحص النجار الباب .. ثم قال:

ـ الدكر مش ماشي مع النتاية .. علشان كده فتحه صعب وبيزيق..!

أهذا سبب أزمتي مع هشام .. " الدكر مش ماشي مع النتاية "..؟ فاطمة لديها تفسير آخر: هشام دا خام وعلى نياته .. الست منا بتبقى محتاجة راجل فاهم كويس في المسائل دي؟

وهشام ليس هذا الرجل الذي تتحدث عنه فاطمة .. دعني أحكي لك تلك الواقعة الطريفة التي تشي بالكثير من ملامح شخصية رجلي .. جاء لزيارتنا ذات ليلة عميد شرطة من هؤلاء المعنيين بمسألة الجماعات الإسلامية .. عرفت هذا من خلال تلصصي على حديثهم من خلف باب غرفتي .. كان ثمة آخرون من قيادات جمعية أحباء الرسول .. وبدا عميد الشرطة متبسطًا في حديثه .. ربما هي وسيلة يتعلمونها في كلية الشرطة لكسر الحواجز النفسية التي تفصلهم عن الآخرين .. ومنح هؤلاء الآخرين الاحساس بالفخر لأن عميد شرطة يتبسط معهم في الحديث .. لا أدري .. كان الحديث عن سيارته التي تعطلت واستدعى هشام ميكانيكي من القرية لفحصها .. قال الضابط:

ـ يا أخي العربيات دي زي النسوان .. الاتنين بيتركبوا .. والاتنين لا إنت طايقهم ولا إنت تقدر تستغنى عنهم!

استقبلوا دعابته بنوبة من الضحك .. ربما لا يخلو بعضها من الافتعال .. لكنني في مكمني كبحت بصعوبة رغبتي في الضحك لبلاغة التشبيه

الذي أيضًا سرت جمالياته في جسدي موجة من الإثارة قمعتها الدكتورة زينب رضوان بشدة احتجاجًا على تلك اللغة المبتذلة التي يتحدث بها عميد الشرطة عن النساء!

ضحكاتهم حفزته على أن يواصل ..

ـ مراتي بحبها .. بس معكنناني باخواتها وأولاد أخواتها .. كل شوية جايين وعاملين هيصة .. مش بعرف أنام .. زعقت لعيل منهم.. فغضبت وراحت عند أهلها .. مش عارف أعمل أيه معاها!!

فقال أحدهم:

ـ عليك يا باشا بسنة الله ورسوله .. واهجروهن في المضاجع .. وإذا لم يفلح الهجر اضربوهن ضربًا خفيفًا .. هذا خير علاج لمخلوقات خلقن من ضلع أعوج ..

ـ ما هي علشان اتخلقت من ضلع أعوج سابت البيت .. يبقى إيه العمل دلوقتي ..؟

قال أحدهم:

ـ الصلح خير يا باشا ..!

قال الباشا ضاحكًا:

ـ إزاي واللي كان بيصالحها مات!

لم ينتبه هشام إلى اللكنة الساخرة فقال باهتمام:

ـ رحمة الله عليه .. عمومًا يا باشا فيه غير المرحوم أولاد حلال كتير!

اشتعل المجلس بقهقهاتهم .. لا أدري لماذا .. وزاد هشام:

ـ صحيح يا باشا.. أهل الخير والمروءة بين المسلمين كتير.. وبإذن الله إذا قصدت واحد منهم مش هيخذلك..!!

ولا أدري لماذا ارتفعت قهقهاتهم؟ حكيت الموقف لفاطمة حين جاءت لزيارتي .. فكاد يغمى عليها من الضحك .. فسألتها في دهشة:

ـ إنت هتعملي زيهم ..!! إيه إللي بيضحكك!

فقالت وهي لا تستطيع أن تسيطر على نفسها:

ـ هشام هيفضل طول عمره كده أبيض .. مش فاهم حاجة .. وإنت كمان .. الظابط لما قال إللي كان بيصالحها مات كان بيقصد عضوه ..!

شهقت فيها في دهشة:

ـ وإنت إيه إللي عرفك بالحاجات دي ..؟!

ـ يعني مرات واحد زي مدحت .. هتكون إيه!

ـ هم الرجالة دايمًا بيفكروا بالشكل دا!

لكن واتاني خاطر آخر غريب .. رغم تلك اللغة الذكورية المبتذلة إلا أنها كنز من الجماليات .. هل يمكن أن يأتي الوقت الذي يظهر في أوساطنا الأكاديمية باحث جريء يحمل كفنه على كتفه ويفتش في لغة الشوارع عن تلك الجماليات .. .؟! أظنك لست في حاجة إلى أن أسرد عليك شيئًا منها فما تستشهدون به في مجالسكم من هذه الأمثلة يكفي لشغل جناح في مكتبة الأسكندرية وربما الكونجرس ..

***

ذات صباح استيقظت المعصرة على جدل شديد .. الأستاذة فادية عبد اللطيف اختيرت من قبل المحافظة رئيسة لمجلس القرية.. أسلاك الهاتف اشتعلت بجدل أعضاء الجمعية .. اتفقوا على اللقاء في منزلنا .. سألت هشام رأيه .. قال: هو مفيش في القرية أو المركز أو المحافظة رجالة علشان يختاروا حرمة! يذكرني برسالة الخليفة العباسي الساخرة إلى مماليك مصر حين عرف أنهم ولوا الأمر شجرة الدر بعد وفاة زوجها الملك الصالح.. فذكرته بأن شجرة الدر هي التي قادت المصريين بحكمة بعد وفاة الملك الصالح إلى أن انتصروا على جيوش لويس التاسع وأسروه .. بينما الخليفة الذي سخر منها ومن المصريين لم يستطع حماية بغداد من جيوش هولاكو .. وبهدوء حاولت أن أهيئه لتلك الحرب التي ستشتعل في لقائهم المرتقب بمنزلنا:

ـ إيه رأيك يا هشام فيَ ..؟

نظر إليَ متسائلاً في توجس:

ـ مش فاهم ..؟

قلت:

ـ مش شايفني أقدر على رئاسة مجلس القرية ..؟

ـ مفيش في كتاب الله والسنة الشريفة ما يؤيد هذا .. تولية امرأة أمور المسلمين .. إزاي؟! دا معناه أن تختلط بالرجال ..؟!

ـ معنى كده إنك غير متحمس لعملي في الجامعة ..! أنا شغلي كل يوم مع الطلاب والأساتذة .

ـ في الجمعية بيستغل خصومي ده ليتخلصوا مني وكمان كونك مش لابسة نقاب .. والله أعلم إني ما سعيت لرئاسة الجمعية إلا لخدمة المسلمين ..

ـ وخدمة المسلمين تستدعي إنك تجدد فكر الجمعية ..

ـ إيه يا دكتورة ..؟ برضه بترددي كلام العلمانيين الكفرة.. وكلنا عارفين إن هدفهم من الحديث عن تجديد الفكر الديني هدم الدين..!!

ـ عارف ابن رشد قال إيه عن المرآة ..؟!

ـ ومين ابن رشد ده ..! واحد منهم ..؟

كدت أصيح في وجهه .. أمير جمعية إسلامية تبشر بما تراه صحيح الدين ولا يعرف من هو ابن رشد ..؟ قمعت ألسنة الغضب في داخلي حتى لا يفر من بين يدي فأخسر المعركة ..

ـ مفكر مسلم .. " لم أشأ أن أصفه بفيلسوف .. فكل فيلسوف في منظور هشام وجماعته زنديق وكافر .. وكل فلسفة مروق عن الدين".. أردفت بهدوء وبغير تعالي ..

ـ اسمه بالكامل أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد.. ظهر في الأندلس من ٨٠٠ سنة .. وقال عن هذا الأمر: لاخوف على المملكة من قبض النساء على أزمة الحكم فيها ..

وحفزني صمته في أن أواصل غارتي بهدوء:

ـ ألست يا هشام في كثير من المواقف أكثر حكمة وحزم من الرجال.. مش بتبكوا دلوقتي على مجد المسلمين الضائع في الأندلس .. مين السبب ..؟ راجل .. أمير غرناطة .. أبو عبد الله الصغير إللي استسلم وسلم المدينة لست.. إيزابيلا .. ملكة قشتالة .. ولو سمع أبو عبد الله لصوت ست تانية لقاوم جيوش إيزابيلا وما سلم المدينة .. صوت أمه إللي نهرته لما انهار وقالت له: إبك كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال ..

ينصت إليَ حائرًا فأواصل متشبثة بهدوئي ..

ـ والنبي الكريم مش لجأ إلى زوجته خديجة يلتمس منها القوة والمشورة لما نزل عليه الوحي أول مرة .. وصاحبته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل عشان تسأله تفسير للي حصل للرسول ..! خديجة كانت خير عون للرسول في نشر دعوته .. ويا ريتك تتخيل موقف الرسول في مواجهة قريش بدون سند من خديجة .. وعائشة .. أم المؤمنين ممكن يراودنا الشك في إيمانها وحسن تصرفها ..؟

ـ أعوذ بالله .. ما بيقلش ده غير الشيعة الكفرة ..

ـ عائشة خرجت خلف جيوش المسلمين في موقعة الجمل .

صاح في انفعال:

ـ ما كانش قصد أم المؤمنين إلا حث المسلمين على عدم التقاتل مش التحريض زي ما بيدعي الشيعة والمستشرقين.

ـ طبعًا .. طبعًا .. معاك حق .. لكن قامت بدور .. تركت المدينة إلى الكوفة لتقوم بمهمة عظيمة ..

بدا مأخوذًا بما أقول .. لكنه فاجأني:

ـ وميـن أدرانـي إن بعض إللي بتقوليه ده مش اسرائيليات دسها اليهود علينا لتتولى أمورنا النساء فتضيع الأمة ..!

قلت بصبر:

ـ سمعت ياهشام عن امرأة اسمها جولدا مائير ..!

ـ مش دي رئيسة وزراء إسرائيل في حرب العاشر من رمضان ..

ـ لو كان إليهود بيعتقدوا مثل ما نعتقد أن النساء ناقصات عقل ودين لما ولوا أمرهم واحدة ست أنقذت دولتهم من الفناء .. '

تحينت الفرصة لألقي في وجهه بأسباب تخلفه وجماعته:

ـ يا ريت يا هشام تقرأ .. من حسن الحظ عندنا مكتبة تضم كتب من كافة الثقافات .. ليه مش بتحاول تقرأ منها .. مركزك مهم كرئيس

للجمعية .. وعشان كده لازم تقرأ الكتب دي عشان تبقى متميز بثقافتك عن زمايلك في الجمعية ..

ـ أنا محتاج كتبك دي في إيه إذا كان عندي الأعظم .. كتاب الله والصحيحين والتفاسير وابن تيمية والألباني وغيرهم من شيوخنا الأجلاء .. كتب تقربني من الجنة ..!!

قلت في صبر:

ـ هي كتب مهمة .. لكن فيه ثقافات تانية .. وحضارتنا الإسلامية ما تأسست إلا باهتمام خلفاء المسلمين بترجمة معارف الشعوب الأخرى وعلومها إلى العربية .. دا مرة المسلمين انتصروا على جيوش الدولة البيزنطية في معركة كبيرة .. تعرف خليفة المسلمين طلب إيه علشان يفك أسرى البيزنطيين .. كتب في الحكمة والطب والكيميا والفلك .. وأظنك عارف إن الرسول الكريم أمر واحد من أصحابه بتعلم لغة قوم كانوا يعادون المسلمين .. ليه..؟ ليعرفهم فيأمن مكرهم .. ولا مانع من أنه ياخد ما هو صالح عندهم .. الخندق إللي أشار به عليه سليمان الفارسي .. وهو تقليد يتبعه المجوس عبدة النار .. مش هو إللي أنقذ المسلمين في موقعة الأحزاب!

قال وهو ينصرف مبديًا عدم إقتناعه.

ـ وتولية النساء مش ده تقليد بيتبعه الغرب العلماني الكافر .. عاوزانا نطبقه نحن المسلمين ..!!

لكنه مساء حين اجتمعوا حدثهم عن ابن رشد والسيدة خديجة و جولدا مائير وزاد من عنده مارجريت تاتشر .. إلا أن غالبيتهم احتشدوا ضده فهزموه.. وداهمني أحدهم .. الشيخ صالح أبو لبدة الذي يواصل صراعه لاقتناص رئاسة الجمعية ..

ـ هشام الغازولي زي ما إنتم شايفين يا أخوان متهاون في أمور الدين.. ومن واجبي تحذيركم من استمراره في رئاسة الجمعية.

وصاح أحد أتباعه _الشيخ سيد الهلالي _ في سخرية :

_ كيف يتأتى لرجل القدرة على تسييس جماعة المسلمين وهو مش قادر على تسييس أهل بيته ..؟!

أيقصدونني ..؟! حتمًا سيحمل هشام هذا الشاب ويلقي به من النافذة .. لكنه فاجأني .. بدا صبورًا على ما لحق برجولته من اهانة واكتفى بالقول في هدوء:

_ والله يا آخ سيد لو ماكنتش في بيتي لقطعتك حتت أكبرها في حجم النملة ..!!

تدخل بعض الأخوة للتهدئة .. وتواصلت اجتماعاتهم المحمومة.. آخرها كان في المسجد .. قبلوا برئاسة الأستاذة فادية لمجلس القرية .. قال لهم ضباط شربين: هذا توجه عام في الدولة الآن تقوده السيدة حرم رئيس الجمهورية ولاينبغي مقاومته! عرفت هذا من خلال تلصصي على مكالمة هاتفية بين هشام وأحدهم .. لكن ما خفي عني كان أمرًا جللاً .. هذا الذي داهمتني به زهرة .. بدت مضطربة وهي تدلف إلى حجرتي .. تطلعت إليها في ارتياب:

مالك يا زهرة .. فيه إيه ..؟

يزداد اضطرابها:

والله مش عارفة أقولك إيه يا دكتورة؟

شعرت بالقلق:

قولي يا زهرة .. فيه إيه؟

أنا سمعت أن الشيخ هشام خطب زكية أخت الشيخ صالح أبو لبدة..!!

يهوي جسدي فوق المقعد الخشبي .. هل ألطم الخدود مثل أي فلاحة أمية تصفع بخبر زواج رجلها بأخرى ..!! ما الفرق .. أنثى يطعنها رجلها في أعز ما تملك .. أنوثتها!

زكيـة عبد القادر أبو لبدة .. أرملة في الخامسـة والعشـرين من عمرها.. مات زوجها بتليف الكبد .. خلف وراءه ثلاثة أطفال .. صفقة ألقى من خلالها الشيخ صالح عبء إعالة أخته وأولادها الثلاثة على عاتق هشام في مقابل أن يغمض عينيه عن كرسي الرئاسة .. وربما افتعل أمر تطلعه لرئاسة الجمعية لإربـاك هشـام ودفعه فـي النهاية إلـى القبول بحل المقايضـة .. وكله تحت لافتة الإسلام .. إعالة اليتيم وانقاذ الأرملة الشابة من غواية الفتنة ..!! لكنه التفسـير الجنسـي للتاريخ .. ألم يكـن يفعل الخلفاء والملـوك هذا.. يحلون صراعاتهم بالمصاهرة ..! هشام وصالح أبو لبدة يسيسان أمر الجمعية تمامًا مثل الملوك ..ودائمًا مواكب المصالحة تسير فوق جسد امرأة ..!! ربما أدرك الشيخ صالح أن طموحه لاقتناص كرسي الرئاسة لن تباركه شربين.. فلا عائلته في منزلة عائلة هشام .. ولا قبل له بنفقات الجمعية .. صحيح أن هناك تبرعات لكنها لا تفي بأنشطة الجمعية فيضطر هشام إلى سد العجز .. وهو سـعيد بهذا .. ميزة لا يملكها غيره من أعضاء الجمعية تعضد من مكانته رئيسًا لها .. وكثيرًا ما كان يحشر الحقيبة الخلفية لسيارته بالبط والأوزو أجولة الأرز.. هدايا لقادة الجمعية في المحافظة والمركز.. أسـاليب يداري بهـا مـا يعانيـه من أنيميـا الثقافـة الدينية .. فـكل ما في ذاكرتـه الجزآن اللـذان حفظهما في كتاب الشـيخ شـحاتة البهوتي قبل أن يلتحق بمدرسـة الوحـدة المجمعة بالإضافة إلى بضعة عشـرات مـن الأحاديث النبوية.. ومنذ رئاسته للجمعية استولى على ركن من مكتبتي يدس فيه كل حين كتابًا للألبانـي أو ابـن العثيميـن .. يعود إليها بيـن حين وحين كلمـا أراد أن يبني رأيًـا حـول النقـاب أو التليفزيـون أو الأغاني أو الاختـلاط .. وهدفه أن يزيد من أسـلحته التـي تمكنه من الاحتفاظ برئاسـة الجمعيـة.. لكنه لو صمد في وجه تطلعات الشـيخ صالح لانتهى الصراع على الرئاسـة لصالحه .. دون أن يرضـخ لتلـك الصفقة الكريهـة .. إلا إذا كان هذا مآربه .. زوجة ثانية..! وضرتـي علـى قدر فائـق من الجمـال ..! لقد رأيتهـا .. بل كانت نـار الأنثى المجروحـة بداخلي الوقـود الذي قادني إلى بيتها لأراها .. بحت برغبتي تلك

لزهرة.. التاعت لخططي .. لكنها أمام تصميمي رضخت .. وسألت:

ـ طيب إزاي ..!!

ـ أنا سمعت أن شقيق جوزها كان بيربي بهايم لحساب الناس.

ـ أيوه .. زينهم .. دا اسمه ..

ـ هنروح أنا وإنت بيتهم بحجة إن حد من أخواتك عاوز يشاركه في جاموسة ..

ـ بس .. بس كده الموضوع مفقوس قوي .. ماهم هيسألوا وليه احنا ما بنربيش .. ودوارنا مليان بهايم! واشمعنى دلوقتي بالذات.

صحت في لوعة:

ـ ما هو أنا لازم أشوفها ..

تطلعت إليَ في اشفاق .. لتباغتني ..

ـ بتحبيه يا دكتورة ..!!

تمتمت في ذهول:

ـ بحبه!!!

أكتر من مرة سألتك السؤال ده وما كنتيش بتجاوبي .. بس أنا حاسة إنك فعلاً بتحبيه .

أتجاوز سطوة ضياعي سريعًا ..

ـ دي حاجة ما لهاش دعوة بالحب يازهرة ..

نعم .. الدم النازف من شرايين كبرياء الأنثى هو الذي يخط طريقي الآن .. لكنه ليس طريقًا .. بل تيها .. ولا مفر من أن تغوص أقدامي فيه إلى أن أجد طريقًا آخر للخلاص .. الغوص في التيه الآن ربما بديل عن خيار آخر أحس بدبيبه في شرايني .. انفجار في المخ .. جلطة .. ارتفاع مفاجيء في الضغط أسقط على أثره إلى غير رجعة .. رؤية تلك المرأة خطوة في تيه العبثية.. أعلم

.. لكنها قد تعني لإمراة مجروحة مثلي الكثير .. شيء ما لا أعرف كنهه .. لكنه يتجاوز حتى شهوة الفضول..

وكأن زهرة أدركت ما بداخلي .. فحاولت أن تقدم حلاً :

ـ طيب إيه رأيك في كوثر جارتنا .. أهم ناس ما عندهمش بهايم ولا دوار .. كوثر صاحبتي ومش هترفض لي طلب .. وبعدين هي نبيهة وتعرف تقوم بالتمثيلية صح .. المسألة كده ممكن تبقى محبوكة .

ـ بس أنا علاقتي بها مش قوية .. يادوب صباح الخير .. صباح النور..

ـ باقولك دي صاحبتي .. وبعدين هي بتحبك .. بس مش قادرة تقرب منك .. مش لاقية سكة معاك .. سيبي الموضوع دا علي .. كمان هي كتومة ومش هتجيب سيرة لحد ..

ـ أيوه .. الموضوع ده مش عاوزة حد يعرفه ..

انشطرت زهرة عني دهرًا .. أكثر من ساعة .. وأنا لا أكف عن مراقبة البوابة تلهفًا لخطوات عودتها .. ويبدو لأنها أنثى تدرك أهمية هذا العبث لإمرأة مطعونة .. هرعت إلى شقتي بمجرد أن عادت يسبقها شعاع ابتسامة النجاح لمهمتها :

ـ وافقت وقالت لي النهاردة .. واتفقنا إنكم تمشوا على المغربية

ـ وليه المغربية ..؟

ـ هشام بيروح يصلي المغرب في جامع السنيين ويفضل مستني لغاية ما يصلي العشا .. يعني كده نضمن إنه مش موجود علشان ما يحسش بحاجة .. وبعدين كمان علشان نضمن إن صاحبتك موجودة في البيت.. لو كانت مثلاً هتروح تزور أخوها الشيخ صالح فهيكون بعد المغرب.. بعد ما الليل يدخل ..

ـ معني كده إن ممكن ما تكونش في البيت ..!

ـ بإذن الله هنلاقيها .. إللي زي دي ما بتخرجش إلا لزيارة أخوها .. وزي

ما قلتلك .. الزيارات دي بتبقى بالليل.

ـ وافرضي كانت موجودة وما طلعتش لنا؟

ـ لأ .. كوثر هتطلبها .. على أساس أنها تعرفها وتقول لها الموضوع وهي تبلغه لأخو جوزها .

ـ طيب وآنا إيه في الموضوع ده .. ؟.

ـ إنت قريبة كوثر أو صاحبتها .. والفلوس إللي عاوزين تحطوها في البهايم فلوسك ..

ـ بس لو وافقوا .. ها تبقى مشكلة ..

ـ قوللي إن لك الثلثين وهما الثلث .. في الحالة دي مش هايوافقوا .. الناس بتمشي على النص لصاحب البهيمة والنص للي بيربي ..!

كان يتعين عليَ أن استسلم لما كان يثير غثياني .. ولو لمدة ساعة .. النقاب.. هذا الذي خضت بسببه معارك طاحنة مع هشام الذي كان يحدوه الأمل أن أرتديه يومًا .. ليتخلص من أعظم نقائصه أمام رفاق الجمعية .. تبرج زوجته .. وأي نقاب ينبغي أن ارتديه حتى يكتسب زواجي برئيسهم صفة الشرعية .. نقاب أسود لا يظهر سوى عين واحدة تمامًا كقرصان بحر الدماء .. هذا الفيلم الذي شاهدته في التليفزيون مرارًا! أتذكر تلك الليلة التي عاد فيها من مسجد السنيين .. بدا وجهه مكفهرًا .. سألته:

ـ مالك يا شيخ هشام؟

وكأنه كان يترقب سؤالي بلهفة لينفجر:

ـ اسمعي يا دكتورة .. إنت بوضعك ده حطاني في موقف صعب قدام أعضاء الجمعية ..

في دهشة:

ـ وضع إيه وصعب إيه؟ مش فاهمة ..

ـ مش ممكن الجمعية بتخطط لحث نساء القرية على لبس النقاب..

وزوجة رئيسها متبرجة!

ـ فيه حد قالك حاجة الليلة!!.

ـ هو الليلة بس؟ كل يوم وكل اجتماع .. والشيخ صالح أبو لبدة إللي لابد لي في الدرة عشان ياخد الرئاسة ماسكها عليَ وبيحرض أصدقاءه في الجمعية يحرجوني .. وأكتر من واحد الليلة قالها : إزاي هنحكم حريم المسلمين ورئيسنا مش قادر يحكم بيته! .. لازم يا دكتورة تنتقبي .. لازم ..

ـ ما تجبرنيش على حاجة مش موجودة حتى في الشرع ..

ـ إزاي مش موجودة في الشرع ..! آمال حديث ابن عباس يبقى أيه؟

ـ مفيش حديث بيحض على النقاب ..

ـ إللي نقله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإللي بيقول فيه:

أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن ويبدين عينا واحدة "

ـ الكلام إللي قاله علي بن أبي طلحة مردود عليه من ناحية السند وكمان المتن .. لأن فيه واقعة حصلت أمام ابن عباس نفسه تنسف الكلام ده .. اسمع يا هشام أنا مستعدة أتناقش معاك بعقل مفتوح وإذا أقنعتني هالبس النقاب من النهاردة ..

ـ واقعة أيه ..؟

ـ إللي رواها سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم جاءت في حجة الوداع تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما إذا كان يجوز لها أن تحج نيابة عن أبيها الضعيف .. وكانت امرأة جميلة الوجه.. وكان الفضل بن العباس يركب في ذلك اليوم خلف رسول الله على ناقته فجعل ينظر إلى المرأة وتنظر إليه .. فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر .. وفي بعض ألفاظه: فلوى رسول

اللـه صلى الله عليه وسـلم عنق الفضـل.. فقال له ابن عباس: يارسـول الله لماذا لويت عنق ابن عمك؟ فقال صلى الله عليه وسلم " رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما ".. وفي رواية " فلم آمن عليهما الفتنة " والحديث ده بتمامه في الصحيحين .. فإزاي عرف ابن عباس أن المرأة جميلـة وعلـى إيـه كان بيتطلع الفضـل إلا على وجه المرأة السـافر .. الحديـث إللـي رواه ابن أبي طلحة حديثه هو مـش حديث ابن عباس .. وجايز ابن أبي طلحة ما قالش حاجة!

أظنه يهرب إلى مزيد من التشدد!

ـ هـي المسـألة قاصرة علـى النقاب بـس!.. علماؤنا إللـي فاهمين صحيح الديـن بيذهبـوا إلـى أكتر من كده .. النووي وهو من شـيوخ الشـافعية الأجلاء بيقول إنه لا يجوز أن يرى رجل امرأة ما.. ولاترى امرأة رجلاً ما.

ـ أخطـأ شـيخكم .. والدليل واقعـة وفد الأحباش إللـي رواها أحمد بن حنبل عن عائشة وإللي بتفيد أن وفد الحبشة كانوا بيلعبوا عند رسول اللـه فـي يوم عيد .. عائشـة قالت " فاطلعت من فـوق عاتقه فطأطأ لي منكبيه، فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت .. " ولو كان محرمًا على النساء رؤية الرجال أو العكس لمنعها الرسول من مشاهدة الأحباش ..

ـ هـذا حديـث مردود عليـه .. شـيخنا النووي بيقـول إن عائشـة كانت صغيرة لم تبلغ بعد .. طفلة .. عشان كده الرسول ما منعهاش ..

ـ كلام النووي هو المردود عليه .. ابن حجر تعقبه وذكر أن قدوم وفد الحبشـة كان سنة ٧ للهجرة .. يعني بعد بناء الرسول بها بفترة طويلة.. كان عمرهـا فـي الوقـت دا ١٦ سـنة .. اسـمع يا هشـام .. كل الأئمة الأربعة اتفقوا على أن وجه المرأة مش عورة

ـ وأحمد بن حنبل مش من الأئمة الأربعة ..؟ روايته..

أقاطعه مكابدة في هدوء:

ـ المنقـول عنـه رواية ضعيفة مـا تتفقش حتى مع المقـرر من مذهبه زي مـا قال ابن قدامة الحنبلي .. ليه إنتم بتجروا ورا الضعيف من الروايات والمتشدد والشاذ ..؟

ـ ضعيـف إيـه وشـاذ إيه يـا دكتورة ..؟ مـا هو إنـت لو بتقري قـرآن ها تلاقي الآية واضحة .. بسـم اللـه الرحمن الرحيم " قل للمؤمنين يغضوا مـن أبصارهـم ويحفظـوا فروجهم ذلك أزكـى لهم لأن اللـه خبير بما يصنعـون، وقل للمؤمنات يغضضن مـن أبصارهمن ويحفظن فروجهن ولا يبديـن زينتهـن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبديـن زينتهـن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آبـاء بعولتهن ". ودا نص صريح على فرض النقاب على المرأة يا دكتورة ..

ـ بل العكس الآية بتقول غير كده .

قفز من مقعده وهو يصيح في انفعال:

ـ إيه يا دكتورة .. إنت هتفسري كلام الله على مزاجك ..؟!

سريعًا.. حاولت سحب أي بساط للفرار من تحت قدميه ..

ـ بهدوء يا هشام .. احنا بنتناقش وجايز كلامك هو الصح..

ـ مش كلامي.. دا كلام الله "وليضربن بخمرهن على جيوبهن "

ـ والجيوب هي فتحة الجلباب من ناحية الصدر وما لهاش علاقة بالوجه.. يبقى المطلوب من الست هو حجب الصدر والعنق مش الوجه .. ولو مش مصـدق المكتبة قدامك أهي فيهـا كل المعاجم .. دور براحتك على معنـى جيوبهـن .. وبعدين لـو كانت الآية تقصد تغطيـة الوجه ليه ربنا سـبحانه وتعالى يأمرنا رجالة وسـتات بغض البصر ..! يعني إذا كانت الست مغطية وشها يبقى إيه معنى إن الراجل يغض بصره وما يبحلقش في وشها .. وبعدين الآية إللي بتقول " ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها " .. إذا كانت الست متغطية بالكامل .. نقاب على الوش وقفازات في

الأيدين .. يبقى الزينة فين إلا في الوش والكفين ..!

ـ يعني إنت عاجبك المساخر إللي بتحصل في الشوارع ..! مش إنتم بتتشدقوا بالمنطق والعقل .. المنطق والعقل يقولوا لازم عن النقاب .. يا بنت الناس أعداء الإسلام كتير ولأنهم عارفين قيمة المرأة في ديننا عاوزين يضربوه من خلالها وابعادها عن شرع الله .. وكانت الخطوة الأولى من خطوات الشيطان إللي نهانا ربنا عز وجل عنها هي كشف وجه المرأة .. الإسلام حرم الزنا وكشف الوجه ذريعة له .

" هل كشف وجهي وراء افتتانك بي واستحضارك لطيفي في مخدعك..؟ وأنا حين أفعلها .. أشكلك بخيالي فارسًا نبيلاً في مخدعي أمرجعه تهاون أولي الأمر في تطبيق ما تراه جمعية الشيخ هشام صحيح الدين الحظر الكامل ليس فقط الاختلاط بين النساء والرجال .. بل حتى مجرد الرؤية؟ لا هذا ولا ذاك .. بل هو الحرمان من الحب .. فإن كنت زانية .. فأظنه هشام وربما غالبية البشر المحرومون من الحب أيضًا زناه .. فلا أعتقد أن نوبات المتعة التي يفتعلها هشام ذاتيًا وهو نائم بجواري لا يمكن أن تجري دون استحضاره امرأة أخرى .. إن لم يكن لها وجود في الواقع .. فخيال النصف الأسفل لهشام ليس بعاجز عن تشكيل أنثى مفرطة في فتنتها ..! لا شيء فيها من زوجته زينب الحناوي"

هل أقنعته ..؟ ربما أثرت اضطرابه وحيرته .. لكنه بعد يومين لجدلنا ذاك .. فوجئت به يطلب من أم صابر الشغالة أن تساعده في تفريغ حقيبة السيارة من كتب .. لم تكن كتبًا .. بل نسخًا بالمئات من كتيب عنوانه " النقاب طريق المرأة المسلمة إلى الجنة " .. تصفحته ليداهمني بغرائب الأراء وأكثرها شذوذًا وكلها تنذر النساء بعذاب أليم إن لم يرتدين النقاب.. وليس أي نقاب .. بل هذا النقاب الذي وضع شروطه أحد شيوخهم في صحاري الربع الخالي كما وردت في الكتيب .. ومن وجهة نظر هذا الشيخ أن النقاب الذي يبين العينين والحواجب غير شرعي .. والنقاب الشرعي

أيضًا من شروطه ألا يكون ملفتًا وبدون تطريز ولا يكون ضيقًا .. ولونه أسود ..!!

وفي صباح اليوم التالي استقبل هشام عددًا من الشباب الصغير وزع عليهم أعدادًا من الكتيب ويصدر تعليماته لهم .. من سيتوجه إلى بهوت ومن إلى نبروه ومن إلى طلخا ومن إلى بلقاس .. والستاموني والعديد من المدن والقرى المحيطة ..

وسمعته يقول لهم محذرًا :

ـ أنا مش عاوز تقفوا وتوزعوا الكتيب بشكل مباشر .. إنتم بتوزعوا أشرطة الكاسيت إزاي؟

رد أحدهم:

ـ بنركب تكتك أو بيجو أو ميكروباص .. ولما بنلاقي السواق مشغل شريط أغنية بنديه الشريط إللي معانا ونستسمحه في تشغيله .. واحنا نازلين من العربية بنقوله خللي الشريط لك .

ـ في توزيع الكتيب خلوا المسألة غير مباشرة .. يعني وإنت نازل سيب الكتيب مكانك وكأنك ناسيه في العربية .. ممكن هيقع في إيد حد يشده عنوانه ويقرأه .. أو يديه لأخته أو مراته.. فتقراه .. فتخاف من غضب ربنا وترتدي النقاب ..!

وها أنا يتعين علي ولو لمدة ساعة رضوخًا لمنطق الأنثى أن أتكفن في نقاب الشيخ هشام وجمعيته ..

***

obeikandl.com

أتتني زهرة بواحد من عند كوثر .. تلك هي الوسيلة الوحيدة لأواري د. زينب الحناوي .. وهي تسبح في نهر دماء كبريائها إلى مرفأ غريمتها .. وكأنني لا أنتمي إلى المعصرة .. أتبع كوثر عبر دهاليز وسكك ضيقة إلى مشارف البحر حيث يقبع بيت عروس زوجي المرتقبة .. أهي مؤامرة ..؟ أن أدنو من تلك الأرملة لأراها ..؟ بل فعل غريب يغيب تفسيره عن كل أنواع المنطق إلا منطق واحد.. منطق الأنثى المجروحة .. دراسة أميركية أكدت هذا.. المرأة السوية يمكن أن تتحول حتى إلى قاتلة إذا شعرت أن أنوثتها معرضة للخطر ..!

لم أر بحرًا .. بل ترعة بائسة تفصلها مشاية ضيقة عن عشش طينية شديدة الانخفاض .. أين البحر الذي كان يروعنا اتساعه ورهبة موجاته الهادئة المنسابة في جلال ..؟ ألتلك الترعة التعيسة أعماق سحيقة تستوطنها الجنية التي خطفت خيرة شباب البلد في الزمن البعيد ..؟ بحت بخواطري لكوثر ربما هروبًا من براثن القلق داخلي فقالت ضاحكة:

ـ البحر ماصغرش يا دكتورة .. احنا إللي كبرنا ..!!

سألتها:

ـ تعرفيها منين؟

ـ ضرتك ..! كانت زميلتي في مدرسة التجارة الثانوية ..

ثم استطردت ضاحكة:

ـ وبعدين إنت نسيت ..؟ مش أنا وهي زي بعض .. بقر شايع .. ما نقدرش نعيش من غير راجل!!

قالتها بدلال أنثى لا يخلو من السخرية .. فقلت مبتسمة:

ـ بس فيه فرق .. أهلك ناس مش متحضرين زي أهلها إللي شايفين إن بنتهم إنسانة من حقها تجرب حظها تاني وتبدأ حياتها من جديد ..

ـ بس أخويا سلامة إللي في الكويت مش زي أخواتي التانيين.. دا مخه متنور وبعت لي جواب قال أما ينزل أجازة هيخلص الموضوع.

في إحدى تلك العشش تقطن غريمتي .. ليست عشة تحديدًا .. بل شيئًا أكبر من هذا .. ثمة غرفة فوق السطوح تعلوها أكوام القش.. كان موجودًا مثلها في منزل عائلة أبي القديم كما حكت لي أمي وكانوا يسمونها المقعد .. لأنها كانت استراحتهم في العصاري الصيفية؟ .. تبدو حوائطها الطينية جلية تحت ضوء مصباح كهربائي يتدلى من إحدى درجات سلم خشبي اتكأ على أحد ها ..

أمسكت كوثر بمطرقة حديدية صدأة تتدلى من الباب الخارجي وشرعت تطرق .. لنفاجأ بخربشة بين عيدان الغاب على ضفة البحر لتنفرج عن طفل صغير عار إلا من قميص داخلي يرفعه بيديه بغير حرص إلى أعلى بطنه .. يمرق من بيننا ليدفع الباب راكضًا إلى الداخل.. وبدا من رائحته النفاذة أنه كان يتبرز بين عيدان الغاب.. وبعد لحظات ظهر شبح طفل ثان من خلف الباب ..

ـ مساء الخير

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ـ الست زكية موجودة؟

ـ مين عايزها؟

ـ أنا صاحبتها كوثر ..

يختفي داخل الدار وهو ينادي:

ـ أماه .. أماه .. فيه واحدة اسمها كوثر عاوزاك ..

تكتم كوثر ضحكتها .. قلت في غيظ مكتوم:

ـ هتسمعي من ده كتير في بيتنا لما تيجي هي وعيالها .. أماه.. أبتاه ..

ـ وإنت هتوافقي إن هي تيجي تعيش معاكم ..!!

تباغتني بسؤالها .. لم أكن قد أعددت الإجابة الصارمة على هذا السؤال.. ماذا لو استمر هشام في مشروعه هذا؟ وماذا لو أصر على احضارها إلى البيت ..؟ كل طاقتي أوجهها الآن نحو هدف واحد .. ألا تتم تلك الزيجة .. فماذا لو تمت!

ـ السلام عليكم ..

قصيرة .. ليس بما يعيبها .. لكن قامتها ليست في شموخ قامتي .. نقطة تحسب لي .. تقودنا إلى غرفة جانبية على يمين الصالة ..

ـ اتفضلوا ..

متسعة قليلاً .. لكنها محشورة بكنبات أربع من خشب الشجر .. فرشت بالكليم .. وعلى كل منها وسادة بالية طغت تقيحات العرق.. على ألوانها.. يبدو أنهم يستخدمونها في استقبال الضيوف نهارًا والنوم ليلاً .. وثمة نافذة متوسطة الحجم تطل على مشاية البحر .. وأخرى صغيرة .. تنم تيارات رائحة الروث التي تلفحنا بها أنها تطل على الزريبة ..

تزيح النقاب عن وجهها .. تذكرني تقاطيعه الدقيقة بوجه الفنانة نجلاء فتحي .. لكن بياضه تعرض لعملية شواء مزمنة بلظى شمس الحياة القاسية فاكتسى بمسحة برونزية تفيض عليه بقدر عظيم من الإثارة .. هل رآها هشام؟ ربما قبل أن تتنقب .. أعضاء الجمعية لم ينقبوا نساءهم إلا منذ أربع أو خمس سنوات .. أظنها الآن في الخامسة والعشرين .. هذا عمر كوثر كما أخبرتني .. وهما كانتا زميلتين في الثانوية التجارية .. ياه يا هشام تتزوج بإمرأة تصغرك بربع قرن ..! ومن يدري ربما كان هذا دافعك للزواج.. شابة صغيرة .. وجهها شرك غواية وجسدها مكنوز بالحيوية ..

ـ ومين الست هانم؟

ارتجفت أوصالي رعبًا .. وكأن سؤالها يطفح من شكوك تراودها بأنني غريمتها الدكتورة زينب الحناوي.. .

تكشف كوثر وجهها وهي تجيب:

ـ الأستاذة فوزية .. قريبتي من بهوت .. عندها قرشين وعاوزة تحطهم في جاموسة أو جاموستين.

ـ يا أهلاً وسهلاً .. طيب ما تكشفي وشك واللا مستحية مننا؟

قلت بصوت خافت:

ـ احتراز .. ممكن حد يدخل من الرجالة ..

ـ وهو لو فيه رجالة في البيت كنت أسيب نفسي كده ..؟ أعمام العيال ما يجوزش إني انكشف عليهم .. كلهم بره في الجامع .. طيب أعملكوا الشاي وبعدين نكمل كلامنا ..

انتابتني نوبة فجائية من الفزع .. أي شيء ها تناوله هنا يمكن أن أتقيأه وأمعائي معاه ..

كأن كوثر تشعر بي .. ربما هي أيضًا من مشهد الطفل الغارق في برازه وروائح الزريبة انغلق جوفها أمام حتى شربة الماء ..

لكنها تصر .. وهي تغادر الغرفة يخترق النافذة الصغيرة صوته .. ياللكارثة .. هشام .. صوت ثان أستطيع أن أتبينه .. الشيخ صالح .. وأصوات أخرى .. تتسمر خطواتها في منتصف الغرفة ..

ـ الظاهر جايلنا ضيوف ..!

تحكم النقاب على وجهها .. ومثلها تفعل كوثر ..

ـ عن أذنكوا .. أشوف إيه الحكاية وراجعة تاني ..

تجذب الباب خلفها ..

هتفت في فزع ..

ـ لازم نمشي يا كوثر .

ـ خايفة من جوزك..؟

ـ مش عارفة .. جايز مش عاوزة أبان ضعيفة قدامه ..

همهمة أصوات تتسلل إلى الغرفة .. ينفرج الباب ثانية ..

ـ اتفضلوا.. حنقعد في الأوضة التانية .

كوثر بغير اصرار..

ـ احنا لازم نمشي دلوقتي .. اخواتي هيزعقولي لو اتآخرت عن كده ..

في ارتباك:

ـ طيب لغاية ما تشربوا الشاي تبعناها إلى غرفة مجاورة .. لا توجد بها مقاعد .. بل سرير ودولاب وتسريحة مشروخة مرآتها ..

ـ هارجعلكوا حالاً ..

هرعت إلى خارج الغرفة دون أن تتيح لنا أية فرصة للرد .. جلست كوثر على السرير فجاورتها .. تنتابني رغبة بأن أبقى لأرى ماذا يحدث؟ أراحني الحائط الطيني الذي يفصلنا عن غرفة الضيوف .. أصواتهم تصل إلينا في يسر .. بدا الشيخ صالح الحديث:

ـ يا شيخ هشام .. إذا لم نراع نحن تعاليم الدين فمن يراعيها..؟ الأصل في الإسلام تسهيل الأمور على العباد .. وفي حالتنا يرضينا مهر بسيط ..

ثم استطرد ضاحكًا:

ـ ربع جنيه كما يقولون .. أما الوليمة .. فيكفينا أكلة فسيخ.. بس يكون من نبروه .. الفسخانية هناك بيراعوا ربنا في صنعتهم..

تنغرس قهقهاتهم في مسامي أسنة مذلة ..

ـ والله كل إللي بتطلبه يا شيخ صالح لغاية دلوقتي مقدور عليه ..

يرد الشيخ صالح في شيء من الجد .

ـ المشكلة في الأولاد ..!

ـ اطمن يا شيخ صالح .. إذا كنت أنت خال الأولاد أنا هكون والدهم ..

obeikandi.com

ومش هفرق بين عائشة بنتي وأي واحد منهم.

ـ أنت قلتلي إنك هتجهز شقة في البيت للأولاد وأمهم .. وده مش غريب على رجل شديد الإيمان زيك يا شيخ هشام.

ـ طيب وفين المشكلة ..؟

ـ الدكتورة هتتقبل الوضع ده؟ حتى زوجات الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كن يغارن من بعض .. إزاي الدكتورة هتتعامل مع الأولاد خاصة وأن الله مارزقهاش ذكور .. من الجائز يكون في النفس شيء من ناحية الأولاد وكمان أمهم ..؟ صحيح إنت هتراعي ربنا وهتحاول تعدل بين الدكتورة وبين أختي إلا أن الدكتورة في النهاية بنت عمتك..

ـ وعشان كده طول عمري حاططها في عيني ومش باحاول أزعلها .. ما تتساش إنها ما لهاش اخوات رجالة وكمان لما أبوها الشيخ رضوان مات الله يرحمه .. حسينا أنا وأبويا وأخويا عدلي أن عمتي وبناتها مسئوليتنا .. وعشان كده لما عمتي عرضت علي الجواز من الدكتورة وافقت على طول ..

يا ليلة سودة .. ماذا أسمع ..؟ أمي عرضتني عليك يا هشام ..؟ أنا الدكتورة زينب الحناوي التي بنظرة تسيطر على مدرج محشور بآلفي طالب ..!! أهذا منظورك لعلاقتنا .. ابنة عمتك مكسورة الجناح فكنت لها جناحًا وليس زوجًا حبيبًا ..؟ وما الفرق بيني وبين تلك الأرملة ..؟ هي أيضًا تتزوجها لحماية أطفالها من الضياع وهي من الفتنة ..

ـ بس اطمئن يا شيخ صالح.. أختك وأولادها في عيني ..

لم أعد أطيق سماع المزيد ..

ـ يا للا يا كوثر .. أنا مخنوقة ومش قادرة أقعد..

ـ طيب استني لغاية ما زكية تيجي ..

ـ نادي عليها ..

بدت بدورها غير متحمسة لبقائنا ..

ـ طيب .. أنا هكلم زينهم عم العيال ومسافة يومين تلاتة هيكون عندك الرد بإذن الله ..

شهوة الفضول التي تتأجج بنزف كبريائي دفعتني إلى أن أنقب في كل حفرة بالقرية عن معلومة عنها .. كوثر التي زارتني بعد ذلك أكثر من مرة وزهرة كانتا خير عون في اشباع نهمي لكافة ما يتعلق بغريمتي .. تزوجت في الثامنة عشرة من أحد مشايخ الجمعية.. أفرغت له عائلته غرفة ليقيم فيها هو وعروسه في المنزل الذي زرناه أنا وكوثر .. الغرفة لم تعد تكفي بعد أن أنجب ثلاثة أطفال .. ينازع أشقاءه الأربعة وأمه ليحظى بغرفة أخرى لأطفاله .. ومما يحكى يثير الضحك بل الذهول .. ذهبت زكية مرة لزيارة أخيها صالح .. لكنها تأخرت إلى ما بعد العشاء .. وقف الزوج أمام البيت يترقب وصولها كاظمًا غيظه .. وحين رآى شبحها يلوح على مشاية البحر الضيقة ركض نحوها ليجذبها من ذراعها وهو يصيح غاضبًا ـ إيه إللي آخرك لغاية دلوقتي يا فاجرة ..! فإذا بها تجذب ذراعها وتهرع نحو المنزل ليفاجأ بأخيه ينقض عليه وهو يصرخ: لو مديت إيدك على مراتي مرة تانية هاقطعهالك ..!! لم تكن زوجته بل زوجة أخيه المنقبة أيضًا مثل زكية وكل النسوة في المنزل ..! يشارك الشيخ صالح في محل بقالة صغير .. وحين مات .. يسعى المتصارعون داخل المنزل إلى طرد زوجة أخيهم .. أين تذهب ..؟ لكن لابد من رحيلها .. لم تعد قادرة على تحمل مكائد "سلايفها" داخل المنزل .. الشيخ صالح طالبها بالصبر .. لعل الله يجد لها مخرجًا .. لا يقدر على استضافتها في شقته الصغيرة .. لديه زوجتان وثلاثة أطفال .. ولدان من الأولى وطفلة من الثانية .. سمعته مرة يقول لهشام في منزلنا أنه اختص بغرفة وفي الوقت الذي تشاركه إحدى الزوجتين فراشه .. تلزم الثانية الغرفة الأخرى مع الأطفال الثلاثة .. أرهفت السمع في شوق إلى

صياح هشام وهو ينهره .. لكنني سمعته يسأله ضاحكًا:

ـ طيب لو حسيت إنك عاوز الاتنين في نفس الليلة.؟

فقال الشيخ صالح بجدية:

ـ بيحصل .. لما أفرغ من الأولى تروح وتبعث الثانية وعلق شيخ آخر لا أعرف من يكون وهو يتنهد:

ـ والله تلك ميزة المثنى .. إن مرضت واحدة أو كانت حائضًا فالأخرى حاضرة ..

فسأل الشيخ هشام:

ـ ولوتصادف أن مرضت الاثنتان..

فرد الشيخ صالح:

ـ هنا تظهر ميزة الثلاث .. هناك أيضًا الأربع .. بس فين المال ..!!

فقال الشيخ الذي لا أعرفه ..

ـ لهذا يا أخوان لازم نركز في الدعوة على تسهيل أمور الزواج.. المهر ولو بآية من القرآن الكريم .. والتبسيط في الأثاث والسكن .. هذا يسهل للرجال أنهم يسيروا على سنة نبينا الكريم فيعددون .. مثنى وثلاث وحتى رباع .. بكده مش هتكون بيننا عانس بإذن الله ..

وتساءل أحدهم في قلق:

ـ والجماعة في شربين هيسيبونا على حريتنا ننشر الدعوة دي بين الناس!

فرد الشيخ صالح:

ـ الدولة اتفاقها غير المكتوب معانا نقول إللي عاوزين نقوله للناس .. بس مالناش دعوة بالعائلة المالكة ..

قال أحدهم ضاحكًا:

obeikandl.com

ـ الأب والأم والابن..!

لم يشاركهم هشام الضحك .. بل علق في قلق:

ـ الناس بدأت تتكلم عن علاقتنا بشربين .. وشايفين إننا عملاء للمباحث ..

أظنه كان يقصدني ..؟ ما زال يتذكر اتهامي له بأنه يعمل مرشدًا للمباحث ..؟

رد الشيخ صالح في لؤم:

ـ والله لو دي فكرة الناس عن الجمعية وفروعها في كل مصر يبقى احنا نجحنا في خداع الحكومة نفسها ..!!

زوجتا الشيخ صالح ـ كما أخبرتني كوثر ـ ينتميان إلى قاع القرية .. إحداهما دفع بها والدها العربجي إلى العمل في البيوت من صغرها والثانية ابنة فلاح أجير تزوج على أمها وتركها وشقيقتين بدون عائل .. يسوق الشيخ صالح تجربته بالزواج من الفتاتين كعمل إسلامي يتفق مع سنة النبي صلى الله عليه وسلم .. إنقاذ فتاتين من الضياع بالزواج بهما ..!! ولا شيء عن ممارساته الحيوانية معهما .. يفرغ من واحدة ليستدعي الأخرى .. أتبدو وجهة نظر (آدونيس) في كتابه الثابت والمتحول صحيحة .. أن الإسلام ينظر إلى النساء.. كنساء وليس كـ "نادية" بذاتها وسميرة بتكوينها الخاص..؟ ولأن إحدى نقائصنا أننا نحيض فينبغي أن تكون هناك ثانية وثالثة احتياطي..؟.. أود أن أقتحم عليه الغرفة لأصيح في وجهه أن الرسول ارتبط بالسيدة خديجة لأنها خديجة التي صدقته وأعانته وعانت معه .. أحبها لأنها خديجة وليست فقط امرأة طيبة يمكن استبدالها بأخرى حتى لو كانت أيضًا طيبة .. وبلغ به وفاءه أنه ما أشرك معها ثانية .. أود أن أصرخ في وجه الشيخ صالح أنه ليس من حق أو في طاقة أي من زوجتيه أن تغضب ..

إن غضبت وأفرطت في غضبها وطلبت الطلاق .. أين تذهب ..؟ من أين تقتات ..؟ أليس هذا أقل قسوة .. أمة تحت قدميه تكنس وتغسل وتطبخ

وتتلقى افرازات عقد ذكورته ليلاً طبقًا للجدول المعد في مقابل مأوى ووجبتي طعام كل يوم وكسوتين كل عام ..؟ أهذا هو الإسلام يا شيخ صالح ..!

.. وأخيرًا نطق هشام ..

ـ بس إنت يا شيخ صالح بتبالغ في تطبيق السنة الشريفة لما تآمر أولادك أن ينادوك أبتاه وأمهم أماه ..

رد الشيخ صالح ساخرًا :

ـ بل أنت أيها الشيخ التايواني إللي فرط في السنة لما بتسمح لابنتك بمناداتكم بابا وماما ..!

ويبدو أن عبارة الشيخ التايواني راقتهم فانطلقت قهقهاتهم .. إلا أن الشيخ التايواني والشيخ الحجازي اتفقا أخيرا .. إن كانت شقة الشيخ صالح ليس بها متسع لأخته الأرملة ففي بيت الشيخ التايواني متسع ..!!

***

داهمته:

ـ طلقني يا هشام ..

.. يستميت ليفلت بفعلته الشنعاء .. يصرخ:

ـ مسلمة.. وتعارضي شرع الله ..؟

ـ مثنى وثلاث ورباع .. مش هو ده الشرع إللي تقصده ..؟ ولو قريت الأثر كويس هتلاقي من السلف إللي إنتم بتقدسوهم ناس ما بيشبعوش من أربعة ففسروا مثنى وثلاث ورباع يعني تسعا .. سنة عن الرسول .. واحد من شيوخك بيقول كده على موقعه .. وعنده البرهان: لو كان ربنا بيقصد أربعة بس لاستخدم أو .. مثنى أو ثلاث أو رباع .. مش مثنى وثلاث ورباع .. هو دا الدين عندكم! الستات بقر تربط على الطوالة .. ليسحب التور منها ما يشاء في أي وقت عشان يتقيأ بداخلها عقده ..؟ دا مش شرع الله يا شيخ هشام.. دا شرعكم أنتم .

ـ لو كنت مسلمة حسنة الإسلام لساعدتيني على رعاية أرملة مسلمة وأولادها ..

جاوبني بصراحة لو كانت زكية دي عمرها ٤٠ ولا ٥٠ سنة كنت هتتجوزها علشان ترعاها وأولادها!

طبعًا طالما ديننا بيحثنا على كده ..

طيب .. لو كان الأمر كده .. مسألة دين ورعاية أنا مستعدة .. ادفع لهم أي مبلغ من المال شهريًا .. هو دا التكافل إللي حثنا عليه الإسلام ..

ـ وهو التكافل بالمال بس ..!! لو كانت مسألة مال ماكانش الرسول تزوج من سودة مثلاً ..!! زكية دي أرملة شابة إزاي نحميها من الفتنة إلا بالجواز ..؟!

وددت أن أصرخ في وجهه: وهل مثلك قادر على حمايتها من الفتنة .. وأنت

لم تستطع حمايتي .. تحتك وأحلم بغيرك .. ولولا أخلاقي وتربيتي لذهبت إلى ما هو أكثر من الأحلام!!

صحت:

ـ وليه أنت ..!! الجمعية فيها أعضاء غير متجوزين .. ليه أنت يا هشام؟ بتضحي بي وبسعادة بنتك عشان رئاسة الجمعية ..؟

ـ إخرسي يا كافرة!

تمتمت بهدوء:

ـ دا سبب كافي لطلاقي .. أنا زي ما قلت كافرة .. طبعًا لا يليق بشيخ جمعية أحباء رسول الله أن يكون زوجًا لكافرة .. .

ـ والله ما هتناليها أبدًا.. موتك أهون علي من طلاقك!

هجرت المنزل .. عدت إلى منزل أمي التي لطمت الخدود .. كان يخشى من مواجهتها .. فاكتفى بارسال عدلي وزهرة .. حاول عدلي أن يغريني بما يراه حلاً يرضي جميع الأطراف ..

ـ ارجعي يا دكتورة لبيتك .. هو هيفضل مقيم معاك .. ويمر عليها مرة أو مرتين كل اسبوع ..

رفضت باصرار .. عاونتني أمي وأختي فاطمة التي حين علمت بالأمر جاءت لتنفث غضبها .. كل النساء حولي ينفثن نار الغضب.. وزهرة ما جاء ابلاغها لي إلا نضح شتات مشاعر الرعب داخلها .. ألسنة الغضب دواخلهن وقودها مشاعر خفية بالخوف من أن يكون هذا مصيرهن .. قالت فاطمة بغيظ:

ـ همه كده المشايخ .. مالهمش أمان ..

ثم وجهت حديثها لأمي:

ـ يعني ما لقتيش غير شيخ تجوزيها ليه يامه!!

فقالت أمي:

ـ ما كانش لسه بقى شيخ .. مش عارفة إيه إللي غيره كده ..!!

لكنها أخيرًا تخنع:

ـ وماله يا بنتي .. كتير متجوزين اتنين وعايشين كويس ..

صحت في هلع:

ـ حتى إنت يا أمي ..!

ـ هو قال لو الدكتورة مش عاوزاها في البيت .. هياخدلها بيت في أي مكان تاني في البلد ..

في اصرار:

ـ ما فيش غير الطلاق يا أمي:

أخيرًا رضخ .. هل تعرف لماذا ..؟ هذا ما أخبرني به عدلي وهو حزين.. الشيخ صالح وجماعته بيلعبوا بعقله .. هذا تعبير عدلي وليس تعبيري .. ساندوه إلى أن فاز برئاسة فرع الجمعية في المركز وأصبح الشيخ صالح رئيسًا لفرع المعصرة .. وثمة وعود بأن يواصلوا سعيهم ليرأس هشام جمعية المحافظة .. ألهذا كانت زيارته للقاهرة منذ عدة أسابيع..؟! لم تطق حقيبة سيارته ما حشر بها من أرز وحمام وبط ودجاج أمضت زهرة وأخريات ينظفنها ليلة كاملة .. فاستأجر سيارة بيجو .. أتلك خطة الشيخ هشام ليكون رئيسًا لجمعية المحافظة .. ذبح عشرات الطيور وأنا ..؟! لكن يحسب له حرصه على حضور لحظة الذبح ليتأكد أن زهرة قامت بالمهمة طبقًا للشريعة الإسلامية..!!

يطلب ابنتي شادن .. أظنها نصائحهم له .. حمل عدلي إلي تلك الرسالة.. قال إنه يريد أن يربيها تربية إسلامية.. روعني ما يطلب.. هل أترك ابنتي لتتولى تربيتها تلك الجاهلة .. لتخنق طفولتها بنقابها الزائف ..؟

رفضت وفررت بابنتي إلى المنصورة وألحقتها بإحدى مدارسها الخاصة.. غيرت رقم هاتفي المحمول بعد تلقي سيل من التهديدات من هواتف عامة

ينكر هشام معرفته بمصادرها حين هاتفت عدلي وشكوت له .. لكنه فاجأني في الكلية مهددًا ومتوعدًا إن لم أسلمه شادن .. وبعد زيارته تلك بعدة أيام استدعاني عميد الكلية ليبشرني بأن الطريق أصبح ممهدًا أمامي لرئاسة القسم .. قلت له إن هناك من هو أجدر مني .. فهز رأسه مؤيدًا وقال:

ـ الدكتور أحمد المعداوي .. من يومين جالله عقد من جامعة الكويت وهيسافر قريب.

وفي نهاية حديثه باغتني:

طبعًا إنت عارفة أن رئاسة القسم محتاجة لموافقة الجهات الأمنية .. علشان كده أنا شايف إنك تحلي مشاكلك مع طليقك الشيخ هشام.. الأساتذة وحتى الطلبة بيحكوا عن الخناقة اللي حصلت بينكم من كام يوم .. أظن بسبب بنتكم عيشة .. طيب وليه لازمتها الشوشرة دي! أديله البنت واتفرغي لمستقبلك العلمي .. وما تنسيش رئاسة القسم هتقربك خطوات من العمادة.. وبعدين الشيخ هشام ما عندوش مانع أنه يرجعك لذمته .. والبنت تتربى وسطيكوا .. وحتى لو أصريت على موقفك هو مش هيمنع البنت إنها تقضي آخر الأسبوع معاك!

كنت أتابعه في صمت .. لكن داخلي يضج بصخب الذهول .. هل أصبح هشام يمثل هذا القدر من الأهمية إلى الحد الذي يدفع مباحث أمن الدولة لتكليف عميد الكلية بالتدخل واغرائي برئاسة القسم في مقابل التنازل عن ابنتي!

أعرف أنه أصبح رئيس فرع جمعية أحباء الرسول في الدقهلية .. لكن أهذا يكفي ليكون محاطًا بتلك الرعاية الخاصة من قبل الجهات الأمنية؟ أم أنهم يستعدون للانقضاض على جماعة الأخوان المسلمين في المحافظة التي أصبحت أحد أكبر معاقلهم في مصر ويرون في الشيخ هشام وجماعته خير عون في حربهم تلك؟

ألا تلحظ .. لا شيء كثيرًا في أوراقي السابقة عن ابنتي شادن .. أمر يثير الدهشة في مجتمع تتزوج فيه النساء فقط ليكن أمهات .. وتصبح سيرة المرأة الذاتية هي سيرة أمومتها .. كما قلت أنت في إحدى ندواتك .. وما قلته صحيح إلى حد كبير .. ولا أخفي أني مثلهن.. الأمومة في مخدعي كانت هدفًا.. لكن دون أن تطمس هدفًا آخر لايقل قداسة .. أن أكون أنثى .. ولأنني لم أكن تحت سقف الزوجية الأنثى التي تحلق فوق أجنحة ألفها في العلياء .. بل كانت الأنثى بداخلي منذ ارتباطي بهشام موجوعة .. لذا لم أجد حبرًا آخر سوى تلك الأوجاع لأغمس فيه قلمي وأكتب!

***

obeikandl.com

أظـن أن تلـك الأعاصير المحمومة من الأحداث التـي تزلزلني فاجأتك .. لكـن في تلـك اللحظة أشـعر بأنني أقوى رغم مـوار القلق الـذي يجتاحني بعـد حديـث عميد الكلية .. ولا أنكر أنني في البـدء اهتززت .. كيف لي أن أعيـش بـدون رجل ..؟ الآن أدرك أن مخاوفي كانت أوهامًا تتشـكل من تراثنا القاتل .. ظل رجل ولا ظل حائط .. كنت في فراشـه كبيانو في بيت تركي .. قطعة حتمية من جهاز عش الزوجية .. لكنها فقط مجرد ديكور لا تستخدم أبدًا ..!!

ولمـاذا أعيـش بدون رجـل؟ ألا تراني قد تحررت من هشـام .. فهل تقبلني زوجة لك ..؟ " إن كان الله قد اختص الجميلات بأن أجرى في عروقهن عسل النحـل .. فلقـد اصطفاك بـأن أجرى في عروقك غذاء الملكات "!.. ألسـت ـ وهـذا تشـخيصك لـي ـ جديرة بأن أكـون زوجة لـك؟! ودعني أذكرك برسالتك التي وردت بها عبارتك تلك:

" رغـم أنفـك وأنف هذا القلـب الدلوعـة النائم في وداعـة تحت ضلوعك سأظل أحبك .. ولدي أمل أن يستيقظ ذات يوم رافعًا رايته البيضاء .. ساعتها سـأمنحك مهدًا دافئًا في قلبي لتهجعي فيه إلى الأبد .. وإلى أن تأتي سـاعة الظفـر لن أيأس .. لأنني أراني يقينًا داخلك.. إلفك الذي أمضيت سـنوات ما قبـل زواجـك تبحثين عنه .. بل ومنذ كنت جنينًا يتكـور داخل رحم أمك .. لن أستسـلم لعنادك الطفولي الغبي وسأظل أدك حصونك حتى تنهار .. ليس غـرورًا أن قلـت لك أن يومًا ما سـأنتصر في تلك الحرب الشرسـة .. بل فهمًا للحقيقـة .. حقيقتـي .. أننـي الرجـل الوحيد في هذا العالـم الجدير بحبك .. بدفء روحك .. حنان أناملك.. وحقيقتك سـيدتي .. ترتبط باعجازه سـبحانه وتعالـى في الخلق .. فـإن كان قد اختص الجميلات بأن أجرى في عروقهن عسل النحل .. فلقد اصطفاك بأن أجرى في عروقك غذاء الملكات .. ذلك اليقيـن هـل رآه رجل آخر غيري ..؟ يقينًا لا .. لهذا .. غباء منك ألا تستسـلمي

وغباء مني أن أيأس "..

.. وها أنا استسلم .. فماذا أنت فاعل ..؟

لن تفكر .. ربما كان هذا قرارك منذ البدء ..! أروق لك فقط المرأة الأخرى .. فريسة تسوقها إلى شقتك الصغيرة في المنصورة .. تبعث الحياة في جينات مراهقتك .. لذة المغامرة .. استغفال المجتمع.. زوجة بمآذون واشهار لا لذة فيها.. زوجة مؤرقة رأسها بأسئلة الوجود والمؤرخين الجدد والبنيوية لا مآرب لك فيها زوجة .. بل عشيقة .. وإلا لماذا طلبت من زوجتك أن تستقيل من عملها وتلزم البيت ولا تشغل نفسها إلا بأمورك وأبنائك الثلاثة ..؟! لكنك لم تسألني: هل أقبل بك زوجًا ..؟ إجابتي أيضًا بدون تردد: لا صارمة ..!! وما الفرق بيني إذن وتلك الأرملة الشابة التي خطفت رجلاً من زوجته!!

.. وإياك أن تظن أنني الآن صيدًا سهلاً .. فتشكلني في خيالك " بقرة شايعة " .. أعرف أن جسدي يمور بالرغبات التي بحت لك في رسالتي تلك بشيء منها .. لكن هذا أمر طبيعي .. إنني في النهاية أنثى .. لكن ما غاب عنك دائمًا وأوجعني أنني أنثى مكتملة .. لذا يأبى هذا الجسد حتى لو كان أتونا من الرغبات أن يمنح مفاتيحه لقناص يتغاضى عن كل ممالك د. زينب الحناوي من رأس تستعر بشهوة المعرفة ووجدان يتأجج بشهوة الإبداع فلا يرى فيها سوى شهوة الجسد.. لذا.. لا أفرط في المبالغة يا أستاذي إن قلت أنني الآن .. في رحاب مملكتي بشقتي الصغيرة والمجهولة لك وللشيخ هشام وجماعته السلفية استمد من حريتي .. استقلاليتي.. قوة في مواجهتكم .. ما شعرت بها من قبل!

ومع ذلك يمور داخلي الآن برغبة غامضة .. لا أدري لها تفسيرًا.. أن أختم رسالتي هذه بتلك الكلمة التي تقت أن تسمعها مني لأكثر من خمسة عشر عامًا:

أحبك ..!!

د. زينب الحناوي

المنصورة ٢٨ سبتمبر٢٠٠٩

وجد هذا الدفتر ملقى ضمن أوراق أخرى في شارع لاظوغلي بالقاهـرة عقـب اقتحام متظاهريـن مبنى مباحث أمـن الدولة يوم الأحـد الموافـق ٦ مارس ٢٠١١ . . ومما يذكـر أن الدكتورة زينب رضوان الحناوي أستاذة الأدب الانجليزي بجامعة المنصورة كان قد عثر على جثتها يوم ٥ أكتوبر ٢٠٠٩ في مطبخ شقتها بعد تلقي قسم أول المنصورة بلاغات من الجيران عن سماع صرخات اسـتغاثة من داخل الشقة . . وتبين من التحقيقات أنها قتلت طعنا بسكين . . وقيدت القضية ضد مجهول كما ذكرت الصحف حين ذاك .

محمد القصبي